اقرأ

الدكتور مصطفى الديواني

قراءات ورحلات





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا





الدكتور مصطفى الديواني

قراءات ورحلات

اقرأ ٤٠٠
دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤٠٠)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

... فى آفاق الروح



ذات يوم من شهر نوفمبر ، من عام ألف وتسعمائة وخمسة وأربعين ، رزئت بفقد أخى « محمود » ، وكان محامياً لامعاً ، أحب الحياة وأحبته ، وعركها وعركته ، وعرفها وعرفته . وبعد أن وسدته اللحد ينعم براحته الأبدية ، وخرجت أتعثر — وأنا أضن أن أنفض عن حذائى الغبار الطاهر ، الذى أصبح فقيدى من جزئياته — خيل إلى أن عالم المادة قد انتهى بالنسبة لى .

ومضت أسابيع قلائل كان حزنى خلالها مكبوتاً ، لا تصحبه دمعة إلا إذا خلوت إلى نفسى ، ولكن تقاسيم وجهى الباهت الذى شف عن قلب يتلظى ، وعينى الجامدتين ، وعودى الذابل فضحت كلها لوعتى ، كنت أتمنى أن أحبسها فى نفسى ، كى أنعم بها وحدى دون شريك ، وكأنى كنت أغار عليه من دمع الغريب ؟ : . كانت أسارير وجهى ترفض بعناد أن تنفرج لتشرق منها بسمة عابرة خلال حديث تعمد قائله أن يمزجه بالفكاهة بغية التسرية عنى .

ثم أخذت عضلات الوجه تلين تدريجيًّا ، فكانت تسبق البسمة الهزيلة عبسة طويلة تأخذ فى الانفراج رويداً رويداً ، حتى إذا ما أطلت الابتسامة على الوجه الحزين ، هطلت من العينين دمعة الندم على ما فرط . ثم كثر تردد البسمة بين ظهور واختفاء مع الظروف ،

دون إيلام أو ندم ، ثم وجدتني أندمج ــ في تدرج سهل بسيط ــ مع جو الضحك والقهقهة ، عندما التأم الجرح ولم يبق منه إلا ندوب الذكرى الحلوة الجميلة .

ولكن هل نسيت حقًّا ؟ . . . إن ما يحزن النفس ، عند فقد عزيز ، هو هذا الخاطر الذى يجول فى نفوسنا : هل انتهى كل شىء ؟ هل السجن الأبدى فى تلك الحفرة الصغيرة ، هو نهاية الدنيا ؟

* * *

أخيراً وجدتني مندفعاً ــ دون قصد ــ فى دراسة الروحيات ، لأهرب من أطياف الأحزان والذكرى . ففى أمسية باسمة ، كنت أسير فى شارع قصر النيل بالقاهرة ، فاجتذبتنى نافذة إحدى المكتبات الكبرى وأخذت أتأمل محتوياتها ، فلفت نظرى كتاب بعنوان « قصتى الكبرى » My Big Story لهانن سوافر : وكنت أثناء إقامتى بإنجلترا أطلب العلم ، أقرأ لهذا الكاتب فى كبريات الصحف والمجلات ، وأعلم أنه من عمالقة « فليت ستريت » ، وهو حى الصحافة فى إنجلترا ، ومن طبيعته الهجوم والهدم والتدمير ، والنقد المر ، والسخرية اللاذعة فى كتاباته ، حتى أصبح الكل يخشونه ويعملون له ألف حساب . كما أنه لم يكن يقبل كل ما يقال ، ولا يستسيغ إلا ما يعتقده الحقيقة التى لا مرية فيها .

لذلك كانت دهشتى عظيمة عندما وجدت كتابه يبحث فى عالم الروح . ولم أكن أظن أن هذا الملحد ــ وكان يعترف علنا بإلحاده ــ

يسمو فى بحثه وتفكيره إلى عالم ما بعد الموت ، وقد كنت أتخيله يهتم بيومه دون غده . وعجبت عندما قرأت أن هذا البحث قد شغل تفكيره خلال العشرين السنة الأخيرة ، وقد بدأه ساخراً متحدياً هداماً كعادته ، ثم دخل قلبه الإيمان رويداً ، حتى اتخذ من الروحيات ديناً فبدأ كتابه بالكلمات الآتية :

«أنا لا أعترف إلا بديانتين : الروحية والاشتراكية . أنا أومن بوجود إله فوق الجميع ، يدفعنا إلى الخير والشر حسبما تقتضى مصلحة العالم . وأعتقد بإخلاص أنه لو آمن الناس بديانتى وجعلوا منها أساساً للمعاملة ، لزالت الأحقاد ، ولدفنت الخلافات الدينية إلى الأبد ، ولبدأ عالم جديد يعيش الكل فيه كأفراد عائلة كبيرة ، لا يمتاز الواحد فيها عن الآخر إلا بما يسديه من خير للمجموع . لقد ثبت لى بصفة قاطعة ، وبعد تجارب مرهقة طويلة ، أن الحياة لا تنتهى عند القبر ، وأن هذه الدنيا بكل ما فيها من مصاعب ومتاعب ما هى إلا روضة أطفال ، تهيئنا لمهمة أكثر روعة واكتمالا فى عالم آخر ، سوف تتاح الفرصة فيه لمن قصر فى أداء مهمته — فى هذه الدنيا — أن يصل ما انقطع ، ويجرب حظه مرة أخرى ، ليسدى الخير لمن حواله» ؟

ولهؤلاء الروحيين منطق لطيف كالنسيم العليل ، ينزل على الجرح العميق فى النفس الحائرة الحزينة كالبلسم الشافى ، فيلتئم على غير ميعاد . وقد اعتنقوا منطقهم كدين لا يقبلون فيه نقاشاً ، وهو يتلخص فى أن هناك جسداً أثيريًّا يفارق جسد الإنسان عند الوفاة ، ويتكون

من مادة اسمها «الأكتوبلازم» ، توصل العلماء إلى تحليلها «ميكروسكوبيًّا» ، وإلى تصويرها بالأشعة تحت الحمراء « فوتوغرافيًّا وسينمائيًّا .

والروح حسب اعتقادهم خفيفة لطيفة ، مهما بلغ ثقل دم صاحبها وسماجته أثناء رحلته فى العالم الفانى ، إذ يبلغ وزنها بضع عشرات من الجرامات . وهذه المادة هى التى تنشق من جسوم الوسطاء لتصول وتجول ، مخترقة الحجب ، ومتعدية حدود الفضاء والزمن ، فهى تتخطى آلاف الأميال فى ثوان أو دقائق ، فتصل إلى أماكن قاصية ، فتمكن الوسيط — وهو جالس أمامك — من وصف منزلك ، أو الاتصال بشخص آخر فى قارة بعيدة كأمريكا مثلا . وهم يفسرون إسراء النبى « محمد » ، صلى الله عليه وسلم ، بأنه طرح روحى لا جسدى ، ويصفون « محمداً » فى مختلف الكتب التى تبحث فى هذا الموضوع ، بأنه من أعظم الروحيين الذين وجدوا على سطح البسيطة ، منذ بدء الخليقة . . ويفخرون بهذا !

* * *

وهم يعتقدون أن الأنبياء والرسل قد أغدق الله عليهم ميزتين عظيمتين : أولاهما الجلاء البصرى ، أى القدرة على الرؤية بشكل يخالف العرف ، ودون استعمال الحواس العادية ، وثانيتهما الجلاء السمعى أى القدرة على إدراك التأثيرات الصوتية بما يخالف العرف ، دون تقيد بالزمان أو المكان . ويفسرون نزول الوحى على الرسل بأنه يكون نتيجة غيبوبة تعتريهم — كوسطاء روحيين من الدرجة الأولى — تصحبها « فسيولوجية » كتيبس الجسم مثلا ، تغادر الروح خلالها

الجسد مع بقائها متصلة به بحبل أثيرى . . وفى الوقت نفسه ، تكون روح أخرى قد هيمنت على الجسد ، فتنطقه بالإعجاز المبين ! . .

ويقول المؤرخون الإسلاميون إن النبى صلى الله عليه وسلم ، كان إذا نزل عليه الوحى مضى فى شبه غيبوبة ، وانتابته رعدة ، وتيبست منه الأطراف ، وفى خلال نوبات الغيبوبة هذه ،أنطقه الله بالقرآن الكريم الذى هو الإعجاز بعينه ، والذى لو حاول الإنس والجن مجتمعين أن يأتوا بمثله لعجزوا وارتدوا خاسرين . والذى يقرأ القرآن يدرك دون إجهاد ذهن أنه فوق طاقة البشر ، وأنه لا يمكن إلا أن يكون تنزيل العزيز الحكيم على لسان نبيه الكريم .

وهم يدللون على إمكان وجود الغيبوبة والوساطة بأمثلة كثيرة لا حد لها ، منها أن الوسيطة الشهيرة « مرجرى » — عقيلة الدكتور « كلاندون » أستاذ الجراحة بجامعة « هارفارد » — كتبت وهى واقعة فى هذه الغيبوبة ، تسعة موضوعات مختلفة ، بتسع لغات مختلفة منها اللغة الصينية ، التى لم تكن تعرف منها حرفاً . ويذكر الدكتور « كلاندون » أن زوجته — وهى وسيطته — تكلمت فى إحدى الجلسات بست لغات مختلفة ، مع أنها لم تكن تعرف غير اللغتين الإنجليزية والسويدية . وكل هذه الأمثلة تدل على استحواذ شخصيات غير منظورة على هؤلاء الوسطاء ، تنطقهم بما لا يعلمون فى حياتهم الجسدية .

وهم يعتقدون أن النوم طرح للروح ،وأن الأحلام سياحات بالروح ، فالروح تغادر الجسد خلال النوم وتمضى فى سياحتها ، فتجول فى عالم

المادة وعالم الروح ، وينعدم لديها الزمان والمكان بالمعنى المفهوم لدينا ، وتبقى متصلة بالجسد المادى بحبل أثيرى ، يستطيل وينكمش ويثنى وينفذ من الجدران . . كما أن انسحاب الروح من الجسد — ساعات النوم — يهيء لها الحصول على تقوية وتغذية روحيتين ، خلال استيطانها المؤقت عالم الروح .

والغريب أن هذا ينطبق مع قوله الله تعالى فى كتابه العزيز : « الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتى لم تمت فى منامها . فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » . أى أن النوم طرح روحى مؤقت ، والموت طرح روحى مستديم ، كما يقول أصدقاؤنا الروحيون . ومن الطريف أنهم يدللون على صحة هذا بصور « فوتوغرافية » ، مأخوذة بالأشعة تحت الحمراء ، تبين بجلاء ووضوح انسلاخ الروح من الجسد فى حالات الغيبوبة . وهناك أشخاص عندهم ميزة الجلاء البصرى — أى رؤية ما وراء الحجب — وهى تمكنهم من رؤية أرواح الموتى وأرواح الأحياء المطروحة .

والطرح الروحى فى عرفهم نوعان : إجبارى ، وهذا يمارسه الناس كلهم عند النوم ، واختيارى ، وهذا لا يقوم به إلا الموهوبون . ويقولون إن هذه الموهبة تولد مع الشخص ، ولا توجد إلا فى أشخاص معينين ، قد يعثر عليهم بطريق المصادفة ، دون أن يكونوا على علم بأن الله قد أغدق عليهم نعمة الاتصال بالعالم الآخر .

وقد تتجسد الروح بعد طرحها ، فتشعر أهل المكان — الذى

وصلت إليه — بوجودها ، فيرونها أحياناً ، ويسمعونها تتكلم . . وأحياناً يحسون بها وهى تلمس أجسامهم ،أو يرونها وهى تكتب أمامهم ، كتابة تبقى ظاهرة بعد انصرافها . أى أن هناك جسداً جديداً ثانياً مؤقتاً ، له نفس ميزات الجسد القديم من حيث التشكل والتكوين ، يمكن الشخص العادى من رؤية الروح بعد طرحها . وروى أن سير «كارن راش» رؤى فى مجلس النواب البريطانى ، بينما كان طريح الفراش فى داره . وأن سير «چابرت باركر» وسير «آرثر هيتر» قد رأياه بوجهه الشاحب ، وجسمه الذى أمضه المرض ، ثم اختفى فجأة . . ويروى «باترزبى» أن «الدكتور مارت ماكدونيل» قد ظهر فى المجلس ، فى فترة كان فيها مريضاً طريح الفراش فى داره ، وقد رآه زملاؤه — أعضاء المجلس — فى يومين متتاليين ، وهو يعطى صوته !

* * *

وكنت أخيراً أقرأ مجلة إنجليزية وردت من الخارج ، فاسترعى نظرى عنوان ضخم عن انتقال المستر «ويليام باريش» ، الطبيب الروحى المشهور ، الذى يقولون إنه عالج أربعمائة ألف حالة مستعصية دون سلاح أو دواء . وذكر كاتب المقال أن وسيطتين معروفتين ، وهما «إستل روبرتس» و«كاثلين باركل» شاهدتا روحه بما حباهما الله من قدرة الجلاء البصرى — أثناء صلاة الجناز التى كان يقوم بها «موريس باربانيل» . وكانت الروح جالسة

فى كرسى بالقرب من النعش المغطى بالأزهار ، والذى ضم جسده . وكان (الميت) — ولنضع الكلمة بين قوسين حتى لا يحتج علينا إخواننا الروحيون — يبدو سعيداً مرحاً ، ينظر إلى جثته من آن لآخر ، حتى إذا ما حان ميعاد حرقها وذر رمادها فى حديقة داره — حسب وصيته — انسحب وهو يبتسم ، ولوح بيديه مودعاً جسده المادى .

وكان مظهر زوجته أثناء الجناز وحرق الجثة داعياً إلى الدهش والإعجاب ، فلم تكن هناك دموع ، أو ملابس سوداء ، أو حزن ، أو شجن . . بل ابتسام ومرح ، وملابس زاهية ازدهرت بأحلى ورود الربيع . وكانت تبسم فى وجه كل من يحدثها ، وكأنها فى حفلة عرس ، وقد كتبت على البطاقة الملصقة بباقة الزهور ، التى وضعتها على نعشه : « عيد ميلاد سعيد فى بيتك الجديد . أزهار على طول الطريق » ! . . كما طلبت من عازف الأرغن أن يعزف القطع التى كان زوجها يحبها . وعندما عادت إلى المنزل مع أصدقائها ، مدت لهم موائد الشاى كالعادة ، وصبت الشاى فى أقداحهم بيدها ، وأخذت فى التسرية عن ضابط لم يتمكن من ضبط عواطفه فانهمرت الدموع من عينيه ، وأخذت تربت كتفه مشجعة ، طالبة منه أن يكون مرحاً كباقى المدعوين ، لأن ما حدث أثناء النهار مدعاة للفرح والانشراح لا للحزن والانقباض .

* * *

يحدثنا المستر « سوافر » فى أحد فصول كتابه ، عن الوساطة الروحية وكيف توهب . فيقول إن هؤلاء الوسطاء الروحيين ينبتون فى كل الطبقات بين كل الألوان والأجناس ، كالزهر النادر فى الصحراء القاحلة . وقد يكون اكتشافهم مجرد مصادفة ، أو قد يكون مفاجأة للشخص نفسه الذى وهبه الله مقدرة الوساطة وهو لا يدرى . وضرب لذلك أمثلة عدة ، لعل أمتعها ما حدث لمسز « ليليان بيلى » وقد دعيت لحضور جلسة روحية فى منزل « وليم هوب » — المصور الروحى المعروف . . عند هؤلاء القوم على الأقل— فلاحظ الموجودون أنها راحت فى غيبوبة بعد بدء الجلسة بقليل . . ورأت فى غيبوبتها ضابطاً شاباً ، تمكن المستر « هوب » من التقاط صورة « فوتوغرافية » له (وقد فصلنا من قبل كيف أصبح تصوير الأرواح ممكناً بالأشعة تحت الحمراء) . ولم تلبث أن تناست ما حدث ، لأنها خشيت أن يؤدى بها التمادى فى هذا الطريق إلى الجنون .

ولكن قدميها قادتاها — فى مناسبة أخرى — إلى جلسة روحية ، عند الوسيطة المشهورة « هيلين دنكان » . وهناك تجسدت روح الضابط وكأنه كان يتعقبها .. ورأته بوضوح وجلاء وسمعته يقول لها : « أريد أن أجعل منك وسيطتى ، فأنت موهوبة ، وأنا فى أشد الحاجة إليك لتأدية رسالة هامة، ولن أتمكن من إتمامها إلا بمعاونتك » . ولما وعدته بذلك ، أخبرها بأن اسمه الكابتن « وليم ووتن » ، وقد قتل فى الحرب العالمية الأولى ، وبأن والدته كانت بعد على قيد الحياة ،

وأعطاها عنوانها فى أمريكا . وذهبت مسز « بيلى » ، فى اليوم التالى وراجعت السجلات فى وزارة الدفاع فتيقنت من صحة الاسم ، ثم كتبت إلى والدته فى عنوانها بأمريكا ، فوصلها رد جاف ، قالت الأم فيه إنها تفضل لو ترك ولدها دون إزعاج ، بعد أن استشهد فى سبيل الوطن . . وهذا يدل – على الأقل – على أن العنوان الذى أعطته الروح كان صحيحاً !

ومنذ ذلك الحين أصبحت مسز « بيلى » من خيرة الوسطاء الذين عرفهم المؤلف . ويقول إنها كانت – ذات يوم – تنتظر القطار المسافر إلى بلدة « كرو » حيث تقطن ، فرأت رجلا رث الثياب مبتلها ، جالساً على مقعد ، وبينما كان يحاول أن يفسح لها مكاناً لتجلس بجانبه ، تجلت مواهبها الروحية فجأة ، فرأت روح سيدة تحاول إحاطة الرجل بذراعيها معزية ، مواسية . . ونظرت إليها الروح وقالت : « قولى لهذا الرجل إننى جين » . فحارت مسز « بيل » كيف تخاطب شخصاً غريباً لا تعرفه ، وأخيراً تشجعت وقصت عليه ما رأت ، فعجب الرجل وقال : « الواقع أن هذا اسم زوجتى ، ولقد ماتت منذ حين ! » .

ثم طلبت الروح منها أن تقول له ألا يقلق على ابنته ، لأنها سوف تسير فى طريق الشفاء ، بالرغم من شدة مرضها . فهز الرجل رأسه غير مصدق ، وأخبرها بأنه كان إذ ذاك مسافراً إلى حيث توجد ابنته ، التى أجمع الأطباء على اليأس من حالتها ، لأنها كانت

مصابة بالتدرن الرئوى « والدفتريا » معا ، والأمل ضئيل فى إنقاذها . . فأكدت له ما رأت وما سمعت ، وطلبت منه أن يتصل بها بعد أيام ، ليخبرها بما يجد . . وشدما كانت دهشتها عندما جاء لزيارتها ، بعد بضعة أيام ، وأخبرها بأنه قد قيل له إن حالة الفتاة تحولت إلى الأحسن ، فى نفس الساعة التى ظهرت فيها روح زوجته فى المحطة تواسيه وتطمئنه ! . . ومنذ ذلك الحين سارت الفتاة فى طريق الشفاء بخطوات سريعة .

* * *

من هذا المثل ندرك أن الوسيط شخص موهوب ، يتمتع بجلاء بصرى وجلاء سمعى ، يجعلانه يرى ويسمع ما لا يمكن للشخص العادى رؤيته أو سماعه ، وأن هذه الموهبة قد تكتشف عن طريق المصادفة ، وأنه لا بد لكل وسيط من روح مرشدة ، يقع اختيارها عليه لتؤدى رسالتها ، وهى وصل العالم الفانى بالعالم الثانى عن طريقه .

ويقول المؤلف إن روحاً أخبرتهم فى إحدى الجلسات بأن هناك آلاف الأرواح تتحرق شوقاً للاتصال بالأهل والأحباب فى عالمنا ، ولا يمنعها من هذا سوى قلة الموهوبين من الوسطاء ، ومن ثم فإن كل روح تنتظر دورها أو الفرصة المناسبة ، وضرب لذلك مثلا بالطيارين الشبان الذين لقوا حتفهم فى معركة بريطانيا الجوية الكبرى ، وهى المعركة التى أنقذت الإمبراطورية ، والتى كانت نقطة التحول فى الحرب العالمية الأخيرة .

فقد عقدت جلسة روحية كبيرة حضرها اللورد « دودنج » ،

الذى قاد معركة بريطانيا . وكانت الوسيطة « استل روبرتس » تتكلم بلسان أربعة شبان ، قدموا أنفسهم للحاضرين ، الواحد بعد الآخر . ولقد وجه أحدهم الخطاب إلى والديه ، وكانا ضمن الحاضرين فعرفا صوته تماماً . ولما سئل عن الاسم الذى كان يدلل به وهو على قيد الحياة ، ذكره دون تردد ، مما أزال كل شك فى شخصيته . وتقدمت بعده روح أخرى ، ذكرت اسم صاحبها ، وهو « دافيد هوايت » ، الذى حيا والدته — وكانت حاضرة — وسألها عن أقاربه وهو يذكر أسماءهم واحداً بعد الآخر ، وأخبرها بأنه يتمتع الآن برفقة والده ، الذى أرسل اليها أطيب تحياته وتمنياته .

وهكذا تتابعت الحوادث المثيرة فى تلك الجلسة ، لدرجة أقنعت اللورد « دودنج » ، وهو الذى لا يتأثر إلا بالوقائع الثابتة ، فكتب بتوقيعه — فى بعض كبريات الصحف — عن اقتناعه التام بما رأى وسمع . ولعل أكثر ما أثر فيه ، ذلك الحديث الذى دار بين طيار ووالده ، إذ قالت الروح : « لا تتعبوا أنفسكم فى البحث عن حقيقة مصيرى ، فقد انتقلت إلى هنا بعد أن تحطمت طيارتى . وأنا أعرف أنهم لم يعثروا إلا على بضع قطع من لباس الطيران ، الذى كنت ألبسه فى رحلتى » فقال الوالد : « نعم يا ولدى ، وأنا أحتفظ بقطعة منها فى المنزل » . فضحك الشاب وهو يقول : « أعرف هذا يا والدى ، وهذه القطعة من ذيل السترة . أليس كذلك ؟ » فقال الوالد : « نعم يا ولدى ، وسأحتفظ بها ما حييت » . ثم ختم الشاب رسالته بقوله :

« حاول يا والدى أن تقنع والدتى بأننى لم أمت ، وأن أشد ما يؤلمنى وينغص حياتى وسعادتى فى العالم الذى أنا فيه ، أن أراكما على هذه الحال من الحزن والشجن . . . وقال لست الوحيد هنا ، بل معى الملايين الذين يتلهفون على الاتصال بأحبائهم فى عالمكم ، لو سنحت لهم الفرصة . حاول يا والدى أن تحضر معك والدتى فى المرة القادمة !

كانت دهشة اللورد « دودنج » كبيرة عندما تكلمت روح طيار آخر اسمه « ستيفنز » ، كان اللورد يعرفه جيداً . وكانت زوج هذا الطيار جالسة بجانب اللورد أثناء الجلسة ، فوجه كلامه أولا إلى اللورد قائلا : « هل تذكرنى ؟ . . إنى أرى زوجتى جالسة بجانبك » . فقال اللورد : « إننى أذكرك تماماً ، وأذكر جرأتك وشجاعتك » . ثم وجه الشاب الكلام إلى زوجته ، ذاكراً تفصيلات كثيرة ليثبت لها شخصيته . وكان مما قاله · « ألا يزال ولدنا مولعاً بالكتابة على الحائط بقلمه الرصاص ؟ » . . وكان هذا — فى الواقع — من عادات ولدهما السيئة ، التى كثيراً ما عاقباه بسببها .

واستمر المستر « سوافر » فى سرد الأمثلة الممتعة عن الجلسات التى تحدثت فيها أرواح ضحايا الحرب الأخيرة . . وكلها مجمعة على أن الموت ليس نهاية ، بل هو بداية رحلة أكثر روعة ونقاء من الحياة المادية التى نغبط أنفسنا عليها . . وكانت تجاربه فى هذا الميدان مما أدخل العزاء على قلوب الملايين من الأرامل والثاكلات ، فشكراً له على أى حال .

ويظهر أن رابطة صداقة متينة كانت تربط المستر « سوافر » باللورد « نورثكليف » ، ملك الصحافة فى بريطانيا ، الذى مات فى عام ١٩٢٢ ، فقد بدأ المؤلف أبحاثه الروحية بعد وفاة « نورثكليف » مباشرة ، وأراد أن يثبت لنفسه وللعالم أن هذه الجذوة المتقدة لا يمكن أن تموت إلى الأبد ، وأنها لا بد واجدة أفقا بل آفاقاً واسعة ، تستأنف فيها نشاطها . ويقول « سوافر » إنه بدأ يؤمن بوجود الروح عندما اتصل بنورثكليف فى جلسات روحية متعددة . فقد كان على علم تام بآرائه ، وطرق تعبيره الفكاهية اللاذعة أثناء المناقشات الحادة . وما كان يمكن أن تخفى عليه نبرات صوته الساحر ، التى لا تخطئها أذناه أبداً .

كذلك يقول « سوافر » إن صديقه بدأ اتصالاته بالعالم فى نفس الليلة التى مات فيها ، ليثبت أنه لم يختف إلى الأبد . كان ذلك فى جلسة روحية عُقدت بمنزل قسيس فى « سوث نوروود » ، فلم يشعر الحاضرون إلا ونورثكليف » يعلن حضوره ، ويعد بزيارتهم من آن لآخر . وفعلا ، أعاد الكرة بعد أسبوعين ، وانتقد مقالا نشرته مجلة روحية ، إذ أشار إلى مواطن الضعف فى المقال وذكر أنه منشور فى العمود الثالث من الصفحة الثانية . . ولاحظ الموجودون أن شخصيته كانت تتطوّر مع مرور الأيام ، حتى أنه — بعد عامين من موته — قال إنه قد تجرد من شخصيته القديمة ، ويعتقد أنه وُلد من جديد بالرغم مما مر به من تجارب هائلة إبان حياته الدنيوية .

وقد ظل حضوره مقصوراً — فى مبدأ الأمر — على حلقة « سوث

نورورود » هذه ، ثم أخذ بعد ذلك يتردد على حلقة روحية كان يحضرها المستر سوافر ، فيشبعه بنكاته اللاذعة ، وتعليقاته التى كان يتميز بها فى حديثه الدنيوى ، وقد قال له مرة إنه يشرف بروحه على اجتماعات مجلس إدارة صحيفة « الديلى هرالد» !.. وصاح مرة بأعلى صوته، عندما سمع كلاماً لم يعجبه : « أنتم مخطئون ، أنتم مخطئون ! . . » ولكن أحداً لم يسمع صوته ، بالرغم من أنه كان يراهم ويسمعهم يتكلمون ، فاضطر فى آخر الأمر إلى الانسحاب فى يأس وقنوط .

وكان من أصدقاء المؤلف أيضاً السير « هنرى سيجريف » بطل سباق الزوارق البخارية العالمى ، الذى كان معبود الأمة الإنجليزية جمعاء ، والذى قضى نحبه فى محاولته الآخيرة لتجاوز الرقم القياسى . . وكان هذا البطل صديقاً حميماً للمؤلف ، وكثيراً ما زاره فى منزله ليأتنس به ، وليحدثه فى فلسفة الروحيات . ويقص المؤلف فى خطاب أرسله إلى الليدى « سيجريف » — بعد وفاة زوجها بأيام — تفاصيل أولى محاولات السير « هنرى » للاتصال به، فكتب إليها قائلا : « لقد عدت أنا وزوجتى إلى مسكننا فى المساء ، بعد أن شاهدنا على ستار « سينما البلازا » عرضاً سينمائياً مروعاً لسباق زوجك الأخير . وكان الخدم قد انصرفوا ، وليس بالمسكن أحد غيرنا ، والأبواب والنوافذ محكمة الإغلاق.. ورأينا أن نتناول عشاءنا فى المطبخ ما دمنا وحيدين ، وقبل ذهابنا إليه ، تركنا صحيفة « السنداى اكسبريس » فى غرفة الجلوس، وكان بها مقال كتبه السير « هنرى » قبل انتقاله . وكان نور الغرفة

هضاء ، وهذا ما أجزم به دون أى شك .. وكذلك كان نور غرفة النوم :

وبعد أن تناولنا العشاء ، كانت دهشتنا عظيمة . إذ وجدنا غرفة النوم مظلمة . فحاولنا إضاءتها ؛ ولكن الزر الكهربائى أبى أن يعمل ، فضغطت زوجتى زراً آخر أضاء مصباحاً فى ركن آخر من الغرفة ، أمكننا على ضوئه أن نرى أن « لمبة » المصباح الأولى قد أزيلت من مكانها ، ووضعت فى الموقد . . ولو أنها كانت قد سقطت من تلقاء ذاتها ، لوقعت على الأرض بعيداً جداً عن الموقد ، ولتكسرت ألف قطعة . . أما نقلها من مكانها فى المصباح إلى الموقد ، فلا يمكن أن يتم إلا بوساطة يد بشرية . ثم ازدادت دهشتنا عندما وجدنا الصحيفة — التى تركناها فى غرفة الجلوس — ملقاة على السرير ، فأخذناها إلى مكانها الأول . . وغفلنا عنها لحظة ، تناقشنا حلالها فى هذه الظاهرة العجيبة . . وعند رجوعنا إلى غرفة النوم . وجدنا الصحيفة على الفراش للمرة الثانية . .

ولست أملك أن أتسرع فى الحكم على ما شاهدته وزوجتى ، فى تلك الليلة ، وقد كنت على يقين من عدم وجود شخص خلافنا بالمنزل ، ومن أن أبواب المسكن ونوافذه كانت مغلقة.. ولكن هناك إحساساً داخلياً يجعلنى أشعر بأن كل ما شاهدناه كان مجرد محاولة من زوجك العزيز ، ليشعرنا بوجوده بجانبنا ، وإن افتقادنا إياه لا يعدو فراق الجسد !

ويتابع « سوافر » القصة فى كتابه ، قائلا :

« وبعد ثمانية عشر شهراً ، بدأ سيجريف يزور دائرتنا الروحية .

وكانت أول مقابلة بينه وبين زوجته مشوشة لأن العاطفة غلبت عليهما ، فلم يكن النجاح كاملا ، لهذا أخذها (الزوجة) « موريس باربانيل » إلى حلقة « رد كلاود » الروحية ، ذات الصوت المباشر ، وهناك تحدثت إلى زوجها فى وضوح تام ، وصار « سيجريف » يتردد — كل أسبوعين — على نفس الحلقة ، ليتحدث إلى زوجته . وقد حضر اللورد « كوتنهام » — صديق سيجريف — الحميم إحدى الجلسات ، فأكد أن الصوت صوته ، والكلام كلامه ، وكان السير « هنرى » يحضر أحياناً إلى حلقاتنا الروحية . ويتحدث إلينا . . وفى إحدى الجلسات ، سمح لنا بالتقاط صورة له . . وفى جلسة أخرى ، وضع حول إصبع زوجته خاتما صنعت الحجارة النفيسة التى تزينه فى العالم الآخر ! ! وفى جلسة ثالثة ، وضع على حجر زوجته وردة حمراء ، عليها قطرات الندى ، مع أن الوقت كان صيفاً ، وكانت الغرفة مغلقة تماماً على ما فيها مدة ساعتين قبل الجلسة ، حتى لا يسمح بدخول هواء أو إنسان ، فمن أين يمكن أن تأتى هذه الوردة المبللة بندى الربيع ، إلا من عالم آخر غير العالم الذى يعيش فيه الموجودون فى غرفة التحضير ؟ !

* * *

ويتحدث المستر سوافر عن صديقه « وليام باريش » ، فيقول عنه إنه أكبر معالج روحى ظهر على وجه الأرض . وقد تعرف إليه قبل اثنتى عشرة سنة من نشر كتابه ، عالج خلالها ما لا يقل عن

أربعمائة ألف حالة مستعصية ، بعضها فى جهات نائية كالصين واليابان وسيام وآلاسكا وفنزويلا . ولقد كان « باريش » — قبل اكتشاف مواهبه الروحية — موظفاً بالسكة الحديدية بإنجلترا ، ولم يكن يؤمن بالروحيات بل كان من أكبر المشككين فى صحة ما يروى عن عجائبها ومعجزاتها . وقد نكب فى زوجته الأولى التى ماتت بالسرطان . ثم أصيبت زوجته الثانية بنفس المرض ، وقرر الأطباء أن وفاتها مرتقبة خلال ستة أشهر .

وفى ذات مساء ، ألحت عليه زوجته ، تلمساً منها لبصيص أمل فى يأسها ، أن يصحبها إلى اجتماع روحى دعيت إليه فنزل عند إرادتها إرضاء لخاطرها . ولما أطفئت الأنوار ، وراح الوسيط فى غيبوبته ، وتقمصت الروح المهيمنة على الحلقة ، لم يشعر « باريش » إلا والروح تناديه ، وتقول له : « إنك وجدت فى هذا العالم لتكون معالجاً روحياً ، وستعالج زوجتك حسب الإرشادات التى نمليها عليك ! . . » وكانت الروح لطبيب مات من عهد بعيد ، فأعطت « باريش » التعليمات بدقة . . ونفذها هو الآخر كما أوحيت إليه : من صلوات معينة ، ولمس باليدين بطريقة خاصة .

وبعد تسعة أشهر حدثت المعجزة . . شفيت زوجته من السرطان وأصبحت مساعدته الأولى فى رسالته الجليلة . وكان قد عاهد نفسه — إذا شفيت زوجته — على تكريس بقية حياته للعلاج الروحى ، فلما تحقق الأمل أوفى بالعهد ، فكان يعالج المرضى فى بيته ، أو يذهب إليهم

فى المستشفيات . أو فى منازلهم ، دون أن يتقاضى عن كل هذا مليما واحداً . ولما ضاق به المنزل ، أوحى إليه أن ينتقل إلى بقعة معينة حددتها له الروح المسيطرة عليه . فلما ذهب لمعاينتها ، وجد أنها من أملاك المستر « هوربليشا » وزير الحربية البريطانى إذ داك ، ولم تكن معروضة للبيع ، ولكن المستر « سوافر » توسط له عند الوزير ، فتنازل له عن قطعة الأرض عن طيب خاطر ، لما علم بالغرض الذى من أجله ستشيد المصحة .

وأخذ المرضى يترددون عليه من جميع بقاع العالم . ويؤكد المستر « سوافر » أن المعجزات كانت تتوالى فى سرعة عجيبة ، وقد شفى على يديه كثير من البؤساء التعساء . وكثيراً ما أحال إليه الأطباء ما كان يصادفهم من حالات مستعصية فشل فيها طبهم . كان كل ما يفعله هذا الرجل ، هو أن يصلى صلاة خاصة ، ثم يسلم نفسه للروح العليا ، ويروح فى غيبوبة يضع أثناءها يده على المرضى ، واحداً بعد الآخر . ويقول المستر « سوافر » إن معجزات يسوع عليه السلام ، كانت تتكرر يوميًّا فى المصحة ! .. بل امتدت مقدرته إلى علاج مرضى على مئات الأميال أو آلافها من مكانه . إذ أوتى موهبة المقدرة على طرح روحه ، ليصل جسده الأثيرى إلى أى بقعة على سطح الأرض ..

كان — بعد أن يقوم بواجبه — يفيق فيعطيك وصفاً دقيقاً لغرفة المريض ، والبيئة التى يعيش فيها ، بتفصيل لا يدع مجالا للشك

فى أنه عاش فيهما برهة من الزمن . وكان لبعض المرضى البعيدين موهبة الجلاء البصرى فكانوا يشاهدون جسمه الأثيرى وهو يقوم بعلاجهم ، وقد وصفوه وصفاً دقيقاً . وقد قال « سيلفربيرش » وهو صاحب أكبر روح مرشدة فى عالم الروحيات ، اعتادت أن تهيمن على كثير من الجلسات الروحية — فى إحدى الجلسات : إن «باريش» أعظم معالج روحى وجد منذ بدء الخليقة . فسأله كاهن صديق ، كان حاضراً الجلسة : « وأكبر من يسوع أيضاً ؟ » . . فقالت الروح : « هل تظن يا ولدى أن العالم لم يتقدم منذ تلك الأيام الغابرة ؟ . . إن الإشعاعات الروحية التى نرسلها خلال جسمه ، تكفى لقتل أى شخص آخر . . وعلى هذه القوة الخارقة تتوقف نتائجه العظيمة ! »

ولقد توفى هذا الطبيب الروحى أخيراً ، ويذكر القارئ التفاصيل التى سردتها فى بداية الحديث عن حفلة جنازه ، وكيف أن وسيطتين معروفتين شاهدتا روحه أثناء الصلاة جالسة بجوار النعش . . ووصفتا مسلك زوجته المرح أثناء الحفلة وبعدها : . ولقد عادت روحه أخيراً — فى جلسات روحية عديدة — واعدة بإتمام الرسالة التى بدأتها أثناء الحياة المادية ، وهى تخفيف آلام المرضى والتعساء !

* * *

ويمضى مؤلف الكتاب فى سرد النادرة تلو النادرة ، والقصة تلو القصة ، مدللا بالبراهين الدامغة على أن ما يقوله هو الحق ،

وأنه لا شك فى النهاية السعيدة للقضية ، يوم تعلو كلمة الروحية وتصبح واقعة يأتى ذكرها على الألسنة بنفس البساطة التى تتداول بها عجائب الزمن الأخير . . كالراديو واللاسلكى والذرة وخلافها :

واسترعت انتباهى قصة « شارلس بنيت » ، الكاتب المسرحى المعروف . يقول المؤلف إن خطاباً وصله من الكاتب ، عقب انتحار شقيقه فى ظروف غامضة. وقد جاء فى الخطاب ما يلى: «أنت تعلم أنى فى حالة نفسية مروعة . لقد شنق أخى نفسه ليلة الأمس ، وكأنى بعد هذا الحادث المروع ، أشعر بأن العالم قد انتهى بالنسبة لى ، وقد أصمد للصدمة لأننى رجل ، ولكن كان الله فى عون والدتى . . إنها تكاد تجن ، وأريد منك أن تعمل شيئاً فى سبيل تهدئة روعها . أنا أعلم أنك مغرم بالدراسات الروحية ، عليم بخفاياها ، فهلا فعلت شيئاً يعين والدتى فى محنتها القاتلة ؟ .. سأتصل بك تليفونيًّا فى الساعة الخامسة مساء ، لأحدد معك ميعاداً لمقابلتك » .

وعندما تقابلا ، قص « بنيت » على المؤلف تفاصيل الحادث . : وكان يتلخص فى أن الأخ المنتحر دخل الحمام ليغتسل ، وكان على أحسن حال من المرح والصحة ، ولكنه شنق نفسه بعد قليل ، دون ما سبب أو دافع ظاهر ! . . واستمع المستر « سوافر » إلى القصة ثم قال : « سنعقد هنا جلسة روحية بعد قليل ، ويمكنك الانتظار لحضورها ، إذا أردت » . : وبعد ساعة ، كان الوسيط « نوبل جاكين » قد مضى فى غيبوبته ، وأدار دفة الحلقة بإرشاد روح

ناظر مدرسة اسكتلندى اسمه « ماكدونالد » . ما لبث أن تحدثت الروح بلهجة اسكتلندية ، على لسان الوسيط قائلة : « أشعر بوجود شخص قلق حزين بينكم يا سادة » ثم وجهت كلامها إلى « بنيت » منبئة إياه بأنها تدرك مقدار حزنه ووالدته بسبب فقد أخيه ، وطلب منه أن يؤكد لوالدته أن ابنها ليس مسئولا عما حدث له فى تلك الليلة !

ثم قصت الروح عليه قصة كانت أغرب ما سمعه المؤلف طوال اشتغاله بالمسائل الروحية ، إذ قال : إن جريمة وقعت على يدى أحد أبناء أسرة « بنيت » قبل أجيال عديدة ، وأن من الممكن التثبت من هذا بالرجوع إلى تاريخ العائلة . ومنذ وقعت الجريمة ، وروح القتيل تحوم حول أسرة « بنيت » لتنتهز أول فرصة للانتقام ! . . واستمر الوسيط فى حديثه قائلا : « ولما دخل أخوك الحمام فى تلك الليلة ، كان الدولاب الذى فى الحمام مفتوحاً . فلما شرع فى تعليق ملابسه فيه ، انتهزت الروح فرصة النور الخافت وعملت عملها فى نفسية أخيك ، حتى زينت له شنق نفسه فى نفس الدولاب ، دون أن يدرك أو يعى ما كان مقدماً عليه . . قل لوالدتك كل هذا ، عسى أن تبعث هذه التفاصيل السلوى إلى قلبها . لقد تعرفنا على هذه الروح ، وأمسكناها فوضعناها حيث يأمن الجميع شرها ، فلا خوف عليكم منها بعد الآن ! » .

واستطردت الروح التى تقمصت الوسيط تقول : « يبدو أنكم

لا تصدقون ما أقول . هل تريدون الدليل على صحة قولى ؟ ؟
سآتى إلى منزلكم فى الساعة الثانية بعد منتصف هذه الليلة ، وسأدق على الحائط مرتين هكذا ! » (ثم دق بيده على الكرسى مرتين) ؟

ويقول « بنيت » إنه بقى مستيقظاً فى منزله حتى الساعة المحددة .. وكانت والدته معه ، وقد تعمد ألا يخبرها بما حصل فى الجلسة وما قالته له الروح عن طريق الوسيط ، لأنه لم يكن موقناً من صحة ما قيل له ، فلم يشأ أن يزعج السيدة العجوز دون مسوغ . وفى تمام الساعة الثانية سمع دقاً على حائط الغرفة ، وقد سمعته والدته أيضاً ، وعجبت له ، وتساءلت عن سببه ، فطمأنها .. ولكنه لم يشأ أن يقص عليها حقيقة التفاصيل إلا فى اليوم التالى .

حدث هذا عام ١٩٢٨ . وفى عام ١٩٤٤ كان المؤلف سائراً فى شارع « شارنج كروس » بلندن ، فسمع شخصاً يناديه باسمه ، فلما التفت نحوه ، وجده « شارلس بنيت » ، وكان عائداً لتوه من « هوليوود » ، بعد رحلة فنية ناجحة ، وبادره « بنيت » بقوله : يسرنى أن تكون أول صديق أصادفه بعد عودتى . هل تذكر يا سوافر تلك الليلة التى قضيتها فى مسكنك عقب وفاة أخى ؟ .. إننى أتساءل أحياناً ، أكان ما رأيته وسمعته حقيقة أو حلماً ؟ » .. فأجابه سوافر : « بل كان حقيقة ، ولقد كتبته مفصلا فى مذكراتى » .

* * *

ويروى لنا المؤلف فى أحد فصول كتابه ، حديثاً جرى بينه وبين

« برناردشو » ، يبدأه بالسؤال الآتى : « هل كونت فكرة صحيحة ، عما ينتظرك بعد الموت ؟ » . .فأجاب « شو » ، فى صراحة وبساطة : « كل ما أعرفه أنى بعد الموت أذهب إلى غير رجعة ، فلست أعتقد فى خلود الروح ، ولا أظن هناك عاقلا يمكنه قبول مثل هذه الفكرة ، أو هضم الأسس التى بنيت عليها .. إن خلود شخص مثل « برناردشو » يبدو مزعجاً ، مروعاً مخيفاً . وإنى لأهب خمسة جنيهات لمن يطلق رصاصة ويريحنى من نفسى ، ويريح العالم منى . . إن جسمى الذى تراه الآن ، ما هو إلا خليط من الكربون والبوتاس وبعض المواد الكيمياوية الأخرى ، تسبب بتفاعلها قوة الاندفاع التى نسميها الحياة، وسيأتى اليوم الذى تقف فيه الآلة فجأة ، وينتهى كل شىء .. يفنى الأشخاص والدنيا باقية .. نموت نحن ، ويعقبنا آخرون يتولون إدارة عجلة الحياة الدائمة ، ويعيشون كما عشنا ، ثم يذهبون ويأتى غيرهم ، وهكذا . . وقد أسمح لك بأن تعتقد أن روحاً معينة تقمصتنى وقضت معى كل عمرى ، لتنتقل بعدها إلى جسم آخر ، وهكذا . . ولكن ليس معنى هذا خلود الشخص نفسه بعد الفناء . . وليكن فى علمك أنى أتحدث فى موضوع لا أفقه فيه شيئاً ! » . .

وجرهما الحديث إلى موضوع مفارقة الروح للجسد بعد الموت ، فقال سوافر : إن الروحيين يعلمون من رسالات وصلت إليهم من عالم الروح ، أن روح الإنسان لا تفارق جسده تماماً إلا بعد الموت ببضعة أيام . وهم لذلك يصممون على ألا تحرق الجثة أو تدفن إلا بعد

الموت بأيام » . . وأضاف سوافر قائلا : « إننى على يقين من أنك ستحضر ، بعد أسبوع من وفاتك ، إلى حلقتى الروحية ، وتقول : أنا برنارد شو ، أنبئ العالم بأنى لم أمت . . فأجابه شو فى سخرية : « هلا جربت خداع غيرى قبل الآن ؟ » . . فقال المؤلف : « أبداً ! . . أنت تعلم أنى صحفى ومخبر أمين ، تعقب قضية خلود الروح ، فلما تيقن منها نشر أمرها على الملأ . . ما رأيك فى أنى رأيت أخت زوجتى تمشى أمامى فى إحدى الجلسات الروحية ، بشعرها الطويل المسترسل على ظهرها ؟ » . وعند ذاك قال شو : « هذا لا يثبت لى أكثر من أنك إنما رأيت أخت زوجتك لمقدرة بصرية وهبت إياها ، تمكنك من رؤية أرواح الموتى » . . ويعلق المؤلف على هذا الجواب فى سخرية لاذعة ، قائلا : « من المؤسف أن كاتباً عظيماً مثل برنارد شو ، لا يعرف أن الجلاء البصرى نوع من الوساطة » !

* * *

ويمضى المؤلف فى سرد ما يمتع نفس القارئ العادى ، وما يثير رغبة البحث والاستقصاء فى الباحث المدقق ، ويغرى بغزو هذا الميدان الشائك الذى يضل فى أرجائه الفسيحة أمثالنا . . ويا ليتنا نوالى ضغطنا عليه ، حتى ينجلى السر الأكبر ، أو نقتنع بأن الروح سر فوق طاقة البشر : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . . صدق الله العظيم .

طالما تساءلت عن الحلقة المفقودة بين النوم والموت . . وحدث أنني عثرت فى مكتبتى على كتاب عن الطرح الروحى ، من تأليف « مولدن وكارنجتون » . ولم أكن قد شعرت بميل إلى هذا الكتاب فى بادئ الأمر ، فتركته على مكتبى حوالى شهرين ، دون أن أمسه . . فلما جاشت فى نفسى هذه الذكريات ، أمسكت به فى تثاقل ، وحملته حملاً إلى السيارة ، لأحاول أن أتصفحه وأنا جالس فى مقعدى ، لا رقيب علىّ سوى السائق وعابرى السبيل .. راجعت فهرس الكتاب بسرعة آلية ، حتى وقفت عند كلمة « النوم » ، فقلت لنفسى : « ترى ماذا يقول هؤلاء الروحيون عن هذه الظاهرة الطبيعية من حياتنا اليومية ؟ » . فوجدت اعتقاداً راسخاً بأن الروح تغادر الجسم أثناء النوم ، وتبقى متصلة به بحبل أثيرى يستطيل وينكمش حسب مقتضيات الرحلة التى تسبح الروح فيها فى عالم المادة والروح ، فترى من الأحداث ما نسميه بالأحلام . . ويحدث هذا الطرح الروحى أيضاً خلال الغيبوبة الوساطية ، أو السبات العميق الذى ينتج عن مخدر كالكلوروفورم ، أو خلال ما يسمى « تعليق الحيوية » عندما يدفن فقراء الهنود أنفسهم أياماً أو أسابيع ، ثم يعودون ليقظة الحياة . . ويصف المؤلفان بعض عجائب هذه الظاهرة الأخيرة ، فيقولان إن أحد فقراء المصريين ، ويدعى « حامد بك » أبدى فى هذا الميدان مهارة عجيبة ، إذ بقى مدفوناً مدة ساعة فى

مدينة « اتلانتا » بالولايات المتحدة ، وثلاث ساعات فى « نيوجرسى » وسبع ساعات فى « سان دييجو » . والغريب فى حالالته أن التراب أهيل على جسده فى حفرة عميقة ، دون أن يوضع فى تابوت مغلق ، كما يفعل فقراء الهنود وغيرهم . وذكرا مثلا آخر لفقير هندى ظل مدفوناً ، فى قبر محكم الإغلاق ، مدة ثلاثين يوماً بالتمام ، بعد وضعه فى صندوق أحكم إقفاله تحت رقابة لجنة محايدة من كبار موظفى المنطقة .

والفرق بين كل هذه الحالات والموت الحقيقى ، هو بقاء الحبل الأثيرى سليماً ، ويصل الروح المطروحة بالجسد المادى . فإذا أفلت هذا الحبل من الجسد ، حدث الطرح الروحى الدائم . . أى الموت . أما النوم فهو طرح مؤقت للروح ، وما الأحلام إلا سياحات للروح فى عالم المادة والروح ، فترى المنظور وغير المنظور ، وتقابل الأحياء والأموات على حد سواء وهذا الاستيطان المؤقت فى عالم الروح يهيئ لأرواحنا فرصة الحصول على تغذية وتقوية روحيتين ، لا تلبثان أن تنعكسا على الجسم عامة ، فيصحو الإنسان من نومه منتعشاً متجدد النشاط .

وما هذا الحبل الأثيرى الذى يفرق بين الحياة والموت ؟

يجزم الروحيون أن الروح تفارق الجسد فى حالات النوم والغيبوبة ولكنها تظل مرتبطة به بحبل أثيرى مطاط ، يطول ويقصر ، ويخترق الحجب والحواجز والجدران مع الروح الهائمة . ويقولون إن هذا الحبل يبدأ فى مكان حيوى فى المخ المادى، حيث تجتمع كل المراكز الحيوية

التى تسيطر على القلب والتنفس ، وينتهى فى نفس المكان المقابل من الجسد الأثيرى . فإذا كان شخص مستلقياً على ظهره ووجهه إلى أعلى برز الحبل الأثيرى من الجبهة ، لينتهى فى مؤخرة الرأس من الجسم الأثيرى .

وتكون الروح فى مبدأ الأمر موازية — فى اتجاهها — للجسم المادى ، ثم تتخذ بالتدريج وضعاً عمودياً ، قبل أن تبدأ سياحتها فى عالم الروح . وعند الاستيقاظ ، نتيجة ضجة أو انفعال شديدين ، تعود ثانية إلى وضعها الأفقى ، ثم تقترب من الجسم ، بينما يقصر حبل الاتصال ويغيب فى الجسد مرة أخرى ! . . ويقول أحد المؤلفين — وهو « مولدن » الذى أوتى القدرة على النوم الاختيارى — إنه جرب هذه الظاهرة فى نفسه ، فشعر أولا برأسه ينثنى حتى لامست ذقنه صدره ، ثم راح جسمه فى استرخاء النوم ، بينما صعدت روحه الأثيرية تدريجياً نحو سقف الغرفة . . وكان يشعر بما يشبه نبضات القلب عند مؤخرة رأسه ، مما أثبت له أن الحبل الأثيرى يبدأ هناك . . وما لبث جسمه الأثيرى أن تحول تدريجياً من الوضع الأفقى إلى الوضع العمودى ، وعندما أراد إنهاء التجربة ، أخذت الروح تعود تدريجياً إلى الوضع الأفقى ، ثم تقمصت الجسم مرة ثانية .

وهو يصف التفاصيل بدقة الموقن من أنه رأى شيئاً محسوساً ملموساً ، ولا تشعر وأنت تقرأ السطور أو ما بينها ، بأن فى الأمر ابتداعاً أو خيالا !

* * *

ويقول المؤلفان إنه متى انقطع الحبل الأثيرى ، فلا أمل مطلقاً فى عودة النائم إلى الحياة . ويقولان إن معجزات « يسوع » عليه السلام فى إحياء الموتى لا يمكن تفسيرها — على ضوء العلوم الروحية — إلا إذا افترضنا أن الذين بعثوا إلى الحياة لم يكونوا موتى وإنما كانوا فى غيبوبة شديدة ، وضربا لذلك مثلا معجزة المسيح — عليه السلام — فى إحياء صديقه « لازارس » ، فإن « يسوع » بوصفه وسيطاً روحياً من الدرجة الأولى — قادر على أن يرى غير المنظور ، لما كان له من ميزة الجلاء البصرى — أدرك أن « لازارس » لم يكن ميتاً ، إذ قال عليه السلام « إن لازارس لم يمت ، إنه نائم وسأذهب إليه وأحاول إيقاظه » . ثم ذهب إلى المقر ، وأمر بإزالة الحجارة ، ثم نادى قائلا : « قم يالازارس» فهب الأخير من نومه ، وتقدم إلى « يسوع » . . أى أن المسيح عليه السلام ، قرر وهو يتقدم نحو القبر أن صديقه نائم فقط ، وليس بميت .

وضرب المؤلفان مثلا آخر من معجزات المسيح ، وهو نفخ الحياة فى ابنة الحاكم الميتة ، فإنه دخل بيت الحاكم بين أصوات العويل والنحيب ، حتى إذا اقترب من فراش الميتة ، نظر إلى من حولها ، وقال : « إن الفتاة ليست ميتة . . لماذا تبكون إذن ؟ » . . ثم أمر بإخراج جميع من كانوا بالغرفة ، إلا والدة الفتاة ووالدها ، وأمسك بيد الفتاة ، وصاح فيها قائلا : « قومى يا فتاة ، قومى » .. فوقفت الفتاة لتوها ، ومشت إلى خارج الغرفة .

ويقول المؤلفان إن المسيح أقر فى هذين المثلين بأن الشخص لم يكن ميتاً ، بل كان نائماً فقط ، وإلا لتكررت المعجزة فى مئات أو آلاف من الحالات الأخرى ، ولكنها لم تحدث إلا فى حالتين أو ثلاث . ويخرج المؤلفان من هذا القول بأن عودة الروح إلى جسم الميت شيء مستحيل ، ما دام الحبل الأثيرى قد انقطع . . إذ عندها ينطلق الجسم الأثيرى — أى الروح — ويترك الجسد المادى بكل دنسه وموبقاته . فالموت عبارة عن طرح روحى دائم . أما النوم فطرح روحى مؤقت ، تكون الروح خلاله متصلة بالحبل الأثيرى ، فتصول وتجول وتتمتع بالاتصال بأرواح الموتى السابقين ، والأحياء المعاصرين . وهذا منطق معقول ، يتمشى مع قول الله تعالى : « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ، ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى » . . صدق الله العظيم .

* * *

والواقع أن السر الإلهى قد شغل الأذهان من قديم الزمان . ولقد كشف ابن آدم من أسرار الطبيعة ما كشف — والله أعلم بما أخفى ، ولعله أكثر وأعظم — ولكن عبقريته وقفت جامدة عند أسوار الحقيقة الكبرى ، التى لايعلم سرها إلا الله . ولقد حاول الباحثون — فى مختلف الأزمان — أن يكشفوا عن عالم ما بعد الموت . وقد عثرت صدفة على كتاب للإمام « عبد الرحيم بن أحمد القاضى » ، عنوانه « دقائق الأخبار فى ذكر الجنة والنار » ، استعرض فيه معتقدات الأولين بتفصيل الذى

يوقن من صحة ما يسرد مع أن معظمه لا يعدو أن يكون تخمين الحائر الذي يود أن يفتح المغاليق، ليرى ما وراءها من أسرار هائلة . وهو يروى عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت :

«كنت قاعدة متربعة فى البيت ، إذ دخل رسول الله عليه السلام ، فسلم علىّ : فأردت أن أقوم كما كانت هى عادتى عند دخوله ، فقال عليه السلام : اقعدى مكانك ، ما كان لك أن تقومى يا أم المؤمنين! قالت : فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوضع رأسه على حجرى ، فنام مستلقياً على قفاه ، فجعلت أطلب شيبة فى لحيته ، فرأيت بها تسع عشرة شعرة بيضاء ، ففكرت فى نفسى ، فقلت إنه ليخرج من الدنيا قبلى ، فتبقى الأمة بلا نبى ، فبكيت حتى سال دمع عينى على خدى ، وتقاطر منه على وجهه ، فانتبه من نومه ، فقال عليه السلام : «ما الذى أبكاك يا أم المؤمنين ؟» . فقصصت عليه القصة ، ثم قال عليه السلام : «أى حال أشد على الميت ؟ .. » فقلت : قل يا رسول الله فقال عليه السلام : « بل قولى أنت » . . . فقلت : لا يكون أشد حالة على الميت من وقت خروجه من داره ، يحزن أولاده خلفه ، يقولون وا والداه، وا أماه، ويقول الوالد: يا ابناه !.... فقال عليه السلام : هذا شديد ، فما أشد منه ؟ ..... قلت : لا تكون حالة أشد على الميت من حين يوضع فى لحده ، ويغشى التراب عليه ، ويرجع عنه أقرباؤه ويسلمونه إلى الله تعالى مع فعله ، فيأتيه منكر ونكير فى قبره ... فقال : يا أم المؤمنين ، ما أشد منه على الميت . . . . قالت : قلت الله ورسوله

أعلم ... قال عليه السلام : « يا عائشة ، إن أشد حالة على الميت ، حين يدخل عليه الغاسل فى داره ليغسله فيخرج خاتم الشباب من أصابعه ، وينزع قميص العرس من بدنه ، وينزع عمامة المشايخ والفقهاء عن رأسه ، فعند ذلك تنادى روحه ، حين تراه عريان بصوت يسمعه كل الخلائق إلا الثقلين ، تقول : يا غسال ، أسألك بالله أن تنزع ثيابى برفق ، فإنى الساعة قد استرحت من مجاذبة ملك الموت » . . . وإذا صب عليه الماء ، صاحت الروح كذلك : « يا غسال بالله لا تصبّ ماءك حارًّا ، ولا تجعل ماءك بارداً ، فإن جسدى محترق من نزع الروح ! ... » فإذا غسلوه تقول الروح : « بالله يا غسال ، لا تمسنى قويًّا ، فإن جسدى مجروح بخروج الروح ! » .. فإذا فرغ من غسله ، ووضع فى كفنه ، وشد موضع قدميه ، ناداه : « بالله ياغسال لا تشد كفن رأسى حتى أرى وجوه أهلى وأولادى وأقربائى ، فإن هذا آخر رؤيتى لهم ، فأنا اليوم أفارقهم ولا آراهم إلى يوم القيامة » . . . فإذا خرج الميت من الدار ، نادى : « بالله يا جماعتى ، لا تعجلوا بى حتى أودع دارى وأهلى وأقربائى ومالى » . . . ثم ينادى : « بالله يا جماعتى ، تركت امرأتى أرملة فعليكم ألا تؤذوها . . وأولادى يتاماء فعليكم ألا تؤذوهم فإنى اليوم أخرج من دارى ولا أرجع إليهم أبداً » . . . وإذا وضع على الجنازة يقول : « بالله يا جماعتى ، لا تعجلوا بى حتى أسمع صوت أهلى وأولادى وأقربائى ، فإنى اليوم ، أفارقهم إلى يوم القيامة » . . . فإذا

حمل على الجنازة ، وخطوا بها ثلاث خطوات ، ينادى بصوت يسمعه كل شيء إلا الثقلين ، وتقول الروح : يا أحبائى ويا إخوانى ويا أولادى لا تغرنّكم الدنيا كما غرتنى ، ولا يلعبن بكم الزمان كما لعب بى ، واعتبروا بى فإنى خلفت ما جمعت لورثتى ، ولم يحملوا من خطاياى شيئاً ، وعلى الدنيا يحاسبنى الله تعالى ، وأنتم تستمتعون بها ! » .

* * *

ويروى المؤلف أيضاً ... يروى إحدى أساطير الأولين ، عن خروج الروح من الجسد فيقول :

إذا خرجت الروح من البدن ، ومضى للميت ثلاثة أيام ، تقول الروح : « يارب !... ائذن لى أن أنظر إلى الجسد الذى كنت فيه » . فيأذن لها ، فتجيء إلى القبر ، وتنظر من بعد ، فترى الماء قد سال من منخريه وفمه ، فتبكى بكاء طويلا ، وتقول : « يا جسدى ، هذا منزل الوحشة والبلاء والغم والحزن والندامة » . . ثم ترجع . فإذا مضى خمسة أيام ، تأتى إلى القبر فتجد الدم قد سال من فمه ، والقيح والصديد من أذنيه ، فتبكى بكاء طويلا ، ثم تقول : « يا جسدى ، هذا منزل الهم والغم والدود والعقارب ، الآن يأكل الدود لحمك ، ويمزق جلدك » . . ثم ترجع . فإذا مضت سبعة أيام ، تأتى إلى القبر ، فتجد الدود ينهشه نهشاً فتبكى بكاء طويلا ، ثم تقول : « أين أولادك وأقاربك وإخوانك اليوم ، يبكون علىّ وعليك إلى يوم القيامة ؟ » .

وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، أنه قال : « إذا مات الرجل

المؤمن ، تدور روحه حول داره شهراً . فإذا تم الشهر ، جاءت إلى قبره فتدور حوله سنة ، فإذا تمت ، رُفعت إلى يوم القيامة » ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : « إذا كان يوم العيد ، ويوم العشر ، ويوم الجمعة الأولى من شهر رجب ، وليلة النصف من شعبان وليلة الجمعة ، تخرج الأموات من قبورهم ، ويقفون على أبواب بيوتهم ، ويقولون : ترحموا علينا فى هذه الليلة بصدقة ، ولو بلقمة من خبز ، فإنا محتاجون اليها ! فإن لم يجدوا شيئاً يرجعون بالحسرة » .

وهو يروى على لسان النبى محمد ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« إذا خرج الروح من بدن ابن آدم ، ومضى ثلاثة أيام ، يقول الروح : « يارب ! . . ائذن لى حتى أمشى وأنظر إلى جسدى الذى كنت فيه » : فيأذن الله تعالى له ، فيجىء إلى قبره ، وينظر إليه من بعيد ، وقد سال من منخريه ومن فمه دم ، فيبكى بكاء طويلا ، ثم يقول : « أواه يا جسدى المسكين ، ياحبيبى ، أتذكر أيام حياتك ؟ ... هذا المنزل منزل الوحشة والبلاء والكرب والحزن والندامة » . . . ثم يمضى . فإذا كان خمسة أيام ، يقول : « يارب ! . . ائذن لى حتى أنظر إلى جسدى » . فيأذن الله له ، فيأتى إلى قبره ، وينظره من بعيد وقد سال من منخريه ومن فمه ماء صديد وقيح ، فيبكى بكاء شديداً ، ثم يقول : « ياجسدى المسكين ، أتذكر أيام حياتك ؟ ... هذا منزل الغم والهم والمحنة والديدان والعقارب . . . قد أكلت الديدان لحمك ، ومزّق

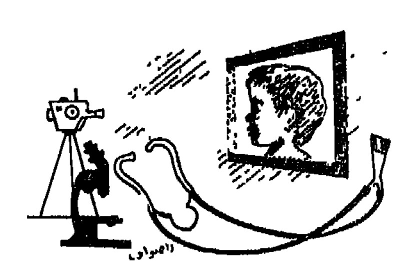
جلدك وأعضاءك » . ثم يمضى . فإذا كانت سبعة أيام ، يقول : « يا رب ! ... ائذن لى حتى أنظر إلى جسدى . فيأذن الله له ، فيأتى إلى قبره ، وينظر من بعيد ، وقد وقع فيه دود كثير ، فيبكى بكاء شديداً ، فيقول : « ياجسدى ، أتذكر أيام حياتك ؟ . . . أين أولادك ، وأين أقرباؤك ، وأين زوجتك ، وأين إخوانك وأصدقاؤك ، وأين رفقاؤك ، وأين جيرانك الذين كانوا يرضون جوارك ؟ اليوم يبكون علىّ وعليك ! ... » .

وروى عن أبى هريرة ، رضى الله تعالى عنه : إذا مات المؤمن ، دارت روحه حول داره شهراً ، فتنظر إلى ما خلفه من مال كيف يقسم ، أو كيف تؤدى ديونه . فإذا تم له شهر . ردت إلى حفرته ، فتدور بعد ذلك حتى يتم عليه حول ، فينظر من يدعو له ومن يحزن عليه . فإذا تم الحول ، رفع روحه إلى حيث تجتمع الأرواح . إلى يوم القيامة ، أى يوم ينفخ فى الصور .

وهكذا تناقل الأولون ما ينبئ بأن شيئاً ما ينتظرنا عند الطرف الآخر من الرحلة .

والعلم عند علام الغيوب أولا وأخيراً .

... فى آفاق الطبّ والمؤتمرات



كلمة سواء :

إلى المرضى بالقلوب

أهم سؤال يوجه إلى الأطباء من عشرات الألوف من مرضى القلوب — بعد أن يجتازوا المحنة القاسية ويدخلوا النقاهة — هو : إلى أى مدى ، وكيف أستأنف نشاطى اليومى ، وأى نوع من الرياضة أمارسه فى سبيل بعث الحياة من جديد ، إلى عضلات هدها طول الرقاد ، سواء فى هذا عضلة القلب ، أم عضلة الساق أم اليد ، أم الجذع ؟... إن المريض يبدو وكأنه يبدأ حياة جديدة ، فى دنيا جديدة ، ويظل الخوف جاثماً فوق صدره خشية النكسة ، فيتغلب عليه دائماً الشعور بأن أى مجهود يبذله قد يؤدى إلى موته . وهذا الشعور — فى حد ذاته — كفيل بأن يولد فيه استعداداً خصباً لنوبات من الخفقان ، الذى قد يصحبه عرق وضيق فى الصدر مما يزيد من خوفه على نفسه ، فيخيل إليه أن هذه المحنة القاسية المملة — التى أضناه خلالها رقاد بغير حركة لمدة من الزمن — سوف تعود ، فترده إلى الرقاد والسكون ويظل العمر أسير تلك الحلقة المفرغة ، التى لا تنتهى إلا بانتهاء الحياة .

وهنا تتبين صعوبة مهمة الطبيب المعالج فى سبيل إرشاد مريضه : كيف يقف عند مفترق طرق حيوية ، فالويل للمريض إذا لم يدرك

تماماً ، إلى أى مدى يمرّن قلبه وعضلات جسمه ، ومتى يقف عند الحد الفاصل بين المحرّم وغير المحرم ، فلا يبالغ فى إظهار عضلاته وقلبه على وهن ، من ناحية ... ولا يخاف — من ناحية أخرى — من تمرين قلبه ، ليرغم شعيراته الدموية على خلق دورة إضافية ، تحل محل الشريان المسدود .

إن واجب الطبيب — فى هذه الحالة — هو إقناع مريض القلب بأن ينصاع لتعليماته ، دون خوف أو وجل ، وأن يصدع بإرشاداته عن مقدار الجهد الذى يجوز له بذله فى حدود الأمان والسلامة ، ثم التدرج به فى خطوات وئيدة ، حتى يصل به إلى درجات السلم العليا ، دون أن تنقطع منه الأنفاس ... مع تدريبه طول الوقت على إتقان فن الاسترخاء فإن فشلت الوسائل الطبيعية ، فلا بأس من الاستعانة ببعض الأقراص المهدئة للوصول إلى هذا الغرض ، ثم الاستغناء عنها تدريجياً .

ويجب قبل البدء فى ممارسة التمرينات الرياضية ، أن تتأكد من أشياء عدة تكون سبباً فى تعريض المريض لهذه النوبات القاتمة . ومن أهم هذه العوامل ارتفاع ضغط الدم ، ومرض البول السكرى ، والإفراط فى التدخين . أما عن السمنة ، فليس هناك داع لاتباع نظام خاص فى المأكل والمشرب ، بل يكتفى بنصح المريض بتجنب الإفراط فى الطعام . وقبل أن تسمح للمريض بممارسة التمرينات ، يجب فحصه جيداً للتأكد من أن القلب قد خرج سليما تماماً من محنته ، فإن تمدد القلب مثلا مع وجود

الصوت الثالث Gallop « وأنيوريزم » البطين ، وتخلف الصمام الميترالى Mitral incompetence ، وذبذبة الأدين Auricular Fibrillation ... تعتبر مبررات هامة لتأجيل البدء فى إجهاد القلب بالتمرينات التى قد تضره ضرراً بليغاً . وهناك مرضى يبالغون فى إجهاد قلوبهم بشتى الطرق عن حسن نية ، بغرض إيقاظ النائم من عضلات قلوبهم وشرايينها ، مثل هؤلاء يجب عدم البدء فى معاونتهم قبل أن يرضخوا للنصح ، ويتحلوا بسعة الأفق والعقل المتفتح ، فإذا ما أصبح الجو ملائماً لبدء التمرينات ، يجب أن نسدى للمريض الناقه النصيحتين الآتيتين :

الأولى : إياك أن تتجاهل ما يسمونه التعب . فمى شعرت به ، فاسترح فى الحال .

الثانية : إياك والمبالغة فى بذل الجهد إلى درجة الشعور بالألم وانقطاع الأنفاس .

وينصح الأخصائيون بأنه فى الحالات التى يعفى فيها المريض من التمرينات — بسبب الإجهاد أو القلق — فلا مانع من حضوره إلى « الجمنيزيوم » فى أيام راحته ، ليخالط الذين سبقوه إلى هذه التجربة المضنية ، ويرى بعينيه كيف تماثلوا إلى الشفاء الكامل ، فتزداد ثقته بنفسه ، ويغمره شعور بالاستبشار بأنه لا بد لاحق بهم بإذن الله .

* * *

وخلال زيارتى للندن — فى العام الماضى — تعمدت أن أزور

« الجمنيزيوم » الذى يملكه ويديره المستر « البستيروراى » ، وقد لاحظت أن جميع مرضى القلوب الذين يرتادون معهده ، يتمتعون بروح عالية ، وقد تدرج بعضهم فى التمرينات درجات قد يصعب بعضها على الشخص السليم . ورأيته وهو يتهلل عندما عرف أننى من مصر ، فأخذ يذكر لى أسماء الربّاعين واحداً بعد الآخر ، مبتدئاً بالمرحوم السيد نصير . وطفرت من عينه دمعة وهو يذكر اسم المرحوم « خضر التونى » .

ثم أشار إلى مرضاه وقد استعادوا عهد شبابهم ، بما يؤدونه من حركات عنيفة ، تدرّجوا ببطء حتى اعتادوها . وقال لى إن المريض الوافد حديثاً — وهو يستقبل مرضى من أخصائيي القلب فى جميع أنحاء بريطانيا — تنتابه فى بادىء الأمر عصبية وحساسية ، وتزيد سرعة نبضه دون مبرر . . . . لا سيا إذا كان ممن لم يمارسوا الرياضة قبل إصابتهم بالمرض . . . وهو يتدرج معهم فى هوادة وتؤدة ، مستعيناً طول الوقت بجهاز بسيط . وقد عرض علىّ أن يختبر قلبى بهذا الجهاز فلما قبلت ، طلب منى أن أصعد عشر مرات إلى كرسى له ارتفاع كرسى القعود العادى ، ثم طلب منى أن أمسك بعمودين صغيرين فى جهاز مجاور ، يقيس النبض بعد المران . ويحسب الجهاز الوقت الذى يعود بعد النبض إلى معدله الطبيعى ، من حيث عدد دقاته ، فإذا عاد بعد دقيقتين هنأه قائلا : إن قلبك سليم ، ويمكنك البدء بالتمارين توًّا . وقد وجد عندى ما جعله يهنئنى ويعرض علىّ أن أندمج حالا فى زمرة

المجاهدين ، الذين ملأوا الجمنيزيوم » ، يرفعون أيديهم وأرجلهم وهم رقود على ظهورهم وينحنون بجذوعهم ذات اليمين وذات اليسار ، وإلى أمام وخلف ، وكأنهم شبان فى العقد الثالث من أعمارهم السعيدة . وكان يشير إليهم قائلا : « إن كل سر العملية هو المران التدريجى البطىء » .

وشكرت له حسن استقباله واعتذرت عن مداومة المران فقد كان علىّ أن أغادر لندن فى اليوم التالى .

* * *

ويقص أستاذ أمراض القلب الكبير الدكتور « بيتر نيكسون » ، الذى زار مصر من عهد غير بعيد ، قصة مريض القلب وهو مقبل على التجربة ، بقلب واجف بعد طول رقاد ، ودقات قلبه سريعة نتيجة عامل الخوف والقلق ، ومن ثم فإن قلبه لا يسمح له ، بأكثر من لحظات قصار ، ويلهث بعدها .... لا سيما إذا كان — قبل مرضه — من ذلك الصنف المكسال ، البعيد كل البعد عما يمت للرياضة بصلة . ومهمة أخصائى الطب الطبيعى فى هذه الحالة هى ألا يسمح له بالتمرن إلا بقدر ما تسمح به سرعة نبضه ، فلا يتعدى التسعين أو المائة ضربة فى الدقيقة ..". وذلك بالاستعانة بالجهاز المبسط ، الذى سبق لى شرحه ، والذى يمسك المريض بكلتا يديه عمودين صغيرين مثبتين فى أعلاه ، فيشير مؤشر خاص به إلى سرعة النبض .

ويشترط فى التمرينات أن تشمل جميع أجزاء الجسم". فلا يكتفى

مثلا : باستعمال الدراجة المثبتة فى أرض « الجمنيزيوم » لأنها تمرّن الساقين فقط ، ولا يفيد منها الجذع والذراعان . كذلك تسجل مدى ازدياد التحركات يوماً بعد يوم برسومات بيانية يتابعها المريض بنفسه ، حتى يدرك مدى التقدم الذى يحرزه ، والأخصائى الفنان هو الذى يفصّل التمرينات فى حدود إمكانيات مريضه ، ويجعل لكلّ جزء من الجسم نصيباً منها . فالمفاصل والجذع والأطراف يجب أن تعتبر كوحدة توزع التمرينات بينها بعدالة . ويجب أن يجعل همه الأول تشجيع مريضه العصبى المرهف الحس على الاسترخاء ، وتسليم نفسه إلى موج الحياة فى اطمئنان ، وإشعاره بأنه يحرز تقدماً ملموساً ، وخاصة إذا رأى بعينيه المؤشر– فى ذلك الجهاز المبسط – يتحرك إلى اليمين فى شدة غير متعمدة ، ثم لا يلبث أن يطمئن قلبه عندما يرى بعينيه كيف يتراجع المؤشر مقترباً من رقم التسعين أو الثمانين — وهى سرعة النبض الطبيعية . وهذا التراجع قد يستغرق – عند بدء التمارين — خمس دقائق ، ولكن مع استمرار التحسن ، ينكمش الرقم إلى أربع ثم دقيقتين . . وهذا منتهى أحلام المريض الآمل ، المترقب . . وهذه هى الفرحة الكبرى !

وقد قال لى المستر « مورای » — صاحب « الجمنيزيوم » : إن المريض تزداد ثقته بنفسه يوماً بعد يوم ، ويغمره شعور التفاؤل عندما يرى بعينيه أن كل المقاييس والرسومات البيانية فى صالحه ، وأنها تدل دلالة واضحة قاطعة على أن عضلات القلب وقدراتها على العمل

تتحسن باطراد : ويجب أن يكون التنسيق كاملا بين فترات التمرين والراحة والاسترخاء ، حتى نحصل على أحسن النتائج ، من حيث الشعور بالأمان واختفاء الألم ، ويجب أن يدرك المريض أن الراحة هى الترياق الوحيد كلما انتابه شعور بالتعب أو الضيق ، وما يصحب كل منهما من اضطراب نفسى وشعور بالخوف من عودة الضيف الثقيل ، الذى جعله يلزم الفراش لبضعة أسابيع غنية بالضنى والحيرة والخوف والقلق . . والويل له من نفسه إذا تجاهل هذا الشعور بالتعب ، فإن الأحداث تتوالى عليه ، وخاصة الألم المزعج ، وانقطاع الأنفاس : والمريض الذكى هو الذى يعرف متى وأين وكيف .

* * *

والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو : هل من سبيل للتنبؤ بالمحظور قبل وقوعه بأشهر أو أعوام ؟ . : إن الأعراض يكتنفها غموض ، قد يبرره تقدم السن بخطوات وئيدة نحو ما يسمونه بالشيخوخة . فقد يشعر الشخص السليم المظهر بالتعب — لأول مرة فى حياته — عند القيام بمجهود ما ، وقد ينتابه ضيق لا يخفى على زملائه الملازمين له من زمن ، ولعله يضيق بنفسه عندما يلاحظ أنه لم يعد قادراً على بذل المجهود اليومى فى سهولة ويسر ، ما لم يقاوم ذلك الشعور القاتل الذى يسمونه التعب السريع ، وتلاحظ الزوجة شحوب وجهه بعد بذل الجهد خلال الساعات التى يقضيها فى عمله ، فتعجب — كما يعجب زملاؤه — من ضيق خلقه ، وسرعة هياجه . .

ولو علموا السبب لالتمسوا له العذر ، فهو يدرك أنه حتى أيام أو أسابيع قلائل كان مغوارا يكاد يجرى خطاه ، ويصعد درجات السلم فى ثقة وأمان دون أن ينقطع منه النفس . فيداخله الخوف من المستقبل وما يخبئه من مفاجآت ، أهونها العجز عن تحمل المسئوليات الملقاة على كتفيه ، وأشدها المرض والرقاد ، ثم الموت الذى هو حق على الجميع . وقد يفكر — للمرة الأولى فى حياته — فى استشارة طبيب . ثم يظل يتردد على هذا الطبيب بالرغم مما يؤكده من أن قلبه حتى هذه اللحظة سليم . ولكن أنى له أن يهدأ ويطمئن ، وهو الذى صنعت منه الأوهام مريضاً نفسيًّا ، والويل له إذا انتابه ، بين حين وآخر شعور غريب فى الصدر قد لا يصل إلى درجة الضيق ، أو خفقان فى القلب مما يجعله يركز اهتماماً أكثر وأكثر على قلبه .

أما حدوث الآلام التى تشبه الذبحة الخفيفة ، كالألم الذى يبدأ فوق منطقة القلب ثم ينتشر إلى الكتفين — وخاصة الكتف اليسرى — فإنه ينبه الطبيب إلى احتمال وجود الذبحة الصدرية ، وعندما يفحص القلب بالرسام الكهربائى ، يكون الرسم فى الأغلبية الساحقة من الحالات طبيعيًّا ، لأن عضلات القلب لا تكون قد تأثرت بعد بجلطة عابرة . ولكن على الطبيب أن ينصح مريضه بالراحة وعدم الإجهاد ، وأن يصف له دواء مهدئاً يساعده على التطبع بالنعمة الكبرى التى يسمونها الاسترخاء . وبعد أن يصل به إلى هذا الدور من إراحة القلب والأعصاب ، يسلمه إلى خبير فى تأهيل الحالات القلبية ، يتدرج به فى التمارين حتى تتحسن

قدرات القلب والرئتين على مواجهة المجهودات والانفعالات ، ويقيه من حدوث ما نخشاه دائماً ، وهو الجلطة فى أحد فروع الشريان التاجى .

* * *

والسؤال الثانى هو : لنفترض أن المحظور قد حصل ، وأصيب المريض بانسداد فى أحد شرايين قلبه ، ثم قسم الله له الشفاء ، فكيف نأخذ بيده خطوة خطوة نحو شفاء دائم بإذن الله ؟ . . وكيف نوفق بين الآراء المختلفة التى ينحرف بعضها شرقاً ، وينحرف البعض الآخر غرباً . . .

إن الآراء تكاد تكون متفقة — فى مختلف مدارس الفكر — على طرق علاج المريض فى بداية الأزمة ، فالراحة الجسمية والنفسية شرط أساسى ، فلابد أن يلزم المريض فراشه دون حراك ، وأن تغمر أعصابه بالمسكنات والمهدئات ، مثل « الفاليوم » و« والانسيدون » و« التربيتزول » ، وغيرها مما يطول حصره ، وقد ينام المريض طول الليل ومعظم النهار ، ولايصحو إلا فى موعد تناول الدواء أو قليل من الغذاء يسد رمقه خلال شهية أضعفتها عوامل عدة .

أما ما عدا ذلك من الأمور العلاجية ، فالآراء فيه مختلفة متباينة . ولنبدأ بأدوية السيولة كما يسمونها أو الـ Anticoagulants أى المضادة للتجلط . فهناك مدارس عدة ، وفى مقدمتها المدرسة الإنجليزية ، تنصح بعدم إعطائها إلا لمدة لا تزيد على الشهرين ، على أن يحتفظ الدم بدرجة من السيولة تتراوح بين ٢٥ ، ٣٠ فى المائة : وفى مدارس

أخرى – وفى مقدمتها المدرسة الأمريكية – تجيز استعمال هذه الأدوية طوال ما تبقى للمريض الناقه من حياة ، مستعيناً طول الوقت بتقدير عامل التجلط Prothrombin Time فى دمه ،وإنقاص مقدار الدواء أو زيادته حسب التغيرات فى عامل التجلط ، بحيث يحتفظ بمستواه بين الخمسة والعشرين والخمسة والثلاثين فى المائة . وهناك من يكتفون بما يلاحظونه من أعراض" نزفية فى جسومهم مثل نزيف اللثة ، لا سيما عند استعمال فرشاة الأسنان أو من الذقن عند حلاقتها فى الصباح . عندها يتحتم على المريض أن يذهب فى الحال إلى معمل التحاليل ، للتأكد من مستوى التجلط فى دمه . فإذا انخفض إلى درجة الخطورة ، أوقف الدواء فى الحال ، وأعطيت أقراص الفيتامين « ك » (كوناكيون).

ومن الصحيح أن هناك مبررات حاسمة تمنع استعمال هذه الأدوية . مثال ذلك ارتفاع ضغط الدم الشديد ، ووجود قرحة فى المعدة أو الاثنى عشر ، وأمراض الكبد والكليتين الشديدة ، والسمنة المفرطة ، وحالات الحمل وسبق الإصابة بأمراض نزفية . أما خلاف هذا ، فالمعقول والأكثر أماناً هو الاستمرار فى استعمالها مدداً طويلة ، أقلها عامان مع الاستعانة بالمتابعة المعملية لأن بعض هذه الأدوية تتلاعب بمستوى البروترومبين ، فهو يوماً عال جداً دون مبرر ، ويوماً منخفض لحد الخطورة .

وجدير بالذكر أن الحيض عند السيدات لا يمنع من استمرار تعاطى الدواء .

واختلفت الآراء كذلك بصدد القيمة العلاجية للأدوية المضادة

للكولسترول ، مثل « الأثروميد » و« الديسينوفس » وغيرهما . وبالرغم من الآراء المضادة ، فإن معظم مرضى القلب يواظبون على تعاطي هذه الأدوية ، وكأنها سراب الأمل في الصحراء القاحلة . وما الضرر منها مادامت لها القدرة على خفض مستوى هذه المادة في الدم. . فإن هذه المادة تعتبر عاملا هامًّا في حدوث تصلب الشرايين . وتفضل المدارس المتطرفة الطريقة الطبيعية ، وهي المشي لمدة نصف ساعة أو ساعة يوميًّا ، والإقلال من تعاطي الأغذية الدهنية ، وتجنب زيادة الوزن ما أمكن .

* * *

حضر إلى مصر أخيراً أستاذ بريطاني كبير ، أخصائي في أمراض القلب ، وهو الأستاذ « بيتر نيكسون » . وبقي بين ظهرانينا شهراً كاملا يفحص الحالات التي تهافتت عليه في مستشفى القوات المسلحة بالمعادي ، وكان بعد أن يطمئن على حالة المريض من الناحية الإكلينيكية ورسم القلب الكهربائي ، يكتب له على ورقة صغيرة أقراص : « ڤاليوم » ٥ ملليجرام ، والمشي لمدة ساعة يوميًّا . وكانت السيدات يولولن ساخرات « أندفع عشرة جنيهات ليقول لنا : المشي وأقراص الڤاليوم المهدئة ؟ ».. والواقع أن هذا يمثل بأمانة رأي المدرسة الإنجليزية . فغالبية علماء القلب من أتباعها يعتقدون أن المشي والإجهاد الجسمي المعقول — مثل ممارسة السباحة — من أقوى الوسائل لفتح شرايين القلب وخلق دورة دم جانبية تكاملية حول الجزء الذي أصابه التليف نتيجة لانسداد الشريان الأصلي .

وقد يعمد بعض الكسالى إلى الاعتماد على موسعات الشرايين ، مثل

« الترايننترين » ، وخاصة بطيئة المفعول منها مثل « الايزودريل » و« البيرتريت » و« الكوروفاز » وغيرها مما يصعب حصره ، وكلها وسائل لا تغنى أبداً عن رياضة المشى وغيره مما يمارس فى مراكز تأهيل القلب. ولكن لابأس من أن يحمل المريض فى جيبه بضعة أقراص من «النرينترين» وأشهرها « الانجسيد » ، وهو الدواء الرخيص الثمن القوى المفعول . فإذا شعر المريض بانقباض فوق صدره ، نتيجة أى مجهود ، فما عليه إلا أن يضع إقرصاً تحت لسانه . ومتى أحس بالراحة ، وجب عليه أن يبصق ما يتبقى منه .، لأن امتصاص الكثير من هذا الدواء يؤدى إلى أعراض مزعجة ، مثل الخفقان والهبوط والعرق ، مما يزيد من خوف المريض على نفسه .

ومن المستحسن اللجوء إلى مدرات الدول غير الزئبقية ، وخاصة فى المرضى اللدين يراد إراحة قلوبهم المنهكة . كما هى الحال فى الذين تراكمت المياه فى أجسامهم ، ثم فاضت حول الكعبين رفى جدار البطن ، فهنا يستحب سحب أكبر قدر ممكن من المياه والأملاح المتراكمة بين خلايا الجسم فيخف وزن المريض ويجد نفسه خفيفاً . . ويجب عليه فى الوقت نفسه أن يقلل من الملح فى الطعام ، ومن شراب السوائل دون مبرر حتى لا يثقل قلبه الجريح .

هذه باختصار مسيرة المريض الناقه من الذبحة الصدرية بمختلف أنواعها وتفاوت درجاتها . ولعلها طريق السلامة بإذن الله .

طبيب أطفال . . . فى السودان

عندما قبلت راضياً مغتبطاً مهمة العمل بالسودان الشقيق ، نظمتها لى الهيئة الصحية الدولية ، لمدة ثلاثة أشهر ، دهش زملائى : كيف يترك إنسان مثلى قاعدته العريضة من الثقة والانتشار ، إلى بلد ولو أنه شقيق إلا أنه فى نظر المتكاسلين سحيق : وتساءلوا ماذا يفيد شخص له تجاربى — ذرع العالم شرقاً وغرباً ، ونهل من منابع العلم حتى غص حلقه من النزوح إلى بلد يقسو الجو فيه أحياناً ، ومشكلاته المرضية شبيهة بمشكلاتنا ..

فهم يرون أنه ليست هناك فرصة للاستزادة من المعرفة ، ناسين — أو متناسين ! — أن فى كل بلد على وجه البسيطة مجالات للبحث والاستقصاء ، وإن رحلة كهذه تبعدنى مؤقتاً عن ثقة المريض التى تثقل كاهلى ، وتهبنى فسحة من الوقت أراجع فيها ما فاتنى فرصة قراءته من الكتب والمراجع والمجلات الطبية الحديثة ، فتزيد متعتى النفسية ، وتزدهر مكتبتى الفكرية للدرجة التى ترضى النفس التواقة الشواقة . . إذ أعود تلميذاً من جديد ، ألتهم الصفحات فى نهم ، ومدرساً يقظاً لايتوانى لحظة عن تنفيذ الجدول المنوط به ، فأدرس للطلاب وأمر بهم على الحالات دارساً فاحصاً ، وأفيد أطباء وطلاب السودان من نتائج

أبحاثى فى أمراض سوء التغذية ، التى قضيت سنين طويلة أحل طلاسمها مع مجموعة من أساتذة طب الأطفال المصريين — الذين أعتز بتعاونهم فى هذا المجال — حتى هذه الساعة ولسنوات قادمة بإذن الله . . وأضرب لذلك مثلا بمرض « الكواشيوركور » ، والطفل الضامر ، والأديما الغذائية ، والنزلات المعوية بكل مشكلاتها المعقدة ، وأنيميا البحر الأبيض المتوسط (مرض الثلاسيميا) . كما أننى أفيد منها بمناظرة حالات يندر وجودها فى مصر ، مثلا نوع الأنيميا التى تشبه فيها كريات الدم الحمراء الهلال فى أيامه الأولى من الشهر القمرى أو المنجل الذى يقطع به حشيش الأرض ، ويطلقون عليها Sickle Cell Anaemia أى الأنيميا المنجلية . وهى « أنيميا » لم يكتشف منها فى مصر — خلال السنين الطوال — سوى حالة واحدة ، لأن حدوثها يكثر فى الأطفال ذوى البشرة السمراء .

ويطيب لى فى هذا المجال أن أطيل الحديث قليلا ، عن هذه الأنيميا ، حتى أنبه الأطباء عامة إلى مميزاتها ، لعلهم — سواء فى القرية النائية أو المدينة الكبيرة — يتمكنون ذات يوم من أيام الحياة من اكتشافها فى مرضاهم ، ويضيفون إلى العلم شيئاً جديداً . والعلم غير مقصور على الجامعات أو المعامل ذات الاستعداد الضخم ، بل هنالك الحاسة الإكلينيكية أولا وأخيراً . ويحالفك فى أن تكشف عن حقيقة أى مرض — بوساطة الفحص — عين واعية مدققة ، وأيد مرهفة الحس ، فيها لمسة السحر ، تستشف ما وراء الحجب ، وذهن واع متفتح ، يكاد

يلتهم الكلمات التهاماً من فم المريض أو أهله ، فيحولها إلى معان توجهه نحو حقيقة المرض ، مهما كان نوعه أو كانت درجته . . وأخيراً ، وليس آخراً ، إلهام رب العرش الأعلى ، فأنت بدون وحى ينزل عليك ليلهمك الصواب ، عاجز أى عجز عن فك الطلاسم التى تواجهك إذ تتصدى لمشكلة من مشكلات هذه العقدة الأزلية التى يسجى فيها الطفل ا .

لكل هذا كانت سعادتى كبيرة ، عندما عرضت على الهيئة الصحية العالمية أن أشغل منصب أستاذ زائر بقسم الأطفال بجامعة الخرطوم . وللسودان عندى ذكريات عزيزة كانت أول زيارتى له خلال انعقاد مؤتمر اتحاد الأطباء العرب — فى عام ١٩٦٧ — بالخرطوم ، والثانية خلال انعقاد مؤتمر جمعية أطباء الأطفال السودانية الأول بواد مدنى ، فى عام ١٩٦٩ . . وقد لقيت من زملائى محبة وحفاوة يعجز اللسان عن إيفائهما حقهما .

* * *

وصلت إلى الخرطوم فى فجر يوم السبت ، الموافق اليوم السادس عشر من يناير عام ١٩٧١ . وبلغت الفندق الكبير « جراند أوتيل » فى الصباح المبكر . وبعد أن استرحت قليلا ، وبينما كنت أنتظر وصول صديقى الدكتور « محمود محمد حسن » ، جلست فى « التراس » الكبير المطل على النيل ، واستنشقت عبير السودان الحبيب بعد غياب . وشعرت بانتعاش عجيب ، وأخذت أسترجع ماضى الذكريات حتى أهل على الصديق الحبيب . . وبعد ترحاب تخللته القبلات والأحضان ،

اصطحبنى إلى قسم الأطفال بمستشفى الخرطوم . وهناك قابلت صديقى الدكتور « حافظ الشاذلى » ، مدرس الأطفال بالجامعة ، وطبيبين شابين عادا حديثاً من إنجلترا ، بعد أن اجتازا امتحان عضوية كلية الأطباء الملكية بلندن — وهما : الدكتور « محمد إبراهيم على عمر » والدكتور « حسن عثمان » — وعدداً من أطباء الامتياز والنواب يكفل تمتع المريض برعاية فردية لابأس بها تحت توجيه مدرسيهم وأساتذتهم الذين سبق لى ذكر أسمائهم .

وإذا حكمنا على طب الأطفال فى السودان على المستوى الجامعى وجدناه مرضياً للغاية ، فطالب « البكالوريا » تتلقفه أيد أمينة لأساتذة تخصصوا تخصصاً عالياً ، فيصقلون معلوماته للدرجة التى تجعله يلم إلماماً سليماً بمشكلات الطفل أثناء مرضه ، وتساعده على الأخذ بيده عندما تشتد به العلة ، فى المدينة الكبيرة أو القرية النائية على السواء .

ومراكز رعاية الطفل تزيد ببطء نسبى . . فمع أنها مطردة ، فإنها لاتفى بحاجة السودان الشقيق الواسع الأرجاء . لذلك كان من الضرورى الاستعانة بأطباء من البلدان المجاورة الناطقة بالضاد ، ليسدوا النقص حتى يتخرج الأطباء الشبان فى جامعة الخرطوم ، وفى جامعة « واد مدنى » المزمع إنشاؤها قريباً . . فيشغلوا فراغاً هائلا هم أهل لأن يشغلوه .

* * *

وعدتك يا قارئى العزيز ، بالتحدث إليك فى بعض الإيجاز عن نوع من فقر الدم المزمن ، لاحظت كثرة حدوثه بين أطفال السودان ،

وتتميز فيه الكريات الحمراء بشكلها الهلالى أو النجلى Sickle ، بدلا من الشكل المستدير الذى تلاحظه فى الطفل العادى . . وهذا المرض يطلق عليه « الأنيميا المنجلية » ، ويندر جدًّا حدوثها فى مصر . وقد سنحت لى الفرصة لمناظرة الكثير منها ، وكأنها حدث يومى لا تخلو منه عيادة أطفال فى مختلف أنحاء جمهورية السودان .

وينتج هذا النوع من « الأنيميا » من تغير خلقى فى تركيب « الهيموجلوبين » ، يحوله إلى « هيموجلوبين S » بدلا من الطبيعى الذى تصطبغ بها كرياتنا الحمراء ، والذى يحافظ على استدارتها . وللكرات الهلالية المنجلية ، من شكلها ما يساعد على تلاصقها ، وخاصة من أطرافها وتتجمع على هيئة كرات مستديرة تسد الشعيرات الدموية فى أجزاء الجسم المختلفة ، لا سيما فى الطحال . فيشكو المريض من آلام حادة فى البطن ، قد يشخصها الطبيب على أنها التهاب فى « البريتون » أو الزائدة الدودية . . وقد تحدث هذه الأيام فى الأطراف ، فيختلط الأمر بينها وبين الحمى الروماتزمية . . أما إذا كانت هذه الكرات ترسب فى الكليتين ، فقد يلتبس الأمر على الطبيب ، فيحسبها التهاباً كلويًّا حادًّا . . والويل للمريض إذا حدث الترسيب فى الجهاز العصبى ، فهنا تظهر التشنجات والغيبوبة وتيبس الرقبة والشلل ، وبقية الصورة التى تصاحب الالتهاب السحائى ، والتهابات المخ عامة .: أما إذا كان الانسداد فى صلب العظام ، فإن الجراثيم تهرع إلى نقط الضعف هذه ، مسببة التهاباً عظميًّا حادًّا .

وما لم يشخص المرض الأصلى على حقيقته ، فإن الجراح يعالج الحالة كما تبدو له ظاهرياً ، ويعود المريض إلى ذويه سليماً معافى من الحالة الجراحية الطارئة . . حتى يحين الأوان – فى مستقبل قريب أو بعيد – الذى يعثر فيه الطبيب الباطنى مصادفة على فقر الدم الطاهر الواضح لكل ذى عينين ، والطحال المتضخم ، ومنظر الكريات الحمراء الهلالى . . والذى يخطر فيه ببال الطبيب المعالج أن يطلب من طبيب معمل – ذى كعب عال فى فنه وعلمه – أن يدله على وجود هذا النوع من « الأنيميا » ، إذا وجد بعضاً من مميزاته الأخرى ، وأهمها تضخم الطحال واصفرار اللون الشديد ، وإذا كان المريض أسود البشرة – وهو الغالب – فما عليك إلا أن تقلب جفنه الأسفل ، لترى إذا كان من الداخل قد تحول من اللون الأحمر القانى إلى لون باهت لا يسر الناظرين .

من يدرى يا عزيزى الطبيب القاطن بعيداً عن صخب الجامعات والمعامل ؟ . قد تسوقك المصادفة إلى أن تكتشف إحدى الحالات الأولى من هذا المرض فى جمهوريتنا . . والقدرة على كشف الجديد متوقفة على أن تتوقع وجوده دائماً فى مخيلتك وفى ناظريك . فإذا خرج الطبيب منا كل صباح ، وفى نيته عزم وتصميم على العثور على حالة من مرض نادر ، فإنه قد يوفق ذات يوم جميل أشرقت شمسه ، فيكون له فخر الإنذار والتنبيه ، للتصدى للداء الوافد .

* * *

أما أمراض سوء التغذية ، فهى كثيرة الانتشار فى السودان كما هى الحال فى جمهوريتنا ، مثال ذلك مرض « الكواشيوركور » ، الذى يتميز بتغيرات جلدية ، وتورّم يشمل جميع أجزاء الجسم ، وتحوّل فى لون الشعر من الأسود القاتم إلى الكستنائى ، أو الأشقر . . .فضلا عن تضخم فى الكبد نتيجة تراكم دهنى ، وسرعان ما تختفى كل هذه الأعراض إذا أمددنا الطفل بما يلزمه من « البروتينات » ، وهى موجودة بسخاء فى اللحوم والألبان والبقول ...فالخطأ الشائع عندنا وفى كل البلدان — التى ابتليت بهذه الأمراض ، مع أنه من السهل أن نجنب الطفل مخاطرها بقليل من الإرشاد والتوعية — هو أن تكثر الأم من إعطاء طفلها النشويات والسكريات ، وتحرمه — غير عامدة — من المواد « البروتينية » ، ولعل كوباً من اللبن ، أو وجبة من العدس ، أو الفول المدمس أو قليلا من اللحم إذا تيسر ، كافية لوقاية الطفل من هذا البلاء المبين .

إن الطفل فى مصر يلتهم ما تقدمه له أمه من أرز مسلوق ، فيزيد وزنه للدرجة التى تغتبط لها الأم ، غير مدركة أنها ترتكب فى حقه خطأ أو جرماً غذائيًّا خطيراً ، قد يودى بحياته ، أما فى السودان ، فإن الطفل يزدرد فى لذة ما تقدمه له أمه مما يسمونه هناك بالشربات ، وهو شراب عسلى لايغنى عن القحط « البروتينى » الذى يعانى منه مريض« الكواشيوركور» أو الطفل الأحمر كما يسمونه .

والغريب فى هذا المرض أنه — بالرغم من الصورة القاتمة التى يبدو

عليها في أول الأمر – قابل للعلاج . فأنت تواجه طفلا بائساً ، تبدو عليه الكآبة والحزن ، ويرفض التعاون مع من حوله ، ويبعد اليد التي تقدم له الطعام ، وكأنه يتعمد الانتحار جوعاً ، فإذا ما صادفت مثل هذا الطفل المتهالك ، المتعنت ، فلا تتخذ منه موقفاً سلبيًّا ، بل عليك بحقنه بالبلازما عن طريق الوريد . وإذا لاحظت عليه الشحوب نتيجة فقر الدم الذي يصحب معظم هذه الحالات ، فإن عملية نقل الدم أفضل من حقن البلازما وحدها .

ولقد ثبت أن هذا الشعور بالاكتئاب – الذي حدثتك عنه – ناتج عن نقص « الفيتامين ب – ٦ » أو « البيرودوكسين » ، فاذا حقنته بهذه المادة في العضل يوميًّا ، زال هذا العارض المزعج ، وأقبل الطفل على طعامه ، وازداد تعاونه مع من حوله ، وسهلت مهمة الطبيب على الأخذ بيده إلى بر السلامة . ومتى تفتحت الشهية ، اندفعت خلالها كل مقومات الحياة من أنواع الغذاء والدواء ، وبدا كل شيء سهلا ممهداً لشفاء سريع بإذن الله ... وبهذه الطريقة يمكن شفاء المريض تماماً خلال أربعة أسابيع من بدء علاجه .

* * *

ومما أدهشني حقًّا ندرة حدوث مرض لين العظام (الكساح) في السودان بالرغم مما عرف عن كثرة حدوث هذا المرض بين الأطفال ذوي البشرة السمراء ، نظراً لصعوبة اختراق الأشعة فوق البنفسجية للجلد ، كي

تصل إلى الدهنيات المتراكمة تحته ، لتحولها إلى « فيتامين ــ د » يكون له أثره فى تمثيل « الكالسيوم » فى الجسم ، عند امتصاصه خلال الأمعاء وترسيبه فى العظام فيزيدها صلابة ومتانة. إنه منتشر جداً بين الزنوج فى أمريكا لهذا السبب الذى أشرت إليه ... ولكن ، يظهر أن أشعة الشمس ــ كلما اقتربنا من خط الاستواء ــ تزداد حدة وقدرة على اختراق طبقات الجلد ، مهما بلغ سمكه أو اشتدت سمرته ــ لذلك قضيت فى السودان تلك الفترة من الزمن دون أن أشاهد طفلا واحداً مصاباً بمرض لين العظام .

وبمناسبة « لين العظام » ، أود أن أنبه زملائى إلى خطورة الإفراط فى استعمال حقن « الأوستلين فورت » ... وهى التى تحوى ٦٠٠,٠٠٠ وحدة من « الفيتامين ــ د » فى الحقنة الواحدة . إذ تكفى حقنتان منها أو ثلاث على الأكثر . وكثيراً ما يصف الطبيب خطأ حقنة كل أسبوع حتى يصل العدد إلى ١٠ حقن فعلا ، ويؤكد على الأم ألا تكف فى منتصف الطريق ، وإلا كان العلاج غير مجد . وذلك دون أن يفطن إلى أن هـــذا الطريق يؤدى إلى ما يسمونه التسمم بالفيتامين د Hypervitaminosis الذى يتميز بحدوث ارتخاء عام فى الجسم ، وميل إلى القيء والإمساك . فعند ظهور هذه الأعراض فى طفل يتعاطى هذا الفيتامين ، وجب تقدير مستوى « الكالسيوم » فى دمه . والمعروف أن المستوى الطبيعى للطفل هو من ٩ إلى ١١ مليجراماً فى المائة . أما فى حالات التسمم ــ التى أشرت إليها ــ فإنه يرتفع إلى ١٥ « مليجرماً » أو أكثر .

وكلما كان التشخيص مبكراً ، أمكن علاج الحالة فى سهولة تامة ،

وذلك بإيقاف تعاطى « الفيتامين » ، وجميع الأغذية التى تحتوى على نسبة عالية من الجير ، مثـل اللبن ومشتقاته . كما أن تعاطى عقار « الكورتيزون » له أثر فعال فى علاج هذه الحالات .

ولا تقف خطورة الخطأ عند هذا الحد، بل هناك احتمال جد خطير ، وهو ترسب الجير فى الكليتين ، وهذه هى الطامة الكبرى ، لأن هذا يؤدى إلى تسمم بولى خطير ، قد يصعب إنقاذ الطفل من براثنه .

ولكثرة حدوث النزلات المعوية فى السودان ، نجد الأطباء بالمستشفيات — على مختلف درجاتهم — يتقنون الاستعانة بالمحاليل التى تحقن فى وريد الطفل المصاب بهذا المرض . وأود أن ألفت النظر إلى أن أى خطأ فى هذا المجال ، قد يكون قاتلا . فالطفل المصاب بالقىء فقط ، يلزمه حقن محلول الملح ، ولا مانع من « الجلوكوز » فى نفس الوقت ، لقيمته الغذائية . أما إذا كان الطفل مصاباً بالإسهال فقط ، فإن حقنه بمحلول الملح قد يضره ضرراً بالغاً ، لأن مثل هذا الطفل يكون مصاباً بارتفاع فى حموضة الدم acidosis ، فإذا حقن بمحاول الملح زادت هذه الحموضة ، وساءت حالة الطفل . والطريقة الوحيدة هى حقنه بمحلول N/$_6$Molar Lactate or Bicarbonate ، لأنها متى دخلت الجسم انطلق منها الصوديوم Na حرًّا ليتغلب على الحموضة السائدة فى دم الطفل . أما عنصر« اللبنات » Lactate فإنه يتحول فى الجسم إلى «جلوكوز». وإذا كان الطفل يشكو من قىء وإسهال فى نفس الوقت ، فلا مانع من حقنه بالجلوكوز مع محلول الملح . وإذا كان الانتفاخ شديداً فهذا فى غالب الأمر ناتج عن هبوط

مستوى « البوتاسيوم » فى الدم ، لذلك يجب إضافته إلى السائل المحقون فى الوريد . وإذا لم يتسن هذا ، ففى عصير الفاكهة — مثل البرتقال والليمون والتفاح — كمية من « البوتاسيوم » كافية لمقابلة هذا الطارئ فى منتصف الطريق .

مشاهدات فى مؤتمر الطفولة بأنقرة

يخطىء من يظن أن ارتياد المؤتمرات عبء ومضيعة للوقت.... لقد دأبت على المواظبة على حضور كل مؤتمر يمت إلى الطفل بصلة منذ عام ١٩٥٦ ، عندما عقد مؤتمر الطفولة الدولى بكوبنهاجن ، عاصمة الدنمرك . وأذكر ونحن نحتفل باختتام أيام المؤتمر ، أن تقدم منى الدكتور « حامد على خان » مندوب الباكستان ، وهمس فى أذنى بصوت يرتعش فرحاً : لقد استولى « ناصر » على قناة السويس . . . وكان ذلك فى يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٦ .

ثم جاء دور مؤتمر الطفولة الدولى التاسع بمونتريال ، بكندا .. وصممت — فى طريقى إليه — أن أعرض على الجمعية العامة للمؤتمر دعوته للانعقاد بالقاهرة . وأخذت أجوب طرقات المؤتمر ، المنعقد فى قاعات الدور الأول من فندق « الملكة اليزابث » ويسمونه دور المؤتمرات كما يسمونه فى معظم الفنادق الكبيرة فى وقتنا هذا — وأجريت اتصالاتى الشخصية مع أصدقائى من أعضاء وفود البلاد الأخرى ، فلقيت الفكرة قبولا مشجعاً حتى إذا ما جاء يوم جلسة الجمعية العامة ، نهض مندوب إسرائيل وندد بالفكرة ، مادامت مصر لا تقبل دخول مندوبى إسرائيل . ومن شروط المؤتمرات الدولية أن تقبل الدولة المضيفة جميع الجنسيات دون تفرقة

عنصرية . فكسبت « لشبونة » عاصمة البرتغال ، الجولة . . . وذهبنا فى عام ١٩٦٢ إلى « لشبونة » لأن المؤتمر الدولى يعقد كل ثلاثة أعوام .

عندئذ خطرت لى فكرة عقد مؤتمر إقليمى يضم بلدان الشرق الأوسط وشرق البحر المتوسط ، لأرجع وفى يدى هدية أقدمها لجمعية طب الأطفال المصرية ، التى كنت أرأسها . فعرضت الفكرة على الأستاذ « چيدو ڤانكونى » ، سكرتير عام جمعية الطفولة الدولية . وكانت حجتى أن مثل هذه المؤتمرات الإقليمية تناقش مشكلات واحدة ، متجانسة ، وهذا يعود بفائدة أكبر على طفل المنطقة . واقتنع الأستاذ الكبير فى الحال ، ودعانى للغداء فى مطعم الفندق — بالدور التاسع — ومعى الأستاذ « إحسان دجرامتتشى » مندوب تركيا ، الذى أصبح — فيما بعد — مدير جامعة أنقرة . وقد كان رئيس المؤتمر التاسع الإقليمى ، الذى عقد فى أنقرة فى شهر سبتمبر ١٩٧٣ . واتفقنا على أن تكون القاهرة مكان انعقاد مؤتمر الطفولة الإقليمى الأول لبلدان الشرق الأوسط وشرق البحر الأبيض المتوسط ، ثم تطورت الفكرة فى المؤتمر الخامس ، الذى عقد فى القدس فزيدت الرقعة بحيث تشمل حوض البحر المتوسط بأكمله ، وأصبحت تضم إيطاليا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال ودول شمال أفريقيا .

هكذا نشأت فكرة المؤتمر الإقليمى... بدأتها كمحاولة لتغطية موقف مصر ، بعد إذ حالت وجهة نظر إسرائيل دون نجاحنا فى عقد المؤتمر الدولى بالقاهرة . وأخذت أرقب الفكرة وهى تتضخم دوليًّا ، وأقبل عليها كبار الأطباء من مختلف أنحاء العالم وأخذت تنتقل من بلد إلى آخر ،

فعقد المؤتمر الثانى بأنقرة فى عام ١٩٦١ . . . ثم بيروت ، وأثينا ، والقدس ، وأثينا مرة ثانية — بدلا من القاهرة — بسبب حرب ١٩٦٧ ، ثم طهران. فبرشلونة . . . حتى إذا ما جاء عام ١٩٧٣ ، كان الانعقاد فى أنقرة للمرة الثانية . وكان هذا المؤتمر الأخير حافلا بالشخصيات العالمية فى طب الأطفال ، ومن جميع الجنسيات ... وكانت الموضوعات التى نوقشت على مستوى عال من الجودة والعمق مما جعلنى أغتبط لنجاح فكرتى وشكراً لله الذى وقف دائماً بجانبى ولم يخذلنى أبداً .

* * *

وصلتُ أنقرة قبل موعد المؤتمر بيوم ، أى فى الثلاثين من أغسطس من عام ١٩٧٣ . . . وعند وصولى إلى الفندق ، وجدت حافظة بها برنامج المؤتمر ، فتصفّحته فى الحال ، كعادتى فى أخذ هذه المؤتمرات بجدية تامة ، من بدايتها إلى نهايتها ... وتبينت أن ندوة — سموها « ندوة ما قبل المؤتمر » — على وشك الانعقاد فى مقر المؤتمر فى مستشفى « هاسيتيب » . من الساعة الثانية إلى الساعة السادسة مساء . وقرأت أسماء المتحدثين فى هذه الندوة فإذا بها تبحث فى مشكلات الطب الاجتماعى ومن بينها الطفل المتخلف ، والطعوم الوقائية . . . ووجدت بين الأسماء جهابذة من فرنسا أمثال « سينيكال » ، الذى كثيراً ما زار مصر وكرس حياته لخدمة الطفل الإفريقى فى « داكار » وما يجاورها من البلدان . وقرأت اسم « مانسيو » و « ماندى » من فرنسا أيضاً ، و « دوكسيادس » من اليونان والدكتور « جمال حرفوش »

من لبنان ، و « تيزى » و « برتان » من تركيا . . . فهرعت فى سيارة أجرة إلى هناك ، لألتقط المزيد من المعلومات فى موضوع يهمنى جدًّا ، وهو التطورات فى استعمال طعوم الوقاية فى مختلف الأمراض. وقد ألقى البحث البروفسور « ريمون » ، واستخلصت منه — وأنا أنصت إليه فى متابعة لا تخلو من متعة — النقاط الآتية :

أولا : إن الإصابة بمرض شلل الأطفال قد هبطت هبوطاً هائلا ، نتيجة استعمال الطعم الواقى . فمنذ تعميم استعماله ، لم يحدث غير مائتى (٢٠٠) حالة سنويًّا ، فى ٢٤ من البلدان المتمدينة ، ومن بينها الولايات المتحدة ودول أوربا وأستراليا ، فهمست لنفسى وأنا أنصت فى دهشة : ما بالنا ونحن نستقبل — بالرغم من تعميم استعمال الطعم الواقى فى حدود إمكانياتنا — آلاف الحالات سنويًّا ، فى عياداتنا الخاصة والمستشفيات الحكومية وغير الحكومية .

ثانياً : سمعت واقعة طريفة عن طعم السعال الديكى ، عندما قرر الأستاذ « ماندى » أن الطعم قد ينتج ظاهرة شبيهة بالسعال الديكى ، بعد انقضاء أسبوعين أو ثلاثة على الحقنة . . ويسمونه سعالا ديكيًّا صناعيًّا ، ولا علاقة له مطلقاً بالمرض الأصلى . وهذا طبعاً قد يغرى والدى الطفل على عدم تطعيم بقية أولادهما ، اعتقاداً منهما بعدم فائدته ... وقد ينشرون الإشاعة بين العائلات المحيطة بهم ، ويسيئون إلى سمعة الطعم الواقى دون مبرر ؛



المؤلف مع الدكتورة لمياء زكي رئيسة وفد العراق والدكتورة زهيرة عابدين

ثالثاً : تكون الفترة بين حقن الطعم المثلث (الدفتريا والسعال الديكى والتتانوس) شهراً ، ويمكن زيادتها إلى شهرين دون ما ضرر . ويحسن أن يكون عدد الحقن ثلاثاً ، لأن المناعة فى مثل هذه الحالة تكون أقوى بكثير من نظام الحقنتين . أما الحقنة المنشطة لتدعيم المناعة ، فيجب إعطاؤها خلال السنة الثانية من عمر الطفل .

رابعاً : تعطى حقنة طعم الحصبة بين الشهرين التاسع والثانى عشر من عمر الطفل . ويعطون فى الولايات المتحدة — حسب توجيهات أكاديمية طب الأطفال الأمريكية — جرعة ثانية خلال السنة الثانية من العمر .

خامساً : إن فاعلية طعم « الكوليرا » لا تزيد على خمسين فى المائة ، و إن المناعة الناتجة عنه لا تزيد مدتها على ستة أشهر .

سادساً : إن هناك طعومات تجمع بين عناصر عدة : فمنها ما يجمع بين الدرن والجدرى ، وما يجمع بين الدرن والحمى الصفراء والحصبة والجدرى . . . وهذا يستعمل خاصة فى البلدان الإفريقية . والملاحظ عموماً أن الخلط بين الطعوم المختلفة فى جرعة واحدة ، يقلل من مفعول واحد من عناصرها أو أكثر .

سابعاً : نجح الباحثون أخيراً فى تحضير طعم مضاد للحمى الشوكية المخية ، ولكن ضد الفصيلة (ا) وليس ضد الفصيلة (ب) من الجرثومة .

ثامناً : تمكن الباحثون أخيراً من تحضير طعم ضد الحصبة والحصبة الألمانية معاً ، وتكفى حقنة واحدة منه . . . ولو أنه يحسن إعطاء حقنة منشطة ، بعد مضى سنة من الحقنة الأولى .

* * *

لا بد أن أنوّه فى هذا المجال بالوجوه المصرية الحبيبة ، التى أقبلت — على مدى الأعوام — على ارتياد مؤتمرات طب الأطفال الإقليمية أو الدولية . كنت فى بادئ الأمر ، أجد نفسى وحيداً بين أبناء الفرنجة والهند والباكستان والصين واليابان وغيرها من البلدان ، ثم فوجئت فى عام ١٩٥٦ بالدكتور « ممدوح حنفى » والدكتور « رياض ناشد » يزاملانى فى حضور مؤتمر الطفولة الدولى بكوبنهاجن . وكانت الصحبة جميلة ، ومبهجة . وفى عام ١٩٥٧ رافقنى الدكتور « أحمد شفيق عباس » إلى مؤتمر شلل الأطفال الدولى الثالث الذى انعقد فى جنيف والذى كانت أيامه خالدة ، وشاهدنا « سولك » — مكتشف الطعم المضاد — لشلل الأطفال عن طريق الحقن — فى عنفوانه ، يخطر فى طرقات المؤتمر مزهواً فخوراً ، ولكن فى أدب وتواضع جديرين بعالم مثله ، وبدأ « سابين » يتحدث عن الطعم المضاد عن طريق الفم باعتباره طعم المستقبل . . . وينصت إليه « سولك » فى هدوء ، حتى إذا جاء عام ١٩٦٠ ، رافقنى إلى المؤتمر الرابع الدكتور « إمام زغلول » ، وشاهدنا أفول نجم « سولك » ، ورأينا « سابين » يتحدث عن الطعم المسمى باسمه — والذى يعطى عن طريق الفم ، فيكسب الجولة بالضربة القاضية — ويختفى « سولك » إلى الأبد ، ولكن بعد أن خلد اسمه كأول مكتشف لأول

طعم مضاد لهذا الداء الوبيل .

وأخذت القافلة تتضخم عاماً بعد عام . فنى مونتريال — فى عام ١٩٥٩ كانت معى الدكتورة «نعمت هاشم» ... وفى أندونيسيا زاملنى الدكاترة « على عبد العال» و « ممدوح حنفى » و « زهيرة عابدين» فى المؤتمر الآسيوى الأفريقى الثالث ، الذى انعقد فى أغسطس من عام ١٩٦٤ ... وفى لشبونة — عام ١٩٦٢ — كانت القافلة كبيرة ضمت « ممدوح جبر» و « صلاح عواد » و « على عبد العال » . . . وفى كل لحظة وصول — أعنى كل مؤتمر جديد — كان ثمة ركاب جدد ينضمون ، حتى بلغ العدد فى مؤتمر أنقرة ، الذى أتحدث عنه ، حوالى الثلاثين من الأطباء المصريين . وإذا كان واجباً على أستاذ الجامعة أن يرتاد المؤتمرات بأى ثمن وبأية تضحية ، فإنى لا أنسى أن أنوه بمواظبة الصديقين الدكتور « نجيب زكى بطرس » ، والدكتور « رؤوف ناشد » — من أطباء وزارة الصحة — على حضور كل المؤتمرات فى السنوات العشر الأخيرة ورأيت — فى أنقرة للمرة الأولى — الدكتور « محيي الدين الجارحى» أخصائى الأطفال بالمنيا . وإنى لأشعر بسعادة كبيرة عندما أرى الوعى المؤتمرى — كما أسميه — ينتشر بين الزملاء ، فلست تتخيل شعور الألفة الذى ينمو بينك وبين زميل فى بلاد الغربة .

ونظرة واحدة إلى الصورة المنشورة مع هذه السطور والتى التقطت فى سبتمبر الماضى — تثبت لك صدق قولى . فها أنذا جالس فى غاية الانشراح بين زملائى الأستاذ عبد الغنى وشاحى — الجالس إلى يسارى — والدكتور « هاشم الدباغ » السعودى الجنسية والجالس إلى يمينى ، وأمامى الدكتور



أمام باب المؤتمر ، من اليمين الدكاترة جميل والى – عبد الغنى وشاحى – زهيرة عابدين – رؤوف ناشد – لمياء زكى – على عبد العال

« رؤوف ناشد » يناقش الدكتورة « زهيرة عابدين » — السيدة الوحيدة في الصورة — وإلى يمينه زوجها الأستاذ «الدكتور عبد المنعم أبو الفضل» ... بينما جلس إلى يسارها الدكتور « مهدى الباسوسى » ، رئيس قسم الأطفال بطب المنصورة .

ولمهدى الباسوسى عندى معزة خاصة (بتشديد الزاى وفتح الميم لا بكسر الميم وتسكين العين) لأنه بنى مجده بيديه العصاميتين . لم يكن نائباً فى قسم أطفال جامعى ، ولكننا قابلناه جميعاً وهو نائب مقيم فى مستشفى الجمهورية بالحلمية الجديدة بالقاهرة . وكنا نحن — أساتذة الأطفال بالجامعات — نرسل حالاتنا التى تحتاج لعناية خاصة إلى هذا المستشفى الأصيل ، فكنا — بطبيعة الحال — نقابل نائب القسم . فنجده شابًّا مهذباً ، دائم الابتسامة فى جدية ورصانة ، يسرد تاريخ الحالة بتفصيل مركز ، ويصف لك العلامات والأعراض فى دقة بالغة ، مما يجعلك تعجب فى نفسك مما يدعو إلى أن تحرم الجامعات من شاب كهذا ، يصلح لأن يكون مدرساً قديراً .

وتدرّج الشاب العصامى فى دراساته العليا ، فحصل على دبلوم طب الأطفال ، ثم حصل على الدكتوراه بعد تعثر لبضع سنوات ، وهو تعثر يصادفه زملاؤه من نواب ومعيدى أقسام الأطفال بالجامعات عادة ، وتصادف إذ ذاك افتتاح كلية طب المنصورة ، فعرضت عليه أن يذهب إلى هناك ، ليضع اللبنة الأولى فى القسم ويرفع لواء طب الأطفال بمحافظة الدقهلية ، متمثلا بقول المرحوم الدكتور « على باشا إبراهيم » الذى يتلخص فى

الكلمات الآتية : أن تكون الأول فى قرية ، خير من أن تكون الثانى فى المدينة ! . . وأطاع الشاب دون تردد ، كما يطيع الجندى قائده ، ولمع فى محافظة الدقهلية ، وأنشأ مدرسة لطب الأطفال من مساعديه « محمد حافظ » و « أحمد خشبة » . . . والبقية تأتى .

* * *

أعود لصلب المؤتمر ، فأقول إنه من أنشط المؤتمرات التى ساهمت فيها . . . وكانت الجلسات تبدأ فى الثامنة والربع من كل صباح . فكان علينا أن نصحو مبكرين ، ونتجول مسرعين — دون أن نلهث — من قاعة إلى أخرى ، حسب أهمية الموضوعات أو لنجامل زميلا مصريًّا حان موعد إلقاء محاضرته . وكان فى ذلك نوع من الترابط العجيب بين الزملاء المصريين الذين صالوا وجالوا بحق فى أبحاثهم عالية المستوى ، ولمع « عبد الحليم شحاته » و « رشاد صقر » و « ممدوح جبر » و « محمود العيسوى » و « زهيرة عابدين » و « حسين كامل بهاء الدين » و « عادل لطفى » وزوجته « جيلان عبد الحميد » و « أحمد أبو الحسن » و « صلاح نصار » و « محمد خليل عبد الخالق » و « خليل الديوانى » و « عبد الغنى وشاحى » . ورأس « على عبد العال » إحدى الجلسات الهامة. ومن الإسكندرية برز الدكتور « شفيق عباسى » و « ممدوح حنفى » و « جلال عارف » . ومن جامعة « عين شمس » أيضاً لمع الدكتور « محمد ربيع الظواهرى » الذى ألقى أربعة أبحاث هامة ، كان أهمها — بالنسبة لى — هو تحضير أقراص « البنسلين » التى تحتوى على مليون وحدة ، وقيمتها

الوقائية فى حالات الروماتيزم وقيمتها العلاجية فى غير الروماتيزم . . .
وكذلك البحث الذى ناقش فيه القيمة الغذائية :

وكان صباح يوم ٢ سبتمبر — من عام ١٩٧٣ — من أسعد أيام حياتى فلقد عقد مؤتمر دائرة مستديرة Round Table ناقش الحمى الروماتيزمية من كل زواياها التشخيصية والعلاجية والوقائية. وكان أول المتحدثين الدكتور « حسين كامل بهاء الدين » ، الأستاذ المساعد بقسم الأطفال بطب القاهرة . وكان قمة فى طريقة عرضه وتلخيصه وتركيزه لموضوع معقد . لقد كان « حسين » مدرساً لامعاً فى قسم الأطفال ، وكان له نشاط اجتماعى خارق فى مجال الشباب ومعسكراته ، منذ بدأت ثورتنا المباركة ، فلفت إليه الأنظار وأخذ يتدرج فى مراكز القيادة حتى عين أميناً للشباب فهجر التدريس إلى حين . . . وكنت أشعر دائماً بالخسارة التى منى بها قسم الأطفال ، ولكنه عاد إلى الحظيرة بعد سنين قليلة ، فالذى يتذوق رسالة المدرس لا يسلوها أبداً . والطبيب منا سرعان ما يتراكم الصدأ عليه ، إذا انحرف ولو إلى طريق أحسن وأكثر راحة . ولكن حسيناً سرعان ما تأقلم من جديد لرسالته الأصلية ، وداوم الدراسة والبحث ، حتى بلغ المستوى الرفيع الذى شاهدته عليه فى مؤتمر أنقرة :

ويتلخص بحثه القيم — الذى استغرق بضع سنوات — فى أنه وجد فى حالات الروماتيزم نقصاً ملحوظاً وواضحاً فى مادة دهنية فوسفورية تدعى « ليزوليسيتين» Lyso Lecithin فى دم الأطفال المصابين بالروما تيزم، وتقدم بنظرية جديدة بأن الروماتيزم قد يكون نتيجة خطأ خلقى فى التمثيل

الغذائى . كما أثبت أيضاً أن فقر الدم عند المصابين بالروماتيزم ليس ناجماً عن نقص الحديد فى الدم ، وإنما عن نقص المواد البروتينية الحاملة للحديد ، والتى تصنع فى الكبد ، واسمها الترانسيفرين Transferrin وتحدث أيضاً عن بحث آخر له عن تغيرات تحدث فى الدم ، تساعد على التشخيص المبكر الدقيق ، وأهمها زيادة « الجاماجلوبيولين M » ، وخاصة فى الحالات التى تصيب القلب .

واستمعت بعد ذلك إلى الدكتور « تونكالى » – وكيل جامعة أنقرة – يتحدث عن وسائل التشخيص ، مؤكداً أهمية الروماتيزم كسبب للرعاف (نزيف الأنف) ، وألم البطن المتكرر ، وأن آلام المفاصل غير المصحوبة بورم وإصرار ظاهرين هى أقل العوارض أهمية فى التشخيص ، بعكس الاعتقاد السائد . فهناك آلام النمو فى الأطفال الكبار ، وجميع الحميات خاصة الأنفلونزا ، والإصابات الطفيفة غير الملحوظة .

ولفت النظر إلى أن أى سرعة ترسيب تزيد على ٦٠ فى الساعة الثانية ، تشير فى الغالب إلى احتمال الروماتيزم ، إذا ما توافقت العوارض الأخرى : وهناك عوامل تعوق ارتفاع سرعة الترسيب ، مثل هبوط القلب ، وأعراض الكبد ، وتباطؤ « الكورتيزون » .

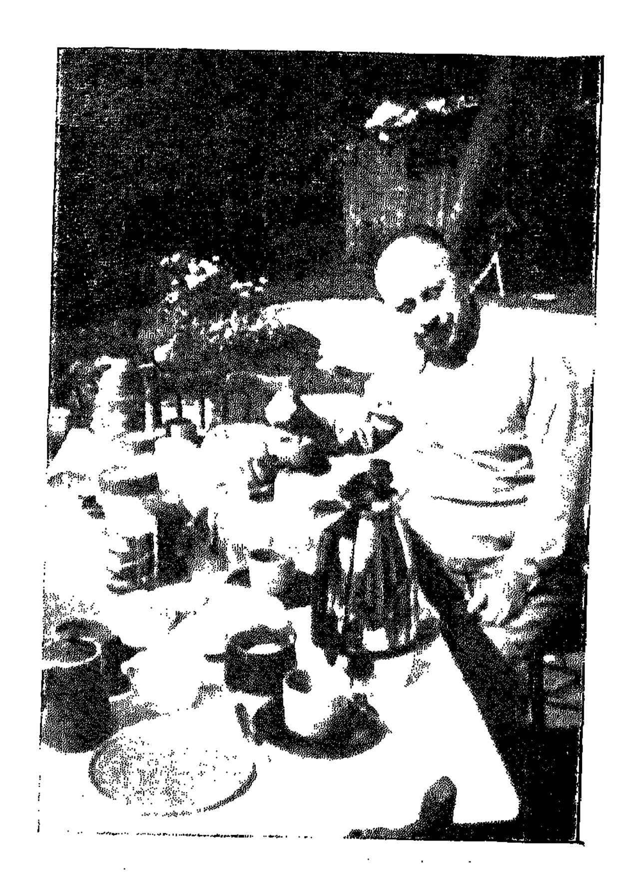
ونصح بضرورة عمل مزرعة من الزدر فى حالات إصابة الأطفال الذين يتناولون جرعات وقائية منتظمة من البنسلين ، وذلك خشية أن يكون هناك جراثيم عنقودية Staphylocoeci مفرزة لخميرة « البنسلينيز » التى توقف مفعول البنسلين . . . وفى هذه الحالة تعالج هذه الجراثيم

مضادات حيوية أخرى . مثل « الاريتروميسين » Erythromycin و « البروستافيلين » ، والديكلوسيل » Diclocil . وهكذا تجولنا خلال ساعتين مركزتين فى آفاق عالية من البحث وراء أسرار هذا المرض اللعين وهو الذى يقولون عنه إنه يلعق المفاصل ولكن يعض القلب شأنه شأن الأفعى الملساء .

* * *

وأخيراً . من حق على نفسى — وأنا الذى أكتب كل هذه السطور — أن أخصص بضعة منها للبحث الذى ألقيته فى نفس المؤتمر ، وهو عن « أنيميا البحر المتوسط » . التى لم أمل البحث وراء طلاسمها ، منذ اكتشفت الحالة الأولى فى مصر عام ١٩٣٨ . وكنت ألقى فى كل المؤتمرات — التى حضرتها — البحث تلو البحث . وتدرّجت معها خطوة خطوة ، وهى تزيد على الأيام وضوحاً . . . بل غموضاً كذلك هداها الله لنا ، حتى تستسلم رافعة الراية البيضاء . بعد أن قضيت أعواماً طويلة أبحث وراءها مع زملائى « ممدوح جبر » و « نوال مختار » و « أنيسة الحفنى » . . . وكان البحث هذه المرة عن : النتائج التى يؤدى إليها إزالة الطحال المتضخم ، فى هذا النوع من فقر الدم .

وبحث هذه الجولة يتلخص فى المقارنة بين عمر كرويات الدم الحمراء ، قبل وبعد عملية إزالة الطحال . . وكذلك مقدار الحاجة إلى عملية نقل الدم بعد الجراحة وقبلها . فقد وجدنا أن « الهيموجلوبين » — فى الحالات الشديدة — يتراوح بين ٤ و ٦ جرامات فى المائة ، وأن الحاجة تدعو إلى



المؤلف فى إحدى ضواحى (هامبورج)
يتمتع بشمس الصباح فى منزل ريفى

إجراء نقل دم مرة أو مرتين فى الشهر ، على الأقل ، ليثبت عند هذا المستوى . أما بعد إزالة الطحال ، فقد وجدنا أن المدة بين عمليات نقل الدم تزيد إلى شهرين أو ثلاثة ، بل إن حالتين — من الحالات التى أجرينا عليها البحث — لم تحتاجا إلى نقل دم ، خلال ٨ أشهر بعد العملية ، كما زاد عمر الكرية الحمراء زيادة ملحوظة بعد العملية .

وقد استخلصنا من هذا أن الطحال المتضخم يزيد من شدة « الأنيميا » بطرق عدة ، فهو يلتهم الكريات التهاماً ، يملأ بها جيوبه ، ليزيد من ضخامته . . . أو أنه قد يحطمها دون رحمة ، ثم ينبذها مع الحديد المتخلف منها ، فتتركز فى خلايا الجسم الحيوية ، مثل القلب والكبد ونخاع العظام ، فيرهقها . . . أو يتضخم القلب والكبد ، ويعجز النخاع عن العمل ، وهو المعمل الهام فى تصنيع الكريات الحمراء — فتزيد الحالة سوءاً . لذا كان من أهم وسائل العلاج التى أجريناها فى بحث سابق — منذ خمس سنوات — هو حقن الطفل بمادة « الديسفرال » Desferal التى تحول دون ترسيب الحديد فى أجزاء الجسم المختلفة . ولقد ثبت أن هذا العقار يجب حقنه أيضاً مع كل عملية نقل الدم ، لأن الذى يصيب دم الطفل ، يحدث أيضاً لدم المتطوّع فيترسب مزيد من الحديد فى الخلايا المرهقة بشحنتها .

ويكفينا هذا القدر عن مؤتمر أنقرة ، فمن المستحيل تلخيص مئات الأبحاث عالية المستوى ، التى ألقيت هناك . . .

« أنيميا البحر المتوسط » فى مؤتمر طهران

كنا على موعد مع طهران هذا العام لحضور مؤتمر الطفولة الإقليمى السابع . وصادف موعد انعقاده عودة العلاقات الدبلوماسية بين جمهورية مصر العربية وإيران ، فوجدنا عند وصولنا جواً مليئاً بالمحبة وروح الزمالة الحقة . وما أبدع أن يسود الوئام الشعوب المتجاورة ! .

لقد رأينا شعباً متمديناً ، ومدينة — وهى طهران — تعتبر صورة مشرفة للمدنية الشرقية التى امتزجت فى انسجام وتوافق بكل ما فى المدنية الغربية من ميزات .

وأنا الآن — إذ أسرد ملاحظاتى عن أحداث المؤتمرات العلمية — سأقتصر على ما قلته بنفسى ، فأنا به كفيل وعن كل كلمة مسئول ، وسوف أتكلم عن كل ما أعتقده طريفاً مما قاله زملاء من غير بلدى ، تاركاً لكل زميل تشرف بتمثيل مصر أن يسرد بحثه مفصلا ، عله يفيد أفراد الشعب من الأطباء ومن غير الأطباء ، ولمثل هذا فليتنافس المتنافسون.

كان حديثى فى المؤتمر يشمل زاوية غير مظلمة عن عرض « التلاسيميا » أو « أنيميا البحر المتوسط » ، وهى التى مضيت فى البحث ، عما خفى منها ، منذ اكتشفت الحالة الأولى فى الجمهورية فى أواخر عام ١٩٣٧ . . . وكانت تلك الحالة فى طفلة يونانية أرسلها المرحوم الدكتور « على باشا إبراهيم »

بخطاب توصية إلى المرحوم الدكتور « إبراهيم شرف باشا » ، الذى حوّلها بدوره إلىّ . . . فقد كنت لتوّى عائداً من بعثة التخصّص فى « أنيميا الأطفال » فى إنجلترا . فأدركت فى الحال — ودون جهد — وأنا أتسلم الطفلة وخطاب التوصية من والدها اليونانى ، أنها أول حالة من مرض « التلاسيميا » اكتشفت فى مصر . . فقد راعنى وجهها « المنجولى » ، وصفرة جلدها الشديدة ، حتى إننى بادرت بدسّ يدى تحت ملابسها الداخلية ، وهى واقفة ، لأتأكد من وجود الطحال المتضخم ، الذى يعتبر من أهم مميزات المرض .

وكنا بعد واقفين فى ردهة المستشفى المؤدية إلى المعمل ، فأخذتها — وأنا جد مغتبط — إلى رئيس المعمل الدكتور « على عمر » وأخذنا عينات من دمها . وكنت أتمتم لزميلى — طيلة الوقت — أن هذه أول حالة من حالات « أنيميا كولى » — وكانت تسمى بهذا الاسم إذ ذاك Coley's anaemia — فى مصر .

وأثبت الفحص المعملى صدق حدسنا ، فكانت فرحتنا بها كبيرة ، والتقطنا صوراً بالأشعة للجهاز العظمى للطفلة سواء الجمجمة ، وأطراف العظام الطويلة ، واليدين والأصابع ، فوجدنا بها كل مقوّمات التشخيص الصحيح لهذه الحالات .

وبدأت هذه الحالة « مدرسة الأنيميا » فى قسم الأطفال ، وأصبح اكتشاف أمثالها سهلا فى الأطفال المصريين ، وسهل تشخيصها الإكلينيكى فى جميع المستويات التعليمية ، وأصبح طالب البكالوريوس قادراً على

تشخيصها فى سهولة ويسر ، إذا عرضت عليه فى الامتحان . . . بعد أن كان يكتنفها الغموض القاتل ، وكانت تختفى وراءها تشخيصات شاع استعمالها فى أيام شبابنا ، مثل تضخم الطحال المصرى . .

* * *

ولقد أصبحت هذه « الأنيميا » (كولى) موضع تدليل الأخصائيين فى أمراض الدم فى مختلف أنحاء العالم ، فقسموها إلى نوعين : العظمى Minor والصغرى Major ، وذلك حسب شدة الأعراض ، ونسبة «الهيموجلوبين » الجنينى ، وهو الذى يختفى عادة من دم الطفل الطبيعى بعد أسابيع قلائل من ولادته ، ولكنه فى « أنيميا البحر المتوسط» يوجد بنسبة عالية — قد تصل إلى ٦٠ فى المائة طوال حياة المريض .

وتكوّنت نواة من الباحثين المصريين لسبرغور هذا المرض ، تضمنى والدكاترة « ممدوح جبر» و « نوال مختار» و « أنيسة الحفنى » . وقد بلغنا فى أبحاثنا شأواً لا بأس به ، لفت الأنظار إلى درجة أن معهد الأبحاث الأهلى بواشنطن قرر لنا منحة سنوية ، خلال سبع السنوات الأخيرة ، مكنتنا من تكوين وحدة لأمراض الدم كاملة الاستعداد بالأجهزة الحديثة ، فاستطعنا بالمثابرة والدأب أن نجعلها أحد المراجع العالمية فى مرض «التلاسيميا» وغيره من أنواع فقر الدم فى الأطفال المصريين . ولكن متابعتنا لأنيميا البحر المتوسط — أو « التلاسيميا » أو مرض « كولى » — كانت — هدفنا الأول ، وكنا نهادنها أحياناً لنطرق بحثاً فى مرض جديد ، ولكننا كنا نفبق فجأة ، ونقول : « أين ذهب ملك الجرائم ؟ . . » ونعود ثانية لتقصى

ما غمض من أحوال غريمنا الأول .

وتساءلنا ذات يوم ، مع السائلين من جميع أنحاء العالم ، ما هو السلاح القاتل الكامن فى هذا المرض الذى يلازم الطفل وهو جنين ، ويرافقه حتى يقضى عليه بعد سنوات قد تطول إلى الثلاثين عداً ، كما حدث فى بعض الحالات التى تضمنتها مجموعتنا الكبيرة . . . لقد اعتدنا أن نوالى الطفل بعمليات نقل الدم المتوالية ، كلما اشتدت حدة المرض. وجربنا عملية إزالة الطحال المتضخم فى كثير من الحالات ، وساعدنا فى هذا المجال الدكتور « عادل لطفى » أستاذ جراحة الأطفال المساعد بمستشفى المنيرة الجامعى . وتوصلنا إلى نتائج مشجعة ، أهمها أن الحاجة إلى نقل الدم تصبح بعد الجراحة أقل منها قبلها ، ولكن حالة ذوبان الكريات الحمراء ظلت مستمرة . . . بل إن الدم الذى نحقنه فى وريد المريض ، لإنقاذه من النكسات الحادة ، كان يتحلل هو الآخر ، ويترسب الحديد الناتج عن هذه العملية المعقدة فى أنسجة الأعضاء الحيوية : كالقلب والكبد والبنكرياس ، فأنت إذا أجريت فحصاً بالأشعة للقلب ، وجدته متضخماً غاية التضخم ، وإذا جسست الكبد بيدك الحانية ، وجدته متليفاً Cirrhosis . وناهيك بغدة البنكرياس وما يجرى بها من ترسب الحديد (الهيموسيدرين) فى جزيرات « لانجهام » ، مما قد يعرض المريض للإصابة بالبول السكرى ، كما حدث فى بعض الحالات فى مجموعتنا .

* * *

هرش علماء الكيمياء جباههم النيرة باحثين عن عقار يشد الحديد

إليه ، ويفرزه معه فى البول ، وبذا يحول دون ترسيبه فى الأنسجة الحيوية . وقد نجحت شركة (سيبا) فى اكتشاف « الديسفرال » ، وجربنا العقار الساحر الجديد : ممدوح جبر ، وأنيسة الحفنى ، ونوال مختار ، وأنا ، فى ١٣ حالة ، بحقنة فى العضل أو الوريد ، بمقدار جرام واحد فى اليوم ، فوجدنا زيادة فى إفراز الحديد فى البول قد تزيد بما يصل إلى أربعة عشر ضعفاً عن الحالات التى لا تتناول العقار على أنه يجب الاستمرار دون انقطاع فى إعطاء حقنة — مرتين فى الأسبوع على الأقل — حتى نضمن مفعوله فى وقف تدمير المريض . ويجب أيضاً حقنه مع كل عملية نقل دم إذا دعت الحاجة إليها .

وعقار « الدسفرال » غالى الثمن ، ولو أنه مثالى فى نتائجه ، من حيث نزح الحديد المتراكم فى جسم المريض ، فيريح الخلايا من عبء ثقيل هى فى غنى عنه . . . فهاهو القلب قد استراح فانكمش بعد تضخم ، والكبد أيضاً عاد إلى حالته الطبيعية بعد أن كان مهدداً بالتليف الأبدى والبنكرياس ، ماذا دهاها ؟ .

لقد اكتشفنا فى مجموعتنا حالتين مصابتين بمرض البول السكرى ، مما يدل على الأثر السيئ الناتج عن ترسب الحديد فى « البنكرياس . . . » . هذه الغدة التى تعتبر المسئولة الأولى عن تمثيل « الكربوهيدرات » فى الجسم. وكان هذا الكشف حافزاً على التعمق فى هذا الاتجاه باطراد ودأب ... فلما تقدم أحد تلاميذى ، وهو الدكتور « محمود الموجى » المعيد بقسم الأطفال بكلية طب الأزهر ، بطلب أن نقترح عليه موضوع بحث لرسالة دكتوراه

فى طب الأطفال خطر لنا — الدكتور « ممدوح جبر » وأنا — أن نقترح عليه أن يجرى بحثاً عن « أبض الكربوهيدرات » (أى قدرة الجسم على التصرف فيها) فى مرض « الثلاسيميا » .

وشمر الطبيب الشاب عن ساعديه، وأفسحنا له المجال فى وحدة أمراض الدم التى أرأسها ، بكل معداتها وأجهزتها النادرة . . وتوصل بعد أبحاث طويلة إلى نتائج تغتبط لها النفس... فقد أثبت أن هناك قصوراً واضحاً فى « أبض الكربوهيدات » فى كل حالات الثلاسيميا التى كانت موضوع البحث ، إذ وجد أنه بعد تناول المريض جرعة « الجلوكوز — سواء عن طريق الفم أو الوريد — يرتفع منسوب السكر فى الدم إلى مستويات أعلى منها فى الشخص السليم ، كما يستغرق رجوعه إلى المستوى الطبيعى مدة أطول .. وهذا يتشبه تماما ما يحدث لدى مرضى البول السكرى. وقد وجد أن حقن « الأنسولين » مع « الجلوكوز » فى نفس الوقت — يؤدى إلى تحسن واضح فى الرسم البيانى ، ويعود به بسرعة إلى المستوى الطبيعى .

وقد استخلصنا من هذه النتائج أن هناك قصوراً فى إفراز « الأنسولين » من غدة « البنكرياس » المثقلة بالحديد المتراكم فى خلاياها ، وأنه يجب اعتبار الطفل مريض « الثلاسيميا » (أى أنيميا البحر المتوسط) معرضاً — إن عاجلاً أو آجلا — للإصابة بالبول السكرى ، ويجب أن يعامل على هذا الأساس من حيث نظام غذائه . . . بل يجب إعطاؤه جرعة من « الأنسولين » إذا أثبت الفحص المعملى أن هناك اضطراباً فى « الأبض الكربوهيدراتى » ، كما ذكرنا قبل بضعة أسطر .

وقد وقف بجانب الدكتور « الموجى » — وهو دائب فى هذا البحث الممتع — الأستاذ الدكتور « زكى بركات » والدكتور « خليل الديوانى » من كلية طب الأزهر .

كان هذا ملخص البحث الذى ألقيته فى مؤتمر الطفولة بطهران ، نيابة عن زملائى الأعزاء الذين كان لهم الفضل الأول ، إذ توصلوا لهذه النتائج المهمة بعد جهد لا ينكر ونتساءل بعد كل هذا ، هل حلت عقدة التلاسيميا ؟ ؟ .

فى اعتقادى أن الرحلة التى بدأتها منذ ثلاثة وثلاثين عاماً لم تنته بعد . . والذين غاصت أقدامهم فى الرمال مثلى ، وهم يتابعون القافلة بأمل الوصول إلى الواحة ذات الظل الوارف ، ينطبق عليهم قول الشاعر :

أكلما راح قيد جاء قيد ربِ أين المفـــر ؟

فنحن أمامنا كمخرج من الممر الضيق الطويل — الذى قد يؤدى إلى الشفاء الجزئى — وسائل عدة ، وهى : إزالة الطحال ، وتناول جرعة من حمض الفوليك Folic acid مدى الحياة — لعله يفيد فى تحويل إنتاج النخاع العظمى المنحرف إلى الطريق الصواب — وتناول عقار « الدسفرال » عن طريق الحقن ، وبذل الجهد لوقاية المريض من مرض البول السكرى وتليف الكبد ، وإسعافه بعملية نقل الدم كلما انتابته نكسة حادة قد تصل بمستوى « الهيموجلوبين » إلى عشرين فى المائة أو أقل . . . وبهذه الوسائل يمكن للمريض أن يعيش أى عدد من السنين قسم له الله أن يعيشها .

أنيميا الفول .. فى المكسيك

التقطنى أحد الصحفيين المنتمين إلى إحدى الدور الصحفية الكبيرة بمصر عقب عودتى من مؤتمر الطفولة الدولى الذى عقد فى المكسيك ، وأخذ يستدرجنى فى الحديث عن موضوع المحاضرة التى ألقيتها فى ذلك المؤتمر ، وكانت تتعلق بفقر الدم الحاد ، الذى يعقب تعاطى الفول — سواء المدمس منه أو الأخضر (الحراتى) أو السودانى — وغيره من البقول الشائعة كغذاء فى بلادنا وغير بلادنا . ومن عادتى أن آخذ حيطتى مع الصحفيين غير العلميين ، فلم أتردد فى الإفصاح له عن خوفى من التحريف ،لا سيما أننى موضع ثقة واسعة القاعدة مع معظم الآباء والأمهات ، وأخذت أمليه كلمة كلمة ، وراجعت معه ما كتب ، وحذرته من التحريف حتى لا يثير فزعاً بين الوالدين . ووعدنى بذلك .

لكنى فوجئت بعنوان ضخم فى الجريدة المحترمة الواسعة الانتشار ، يقول : « ٢,٨ ٪ من أطفال مصر يموتون من الفول المدمس والطعمية » ... فتملك الوهم ذهن القارئ ... بالرغم من أن الكاتب — سامحه الله — أردف يقول :

« ليس كل الأطفال طبعاً ، ولكن هذه الأنيميا الحادة تصيب الأطفال الذين ينقصهم وجود إحدى الخمائر الموجودة فى الكريات الحمراء ،

وهى سادس فوسفات الجلوكوز. . . إذ يؤدى تناول الفول المدمس والطعمية – عند هذا الصنف من الأطفال – إلى حدوث فقر دم حاد يقتل الطفل فى لحظات ، مالم يسعف بعملية نقل الدم وتعاطى مركبات الكورتيزون . . . »

ولقد ذكر الصحفى أن نسبة الأطفال المصريين المصابين بنقص هذه الخميرة تبلغ ٢,٨ ./. ، لكنه – سامحه الله – لم يذكر ما أمليته عليه ، من أن ظاهرة نقص الخميرة لا تؤدى إلى حدوث فقر الدم فى كل الحالات ، بل فى حالات خاصة فقط . .

وقامت الدنيا وقعدت ، وتوالت الاستفهامات التليفونية . . . وكانت إجابتى على جميع المستفهمات محددة ، وهى : « لا تصدقوا كل ما كتب : ففيه تحريف صحفى مبالغ فيه ، وما دام طفلكم قد تعاطى الفول المدمس – ولو مرة واحدة – دون ظهور أعراض مرضية عليه ، فلا خوف عليه إطلاقاً » .

وكان هذا الجواب مطمئناً للأغلبية الساحقة . بيد أنه كانت هناك أقلية ضئيلة ، وجهت هذا السؤال المحرج : « وإذا لم يكن طفلى الصغير قد ذاق الفول المدمس من قبل فما حكمه ؟ » .

ولقد رأيت أن ألخص – فى تفصيل واف – البحث الذى ألقيته فى المؤتمر الدولى الثانى عشر لأمراض الطفولة ، فى الساعة الخامسة والنصف من يوم الجمعة ٦ ديسمبر من عام ١٩٦٨ ، عن هذا الموضوع – ويسمى « بالفافيزم » – وعن درجة انتشاره بين الأطفال المصريين ، كنتيجة لنقص خميرة « سادس فوسفات جلوكوز » ، التى سبقت الإشارة إليها . ونبهت

إلى أن أثر نقص هذه الخميرة لا يقتصر على مسئوليته فى تحلل الكريات الحمراء فى حالات « الفافيزم » ، بل إنه يحدث أيضاً — فى بعض الحالات — اليرقان الشديد فى الطفل وأنواعاً أخرى من فقر الدم الخلقى...

وليس الفول المدمس المتهم الوحيد من أسرة البقول ، ولكن يقف معه جنباً إلى جنب فى قفص الاتهام ، متهمون آخرون مثل : البسلة ، والحمص والأسبرج ، والرمان ، والخرشوف . . . ولكن الفول المدمس يبدو فى وسطها كالقمر بين الجوارى . وقد طغت شهرته فى هذا المجال على غيره .

ولقد ثبت أن هذه الظاهرة كانت موجودة منذ أيام الفراعنة ، وأنها منتشرة فى بلاد أخرى مجاورة فى الشرقين الأوسط والأدنى .

* * *

أما الإحصائية الوحيدة التى عملت بقسم الأطفال بكلية طب جامعة القاهرة ، والتى وصلت بنا إلى رقم ٣,٣٤ فى المائة — وهو الرقم الذى أحدث الفزع الشديد بين الأمهات — فقد عملت على أساس أن عدد الحالات التى قبلت بالمستشفى للعلاج بلغ ٨٥ حالة ، خلال عام ١٩٦٧ ، من مجموع الحالات التى قبلت للعلاج من أمراض أخرى .

فالإحصائية إذن محلية جداً ، ولا يمكن أن تتخذ مقياساً ، فقد تزيد أو تنقص بقدر الحالات المثيلة ، التى تتردد على العيادات الخاصة أو المستشفيات الأخرى .

ولقد أمكن الخروج بالاستنتاجات الآتية ، من البحث الذى قمت به بالاشتراك مع الدكاترة « ممدوح جبر » و« نوال مختار » و« محمد الدالى »...

أولا : إن نقص الخميرة (سادس فوسفات الجلوكوز) لا يؤدى إلى فقر دم فى كل الحالات ، بل هناك أطفال ينقصهم وجود هذه الخميرة ، ومع هذا فإنهم لا يصابون بأية أعراض حادة عند تناول الفول المدمس وأخواته ، أو بعض الأدوية مثل «السلفا» والمركبات المضادة للملاريا مثل « الكامكوين» و«البريماكين» . ويظهر أن هناك حساسية خاصة عند بعض الأطفال ، تجعلهم أكثر قابلية لحدوث هذه « الأنيميا » المزعجة .

ثانياً : قد يحدث هذا العارض عند تناول الفول المدمس لأول مرة ، ثم لا يحدث أبداً بعد ذلك ، وكأن الأطفال يكتسبون مناعة تقيهم حدوث نوبات أخرى فى المستقبل .

ثالثاً : يندر حدوث هذه الظاهرة فى الأطفال السود . أما النوع الأبيض القوقازى (وهو اصطلاح علمى يطلق على غير السود) فهم أكثر تأثراً بهذه الظاهرة .

رابعاً : إن الأعراض تظهر ، سواء فى حالات تعاطى الفول المدمس أو الأخضر (الحراتى وهو أشدها خطراً) والفول السودانى . وكثيراً ما تعجب الأم ، وتقسم أن الفول المدمس لم يدخل جوف ابنها ، وتنسى أن هناك أنواعاً تسمى : (الأخضر) ، والسودانى الذى يحبه الأطفال حبًّا جمًّا . . . أسوة بالقردة ، والنسانيس ! !

خامساً : أكثر ما يحدث هذا المرض « الفافيزم » ، فى السنوات الأولى من العمر ، فقد وجد أن ٨٥ فى المائة — من الحالات التى

درسناها — يحدث فى السنتين الأوليين من العمر ، وأن أكبر الذين ظهرت عليهم أعراض المرض من الأطفال — لأول مرة — كانوا فى الثالثة والنصف من العمر .

سادساً : أكثر ما يحدث هذا المرض فى الأطفال الذكور ، ونادراً ما يحدث فى البنات ، إلا إذا كان بالوالد نقص فى خميرة «سادس فوسفات الجلوكوز» علاوة على نفس النقص الموجود بدم الأم ... وهذا دائم الحدوث سواء كان الطفل ذكراً أو أنثى . أى أن الوراثة تأتى عن طريق الأم ، بالرغم من أن الظاهرة أكثر حدوثاً فى الأولاد الذكور ، وإذا كان الوالد يحمل نفس فصيلة دم الأم ، فإن البنات يصبحن عرضة للمرض ، ويكون الوالد بمثابة حامل للفصيلة الوراثية دون أن يكون قد ظهرت عليه — فى أية مرحلة من عمره — أعراض ما ، نتيجة تعاطى الفول المدمس

سابعاً : يكثر حدوث هذا المرض فى أواخر الربيع وأوائل فصل الصيف ، حين يشح المحصول المحلى ، ونبدأ فى استيراد المحصول من الخارج . وعلى هذا الأساس يمكن تبرئة الفول المصرى إلى حد ما .

ثامناً : علاج هذه الحالات فى متناول كل طبيب . فالحالات الشديدة يجب إسعافها بعملية نقل الدم ، أما الحالات الخفيفة فيمكن علاجها بمركبات « الكورتيزون » ، سواء عن طريق الفم أو الحقن فى العضل .

تاسعاً : ليس معنى حدوث حالة فى أسرة ما ، أن يحرم جميع من فى المنزل من أكلة الفول الشهية . : . بل إن الطفل الذى يكون قد أصيب من قبل ، قد لا يتعرض ثانية للإصابة . وليس معنى أن يكون أحد إخوة المصاب بـ «الفافيزم» مصاباً بنقص فى الخميرة ، أنه لا بد أن يكون مصاباً بنفس الداء ! ! .

عاشراً : يجب ملاحظة أى امتقاع فى الوجه ، أو صفرة فى بياض العين ، أو دكنة فى لون البول . . . فكل هذه أعراض تنذر بأن شيئاً ما آت فى الطريق . : . وفى هذه الحالة يجب عرض الطفل على الطبيب الإخصائى :

وإياك يا صديقى الطبيب أن تعطى مريضك مركبات الحديد ، فإن هذا يعتبر خطأ علاجيًّا فاحشاً ، لأن أنسجته وخلاياه تكون قد تشبعت مقدماً بالحديد المتراكم نتيجة تحلل كريات دمه الحمراء .

مقتطفات من مؤتمر الطفولة بباكستان

احتلت أبحاث فقر الدم مكاناً هامًّا بين موضوعات المؤتمر الإفريقى الآسيوى للطفولة ، الذى عقـــد فى « كراتشى » بالباكستان ، فيما بين ٢٠ و ٢٤ فبراير من عام ١٩٦٨ . . . فكانت هناك أبحاث عن « الأنيميا الحادة » التى تنتج عن تكسر كريات الدم الحمراء فى سرعة مذهلة ، قـــد تصل بالطفل إلى حافـــة الهاوية فى بضع ساعات ، مالم يسعفه الطبيب المعالج بعملية نقل الدم وتناول مركبات « الكورتيزون » .

وعند هؤلاء الأطفال حساسية خاصة نحو الفول المدمس والبقول — وحذار من الفول السودانى و « النابت » أيضاً ، فكلها فصيلة واحدة ، ولها علاقة كبيرة ببعض مركبات السلفا — ومركبى « البريماكين » و « الكاموكين » المستعملين فى علاج الملاريا . وقد يحدث هذا النوع من فقر الدم فى أكثر من طفل فى العائلة الواحدة ، لأن عامل الوراثة هام فيه* . . .

---

* فى موضوع « مشاهدات فى مؤتمر الطفولة بأنقرة » مزيد من التفصيلات عن هذه الأنيميا » والباحثين المصريين المعنيين بها . . لذلك نقتصر هنا على ما يتجاوز هذه التفصيلات .

وقد ثبت من البحوث أن هذه « الأنيميا » ظاهرة كثيرة الحدوث في مصر . لذا يجب تنبيه الآباء والأمهات إلى النقاط التي يتكئون عليها لتجنيب أطفالهم مخاطر المرض . فمثلا إذا انتاب الطفل شحوب وجائى ، يصل — في بضع ساعات — إلى بياض ورقة النشافة ناصع كبياض ورقة « النشاف » ، فاعلم أن ناقوس الخطر قد أخذ يدق بما لا يدع مجالا للتردد في عرضه على طبيب العائلة ، الذي ينبغي عليه أن يتمعن في بضع ظواهر ، ما أسهل عليه من أن يلمحها إذا دقق الفحص ولو قليلا : وأولها : أن يفحص بياض العين للتأكد من عدم اصفرار لونه ، وأن يلاحظ الشحوب القاتل الذي ينتاب الطفل ، ودكنة لون البول بدرجة تلفت النظر ، لفرط وجود صبغة « البوروبيلنوچين » كما يميل لون البراز إلى الخضرة ، يعكس حالات الصفراء الاسندادية ، حيث يميل لونه إلى البياض . وإذا فحصنا الدم ، اكتشفنا هبوط « الهيموجلوبين » وعدد الكريات الحمراء إلى مستوى مخيف ، قد يصل بهما إلى ٢٠ في المائة أو أقل من المستوى الطبيعي ، مما يتطلب سرعة إسعاف الطفل بعملية نقل الدم وتناول مركبات «الكورتيزون» ، سواء عن طريق الفم أو حقن العضل .

وكان البحث الذي ألقاه كاتب هذه السطور عن مرض « التلاسيميا » باعثاً على المزيد من النقاش والاستفسارات ، لاسيما فيما يتعلق بعلاج هذا المرض بطريقة إزالة الطحال وإعطاء حمض « الفوليك » ونقل الدم — حينما يقتضي

الأمر — ومنع ترسيب الحديد الناتج عن تكسر الكريات الحمراء . . .

وقد يترسب الحديد فى خلايا المخ ، فينتج عن هذا أعراض عصبية قد تصل إلى حد التخلف الذهنى والتشنجات العصبية وغيرها .

ومن مميزات هذا المرض — علاوة على فقر الدم الشديد — تضخم واضح فى الطحال والكبد ، فضلا عن مميزات خاصة فى كيميائيات الدم وصور الأشعة للجمجمة والعظام عامة . وكانت معظم الحالات تشخص فيما مضى على أنها ضمن حالات تضخم الطحال المصرى . وهو تشخيص قلما نسمع عنه الآن ، لأن الحالات وزعت على تشخيصات أخرى حديثة ، بفضل تقدم وسائل التشخيص المعملى .

* * *

وقد احتلت أمراض التغذية مكانتها البارزة بين مواضيع المؤتمر ، وصال الوفد العربى فى تفاصيل مرض « الكواشيوركير » وقد أجرت المدرسة المصرية (الديوانى — شكرى — حنفى — عواد) فيه أبحاثاً عالمية . وتحدث الدكتور « فؤاد الشربينى » — نيابة عن الدكتور « ممدوح حنفى » — عن قيمة الغذاء البروتينى فى الخضراوات والبقول ، والتوصل عن طريقها إلى استحداث غذاء بروتينى يغنى عن اللحم واللبن ، مما يعود على البلاد بفوائد اقتصادية جمة . . . وهذا الغذاء مكون من خليط من الحمص والبسلة

---

* فى موضوع « أنيميا البحر المتوسط » تفصيلات وافية عن هذا المرض .

والسمسم بنسبة : ٣ : ٢ : ١ :

كما تكلم مندوب أندونيسيا الأستاذ « سودجو » وزملاؤه عن مزايا مسحوق السمك المركز ، بعد إزالة رائحة السمك منه ، بطريقة خاصة . وذلك بإضافته إلى مسحوق الأرز . وقد جرب استعماله فى اثنى عشر طفلا ، استجاب عشرة منهم بطريقة مرضية ، واضطر الباحثون إلى وقف استعماله فى حالتين لإصابتهما بالإسهال . كذلك ألقى الدكتور « مقصود » على الباكستانى بحثاً عن أمثال هذه المحاولات التى يجب أن تؤخذ بجدية فى البلاد النامية والمتخلفة ، حيث يصعب على الفرد العادى أن يحصل على حاجته اليومية من البروتينات من اللبن واللحوم . فيجب اللجوء إلى أمثال هذه الأغذية الرخيصة الثمن ، التى تقى الطفل المواطن من التعرض لأمراض سوء التغذية وأخصها مرض « الكواشيوكور » .

* * *

كذلك أولى المؤتمر النزلات المعوية اهتماماً ملحوظاً . . . ولعل أكثرها طرافة هو البحث الذى قام به الدكتور « حامد خان » وزميلته « زبيدة حسن » عن استعمال أحد مشتقات البنسلين — وهو الأمبيسلين — فى علاج النزلات المعوية ، وخاصة فى الحالات المتسببة عن ميكروبات « الشيجلا » ، و « باسل » القولون (شفاء ١٠٠ ٪ من الحالات) و « السلمونيلا » (٦٣ ٪) .

ونوقشت فى المؤتمر موضوعات هامة ، مثل الحمى الروماتيزمية وأثر الوقاية منها . . . ولكنها تؤكد علاقاتها بالميكروبات السبحية فى الجلد

واللوزتين ، ومنع النكسات بحقن البنسلين الطويل الأجل :

كذلك نوقشت مشاكل الطفل المتخلف عقليًّا ، وقد استعرض أنواعها وأسبابها الدكتور « ضيف » — من كلية طب لاهورى — وبحث عن التهاب الكلية المزمن ، ألقاه الدكتور « محمد إبراهيم مأمون » الباكستانى ، وقد ركز على العلاج بمستحضر « الكورتيزون » — وهو الشائع فى كل مكان — ونصح بالعلاج بجرعات كبيرة فى الأسبوعين الأولين ، تخفض بعدها الجرعة . . . مع الاستمرار على هذا المنوال مدة تتراوح من ثلاثة إلى خمسة أشهر . . . ونوقش علاج الالتهاب السحائى الحاد بجرعات كبيرة من حقن « البنسلين » بمقدار جرام واحد ، أو حقن السلفا بمقدار جرام واحد ، أو أقراصها . . .

والحديث عن الموضوعات التى نوقشت قد يطول ، ولكن يجب ألا ينسينا ذلك الحفاوة البالغة والحب الأكيد ، اللذين أحاط بهما الباكستانيون إخوانهم أعضاء وفد جمهورية مصر العربية . . .

* * *

لقطات علمية فى مؤتمر الطفولة بالمكسيك

عقد مؤتمر الطفولة الدولى الثانى عشر فى المكسيك ، فى الفترة ما بين ١ و ٧ ديسمبر ١٩٦٨ : وقد اعتدت أن أحضر هذه المؤتمرات الدولية منذ عام ١٩٥٦ ، عندما عقد فى « كوبنهاجن » ، عاصمة الدنمارك — ثم أخذ يتنقل بى من « مونتريال » ، عاصمة كندا سنة ١٩٥٦ إلى « لشبونة » عاصمة البرتغال عام ١٩٦٢ . . . ثم « طوكيو » فى عام ١٩٦٥ ، وأخيراً حملنا إلى بلاد المكسيك ، حيث نعمنا بجو صيفى معتدل . . .

كان الطريق إلى « المكسيك » طويلا جدًّا ، ولكنى أحبّ أن أحرّض الزملاء دائماً على اللحاق بقافلة العلم ، مهما تبعد الدار أو يشط المزار ، وأن ينهلوا من منابعها .. . وإلّا فالويل لهم من الصدأ إذا تراكم على تلافيف أمخاخهم ! . . . لقد قطعت المسافة بين القاهرة وبروكسيل فى سبع ساعات مارًّا بأثينا وفيينا ، وتلكأت يومين فى بروكسيل بغرض التقاط الأنفاس ، قبل استئناف رحلتى إلى « مونتريال » بكندا عبر الأطلسى ، على ارتفاع ثلاثة وثلاثين ألف قدم فوق سطح البحر . . . وقد استغرق هذا العبور ثمانى ساعات . وبعد استراحة قصيرة فى المطار ، استأنفنا رحلتنا إلى المكسيك مارّين بسماء الولايات المتحدة الأمريكية لمدة ثمانى ساعات طوال ، تعرضنا خلالها لمطبات هوائية ، كانت الطائرة تهبط خلالها عدداً من الأمتار الله أعلم بها ، لأننا كنا نغمض أعيننا ، ونلقى رؤوسنا إلى الوراء ، حتى تمر الوعكة الطارئة بسلام :

وعندما هبطت الطائرة على أرض مطار المكسيك ، فى ساعة متأخرة من ليلة ٣٠ نوفمبر ١٩٦٨ ، تناسيت كل المتاعب التى صادفتنى خلا ل هذه الرحلة المضنية . وما دامت الطائرة قد لمست الأرض ، فأنت فى الأمان على أية حال . وتجيش فى صدرك الآمال بأن الغد قريب ، وسوف ترى بلاداً جديدة لها من مفاتنها الجغرافية الجذابة ما تكتحل به عيناك ، فتضيف إلى رصيدك من الذكريات شحنة جديدة . . .

* * *

وكان افتتاح المؤتمر فى صباح يوم أول ديسمبر ، بالمبنى الفاخر الخاص بالمؤتمرات ، والذى لم أر له مثيلا فى أى مكان آخر فى العالم . فالقاعة الكبرى فيه تتسع لـ ١٤ آلاف مستمع ، وبها من المجهزات الصوتية ما يسهل على كل الموجودين فى مختلف الصفوف — سواء الأولى أو الأخيرة — الاستماع إما بالسماعات الخاصة المثبتة على كل كرسى دون استثناء ، أو بفضل مكبرات الصوت التى وزّعت فى إتقان ، مقرّبة إلى طبلة أذنك كل مناقشات الجلسات .

ورأس الحفل رئيس الجمهورية . . . ولكن الذى لفت الأنظار تمثل فى تلك الفرقة الموسيقية المكوّنة من أطباء من ألمانيا الغربية ، وقد وقفوا وهم يحملون مختلف الآلات الموسيقية ، يعزفون المقطوعات الكلاسيكية معلنين بذلك أنه ليس عيباً أن يكون الطبيب هاوياً فى أى اتجاه لتسرية إرهاق هذه المهنة التى ابتلى بها كل من اختارها كوسيلة للاستمرار فى الحياة .

حضر هذا المؤتمر خمسة آلاف وخمسمائة عضو ، بين طبيب ومرافق ،

وتلى فيه ثمانمائة بحث فى مختلف فروع طب الأطفال ، ورّعت على ثمان قاعات كاملة الاستعداد . وكانت أبحاث المؤتمر تشمل أمراض الدم وسوء التغذية ، وأمراض الوراثة ، والمشاكل النفسية للأطفال وخاصة ما ينشأ عن الخلافات المنزلية بين الأبوين . . . فإن الجو العائلى المضطرب : لا يلبث أن يؤدى بالطفل إلى الانحراف ، فيسرق ويكذب ويهرب من بيته ، وكان كل التحذير ينصبّ على تجنب إظهار عيوبنا ومواطن الضعف فى علاقاتنا أمام الطفل ، فهو مهما صغرت سنه دقيق الملاحظة ، سريع التقليد ، بالرغم مما يبدو عليه من عدم الاكتراث .

وقد يهم القارئ أن يعلم شيئاً عما قيل عن الطعوم الواقية ، وماذا جدّ فيها فى السنوات الأخيرة . . . ولن أنسى كيف حذّر « كروجمان » من شدة خطورة الحصبة الألمانية ، وخاصة إذا أصيبت بها الأم الحامل فى الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل . فإن هذا يعرض الجنين لأن يولد مشوهاً أو مصاباً بضعف فى القوى العقلية أو بتشوهات فى القلب ، وفى بعض الحالات يصاب بالكاتاركت أو « الجلوكوما » فى إحدى العينين أو كليهما . وتقدم الدكتور « كروجمان » بما يثبت أن الطفل قد يولد وبه إصابة الحصبة الألمانية فيتغلغل « الفيروس » فى كل خلاياه ، وتجده فى الكبد مسبباً اليرقان ، وفى الأمعاء وإفرازاتها ، فتنتقل العدوى للمخالطين كالممرضات والأقارب والزائرين ، وقد يصل إلى المخ والرئتين والبنكرياس ونخاع العظام ، التى تبدو شديدة الكثافة فى الأشعة السينية . وقد تجد تضخماً فى الكبد والطحال ويصبح التشخيص واضحاً إذا اكتشفنا الفيروس فى نخاع العظم أو فى

فتحة الشرج :

وقد أصبح الطعم المضاد للحصبة الألمانية أمراً ضرورياً ... ويجب أن يحقن به كل طفل ، وكل سيدة فى سن الحمل والولادة . . .

وكان « سابين » مكتشف طعم شلل الأطفال رئيس هذه الجلسة ، فكان فى إدارته لها ولمناقشاتها متمكناً فذاً ، يضفى عليه شعره الأبيض وتقاطيعه الهادئة — هدوء الواثق — وقاراً بالرغم من عنجهيته فى التعايقات التى لم تكن تخلو من سخرية ، ولا عجب فهو الآن جالس على قمة الجبل العالى ، بفضل الطعم المضاد لشلل الأطفال الذى يحمل اسمه . . . ولقد سئل عن سبب فشل الطعم فى بعض الحالات ، فأجاب بأن وجود مادة الانترفيرون Interferon — التى تفرزها بعض جراثيم الأمعاء ، فى البلدان التى تكثر فيها النزلات المعوية — أو إعطاء الطعم فى ظروف غير مناسبة ، مثل وجود ارتفاع فى الحرارة ، أو حالة إسهال لدى الطفل ، مما يحول دون إنتاج الأجسام المضادة ، فيصبح الطعم وكأن لم يكن .

وجاء دور صديقى الكبير العالم الروسى « سميرودنتسف » ، وهو الخبير الذى عاون على إنتاج طعم شلل الأطفال فى معامل المصل واللقاح بجمهورية مصر العربية ... وقد نشأت بيننا علاقة وثيقة خلال زياراته العديدة لبلادنا وكانت محاضرته عن الطعم المضاد للغدة النكفية ، أو النكاف الوبائى . . .

ولكن القنبلة التى ألقاها هذا العالم الروسى ، تمثلت فى نجاحه فى تحضير الطعم المثلث ، الذى يولد مناعة ضد ثلاثة أمراض من أهم أمراض الطفولة ، وهى : الحصبة العادية ، والحصبة الألمانية ، والنكاف الوبائى

وكلنا نعرف الحصبة العادية ومضايقاتها ومضاعفاتها ، من التهابات فى المخ ، والأذن ، والعينين ، والرئتين . والجهاز الهضمى . . . والحصبة الألمانية هى الأخرى تفتك بالجنين فى الأم الحامل ، كما أسلفنا ، لذا يتحتم إجهاض الأم الحامل إذا أصيبت بها فى الشهور الثلاثة الأولى من الحمل . أما فى المريض نفسه ، فمن أهم أخطارها وصول فيروسها إلى الجهاز العصبى ، محدثة التهاباً فى المخ قد يؤدى إلى شلل ، أو قصور فى القوى العقلية ، أو الوفاة . . . إذا وصلت إلى المراكز الحيوية من المخ .

كذلك نحن نعرف مضاعفات الغدة النكفية ، وأشهرها التهابات الأعضاء التناسلية فى الذكر والأنثى ، مما قد يؤدى إلى العقم ... ولا يستبعد أن تصل « الفيروسات » إلى المخ لتلعب دورها هناك – مثل أختها الحصبة بنوعيها – وإلى غدة البنكرياس ، مما يؤدى إلى آلام حادة بالبطن وقىء ، وأعراض صدمة شديدة . . . وقد يظهر السكر فى البول ، والدهنيات فى البراز ، وغير هذا من الدلائل المعملية .

وتقابلت مع صديقى الأستاذ الروسى «سميرو دنتسيف» خارج القاعة بعد انتهاء الاجتماع ، فأخذنى بالأحضان كعادته ، ثم تأبط كل منا ذراع الآخر ، وسرنا الهوينا نحو عربات « الأوتوبيس » التى أعدتها هيئة المؤتمر لتنقلنا بين الفندق ومبنى المؤتمر . ولم يكن لنا حديث طول الطريق إلا عن هذا الطعم المثلث ، فقال إن نصف سنتيمتر مكعب من هذا الطعم كاف – إذا حقنت تحت الجلد مرة واحدة لا تتكرر – لإعطاء الطفل والشخص البالغ مناعة ضد الأمراض الثلاثة . . .

قصة طعم شلل الأطفال

هل يعود طعم سولك إلى الظهور ؟

كان مرض شلل الأطفال هو الغول الأكبر الذى كان يفزع من ذكر اسمه الآباء والأمهات والأطباء على حد سواء ، حتى إذا ما حل عام ١٩٥٤ دقت أجراس الفرح منبهة بأن الطعم الواقى قد نضج أخيراً وبدا كالبدر بين الجوارى الواقفات ، وأصبح اسم مكتشفه (سولك) على كل لسان وكأنه صانع المعجزات ولا عجب فكم أطاح هذا المرض برؤوس عزيزة غالية ، وكنا نحن الأطباء نشهد الطفل الضحية وهو متعلق بالعشب الأخضر النامى على حافة الهاوية التى تؤدى إلى عمق سحيق ونحن مكتوفو الأيدى لا نملك من أمرنا شيئاً .

وأخذت أحاول لفت الأنظار إلى أهمية هذا المرض وضرورة استيراد الطعم المضاد لما كنت أشاهده فى مصر يومياً من مآسى هذا المرض الوبيل .

ولما ذهبت إلى كوبنهاجن فى شهر أغسطس سنة ١٩٥٦ أثناء انعقاد المؤتمر الدولى الثامن لأمراض الأطفال استرعت نظرى اللافتات المنتشرة فى كل مكان : فى الترام وفى الأوتوبيس والشوارع . وفيها توجيه للجمهور أن

يتوجه كل مواطن بلغت سنه الأربعين عاماً (يا إلهى ! !) إلى أقرب مكتب صحة ليحقن بالطعم المضاد لمرض شلل الأطفال ، فعجبت للشوط البعيد الذى قطعه هؤلاء القوم فى ميدان الطب الوقائى ، أى أنهم بدأوا فى تطعيم الأطفال بين السنة الأولى والخامسة ثم زحفوا تدريجيًّا حتى وصلوا إلى سن الأربعين ،وكانوا يأملون فى الوصول إلى سن الستين عام ١٩٥٧ . أى أن كل مواطن بالدنمرك سوف يصبح إذ ذاك فى مأمن من هذا المرض .

كل هذا كان يحدث ونحن نغط فى سبات عميق بينما كانت الإصابات تتراكم أمام أعيننا فى العيادات الخاصة والمستشفيات. ونحن مكتوفو الأيدى ننظر بصبر فارغ إلى فتات المائدة يأتينا من الغرب . وهو فتات قيمته كالذهب الإبريز .

ثم كان صيف عام ١٩٥٧ عندما سافرت إلى جنيف لحضور مؤتمر شلل الأطفال الدولى الرابع بعد أن تركت ورائى فى مصر أشلاء متناثرة تنشد الخلاص فى غير أمل . وضحايا أودعتهم بيدى فى الرئة الحديدية لأنقذ منهم الأنفاس الأخيرة . وكانت المعركة فى مصر على أشدها وجرثومة الشلل اليد العليا تطيح بالأجسام وتقطع الأوصال فى سهولة ويسر ، وكأنها معركة من جانب واحد ، وكنت على يقين بأن السلاح الوحيد الذى يمكننا أن نرد به كيد هذه الجرثومة إلى نحرها هو الطعم المضاد الذى أفاد منه كل العالم المتمدين إلا مصر ، وتخيلت إذ ذاك كيف أن الولايات المتحدة قد خططت لإبادة المرض كلية قبل نهاية ١٩٥٨ وقد نجحت فى ذلك .

ودخلنا قاعة المحاضرات وبدأت كلمات رؤساء وفود الدول ، وكان لى شرف إلقاء كلمة وفد مصر عن مشاكل شلل الأطفال فى بلادنا ، وكان فيها إحصائيات لفتت النظر . وكان وفد مصر مكوناً من الدكتور شفيق عباسي ومنى .

ثم تكلم جوناس سولك صاحب الطعم المسمى باسمه. فقوبل بهتاف وتصفيق بعد الانتهاء من كلمته . وأرى أن القارئ يريد منى أن أصف له هذا الرجل الذى هز العالم باكتشافه . إنه رجل ضئيل الجسم يعلو وجهه الشاب المنسق منظار أنيق ، أسود الشعر شرقى السمات ، فى نظراته عمق وفى كل كلمة ينطقها معنى ، حتى ليصعب عليك أحياناً تتبعه مالم تنصت إنصاتًا تاماً ، يوجد منه فى كل بلد مئات بل آلاف ــ ولكن الفرصة الكبيرة التى تأتى مرة فى العمر وقد لا تتكرر أبداً ــ سنحت له بفضل الإخلاص فى العمل والمثابرة بلا كلال فى معمل مجهز تمده الدولة بملايين الدولارات ، لا تقف فى سبيله عقبة وما أكثر العقبات التى تعترض الباحث نحو أفق منشود ، منها ما هو مادى وما هو أدبى أو نفسى ، والويل للعالم من ضيق ذات اليد وعدم الاستقرار النفسى .

وفى المساء نظمت هيئة المؤتمر رحلة فى بحيرة جنيف ومدت على الباخرتين أسمطة فيها ما لذ وطاب من أكل وشراب ، وكان الجو بارداً فقبعت أنا والدكتور شفيق عباسى فى ركن دافئ ننتفض من البرد بينما رقص الجميع من شيوخ وشباب . وقد راقبت الدكتور سابين العظيم صاحب فكرة الطعم عن طريق الفم وهو لا ينقطع عن الرقص طوال الرحلة فى نشاط

كبير دون أن يلهث وكأنه ابن العشرين مع أنه جاوز الستين ، فهمس الدكتور عباسى فى أذنى قائلا : لا عجب إذا استيقظ هذا الرجل فى صباح اليوم التالى نشيطاً مكبًّا على البحث وراء المجهول فى نشاط ومثابرة .

واختتم المؤتمر جلساته فى الساعة الرابعة من مساء اليوم الرابع :

ثم نهض رئيس الجلسة وقال فى تأكيد وثقة : إن معركة لا شك فيها قد كسبناها ضد هذه الجرثومة بفضل طعم سولك . ويجب ألا يعاق بأذهاننا بعض حوادث مؤسفة حدثت فى بدء استعماله ، فكلنا يذكر الكارثة التى حدثت فى (لوبيك) عند بداية استعمال طعم البى سى جى المضاد للدرن : ولكن هناك بعض نقط يجب أن يوضحها البحث فى المستقبل وهى مدة مفعول هذا الدواء ، والكمية التى تحقن ، وعدد الحقن ، وتكرار الحقن لغرض استمرار المناعة والبحث وراء الفيروسات المشابهة لفيروس الشلل مثل الكوكساكى والأيكو ، فقد أثبتت الأيام أن كثيراً من الحالات التى تشخص على أنها شلل أطفال تنتج عن إصابة المريض بالفيروسات الأخرى المشابهة : ثم قال إننا طرقنا بأبحاث شلل الأطفال بعض الزوايا التى قد تفيد فى البحث وراء سبب السرطان والتى قد تكون بداية أفق جديد أو طريق جديد .

م دق على المكتب معلناً انتهاء المؤتمر ، فتنفسنا الصعداء ، فليست المؤتمرات ملهاة ، إنها إرهاق ومسئولية وعذاب :

وبعد هذا المؤتمر اهتمت الدوائر الحكومية باستيراد الطعم المضاد واتخذت التدابير فى سبيل تعميمه حتى ظهر الحجم الجديد ، طعم سابين الذى يعطى بطريق الفم ، وبزغ فى لماعية كبيرة حتى كاد يكسف طعم ساولك الذى يعطى عن طريق الحقن .

ولما سافرت إلى كوبنهاجن لحضور المؤتمر الدولى الخامس لشلل الأطفال كانت الأبحاث بخصوص فاعليته قد ثبتت تماماً وسار الطعمان جنباً إلى جنب فى سبيل خير الإنسانية جمعاء والطفولة بصفة خاصة .

كان المؤتمر الدولى الخامس لشلل الأطفال هو خاتم المؤتمرات الخاصة بشلل الأطفال .

ولقد لاحظت عندما حضرت المؤتمر الرابع لشلل الأطفال فى جنيف عام ١٩٥٧ ، أنه لم يكن هناك روسى واحد بين العلماء الذين اشتركوا فى البحث والمناقشة . ولم يذكر اسم روسيا إلا مرة واحدة عندما ذكر أحد الحاضرين أن الروس ادعوا اكتشاف نوع رابع من فيروس شلل الأطفال ، ثم أثبت البحث بعد هذا أنه فيروس نوع آخر هو كوكساكى ب ٧ ، وقد اعترف الروس بالخطأ الذى وقعوا فيه فعلا فى المؤتمر الحالى الذى كان اليوم الثانى فيه يوم العلماء الروس بحق ، إذ تغلغلوا فى آفاق البحث بما لا يترك زيادة لمستزيد : وانتصروا على طول الخط فى أبحاث طعم الفم (سابين كوكس كوبروفسكى) وكان علماء الغرب يصفقون لهم محيين معجبين ووضعوهم فى قلوبهم والتهموهم بعيونهم . فليس للسياسة مجال بين العلماء .

كان اليوم الأول يوم العلماء الإنجليز والأمريكان لا ينازعهم فيه منازع ، ففى الصباح كانت الموضوعات كلها تخلب اللب وتقصم الظهر ، لعلو كعبها ، فقد تغلغلت فى حياة الفيروس الخاصة وأظهرت لنا كيف تعيش وكيف تتوالد : فهى كائن له رأس وذنب وللذنب زعانف كأنها أشواك السمكة . وفى وسطه قناة تمكنوا من حقن مادة خلالها بإبرة خاصة وهى الكائن الذى لا يراه المجهر العادى ويظهرها بوضوح المجهر الإلكترونى ؛ وإنى مازلت أحاول تخيل قطر هذه الإبرة التى يمكنها أن تدخل هذا الذى لا تراه العين ولا يدركه المجهر العادى .

صال الدكتور سيدنى فى هذا المجال فى تؤدة وثقة شأن أبناء الإنجليز . ثم أخلى مكانه لزميليه هيرست ودليكو الأمريكيين ، ثم ليفون الفرنسى ، وتكلموا عن تأثير عوامل خاصة تؤثر على حيوية الفيروس ومقاومته لمفعول الميسينات ، ومركبات السلفدريل وارتفاع حرارة الجسم وزيادة حموضة الدم على نمو الفيروس ثم تدخلوا فى هوادة فى موضوع الحمض النووى (حمض النيوكوليك) ذاكرين أنه أهم عنصر فى الفيروس من حيث نقله من خلية أخرى . وبرز النجم الجديد المسمى (حامض الريبونيوكليك) وأثبت «دلبوكو» وهو العالم بحق أن كل جزء منه يتكون من سبعة آلاف جزء وعلى أجنحة هذه الجزئيات تنتقل إشارات العدوى على مختلف المستويات فى الجهاز العصبى .

وانفجرت الوقائع من فيه وممن تلوه مثل العلماء شيفر وكولنر وستوكز ونيفين ، فألقوا القول غير جزاف مفندين مفسرين مرتفعين بالعلم إلى السماكين .

والكل منا مرهف السمع ثابت البصر فى غير مال زائغة أحياناً على ما يثبتونه لحظات على شاشة بيضاء ، وكنت أغبطها لسعادتها وهى التى تتلقى الصفحات الرقيقة يصوبها نحوها من بعد فانوس كهربائى دقيق يشرف عليه متخصص لم يخطئ أبداً خلال الأيام الثلاثة الطوال .

وفى آخر جلسة الصباح ، وفى آفاق قاعة المحاضرات الفاخرة المريحة المجهزة بكل وسائل التهوية والتكييف والترجمة إلى لغات أربع ، زفت بشائر نجم جديد قد يكون له أثر كبير فى الوقاية والعلاج فى عالم الفيروسات وضمنها شلل الأطفال ، سموه المادة الحائلة . وقد تمكنوا من عزلها وأثبتوا أنها تبدأ فى الظهور بعد يوم من الإصابة وتستمر لمدة أسبوع ، كما ظهر فى التجارب العلمية على رئة الفيران نموفيروس الأنفلونزا ، والعلماء يأملون أن يتمكنوا من عزل هذه المادة واستعمالها فى وقف سير الحالات الحادة وكذلك الوقاية منها . وهذا فضل على الإنسانية كبير . فإننا حتى الآن نقف حائرين أمام حالات شلل الأطفال الحادة وهى تزحف زحفاً نحو المراكز الحيوية العليا دون رحمة من الفيروس القاسى . ترى هل يتمكن العلماء من عزلها والإفادة منها ذات يوم جميل من أيام الحياة .

كذلك تحدثت العلامة ما تدل عن اكتشاف ما زال فى دوره التجريبى المعملى ،وهو احتمال الإفادة من عزل الأجسام المضادة للفيروس لوقف سير نشاطها وهى تتلكأ على العصب حال دخولها : وحتى الآن لا يمكن القول إنهم وصلوا إلى نتيجة فاصلة فى هذا المجال :

وتنفسنا الصعداء هذا اليوم الذى استغرقت جلساته ست ساعات

متوالية لم يسمح لنا خلالها إلا بخمس دقائق مرتين ، الأولى بجلسة الصباح والثانية فى جلسة بعد الظهر ، وقد حذرنا رئيس الجلسة فى دعابة من مغادرة قاعة المحاضرات إلا لأسباب تتعلق بحياتنا وسلامتنا ، وقال : إنى أسمح لكم بالوقوف والانثناء قليلا إلى الأمام ثم إلى الخلف ثم إلى الجانبين ، وأشكركم على حسن إنصاتكم .

وفى فترة الصباح توقعنا شراً مستطيراً ، فإن كل الموضوعات كانت تتعلق بطعم سولك وكفاءته للوقاية من شلل الأطفال . وكنت أدقق النظر فى هذا العلامة طول جلسة الصباح وهو جالس فى الصف الأول يعلو وجهه بعض الكآبة وقد نحل وجهه وخف شعره الأسود الفاحم ، وكان يبدو كشخص يتحفز للدفاع عن كيانه ، فهو مهدد بالانهيار التام بعد أن كان ملء السمع والبصر فى خمس السنوات الأخيرة وكان يجلس بجانبى مباشرة ويفصلنى عن غريمه فى العلم الأستاذ سابين أحد مكتشفى الطعم الذى يعطى عن طريق الفم ، واكتفيت هذه المرة بالتعرف عليه . فكان ظريفاً مجاملا مبتسما على طول الخط وأصبحنا أصدقاء بقية أيام المؤتمر ، وما المؤتمرات إلا وسيلة للتعارف والتآلف فى سبيل العلم والمجتمع .

وكان سولك يستمع إلى الخطباء الواحد بعد الآخر كالمحكوم عليه ، إذ يستمع إلى شهود النفى والإثبات ليحكم له أو عليه . وكان العلماء يتكلمون فى حياد تام وبروح عدالة مطلقة فيوردون الأرقام . وكان أولهم الأمريكى لانجموير ، وهو من ذوى الكلمة المسموعة جداً فى هذا المجال . وقد أكد أن النتائج أثبتت أن المناعة المكتسبة من حقن طعم سولك

تبلغ ٩٠٪ بعد الحقنة الرابعة . وهذه نتيجة لا يرقى إليها الشك ، وما سبب هذه الانفجارات الوبائية إلا أن الطعم لا يعطى بطريقة منظمة تضمن عدم ترك أى طفل فى المجموعة دون تطعيم فإن بؤرة حساسة واحدة تكفى لإشعال النار من جديد .

وأجمع العلماء على أنه لو أمكن تعديل تحضير طعم سولك بحقنة واحدة بدلا من أربع ، وخفض ثمنه حتى يتيسر إعطاؤه لكل طفل ولكل بالغ فى المجموعة الواحدة دون تمييز أو تفريق ، فإن هذا الطعم لن يموت أبداً ، ولا بأس عليه أن يزامل طعم الفم فى سبيل الوقاية ، وعلقت بينى وبين نفسى (مثل الكوكاكولا والبيبسى كولا تماماً) وانتهت الجلسة على خير ، وبدا على وجه سولك بعض الارتياح وقد أمن مستقبله :

وفى جلسة بعد الظهر نوقش موضوع طعم الفم الذى اخترعه سابين وكوكس وكوبروفسكى . وهم يعملون فرادى فى الولاية أو الجهة التى ينتمى إليها كل منهم . فسابين مثلا يعمل فى سنسنانى وكوكس فى معامل ليدرل ، ولذا يسمون طعمه كوكس ليدرل ، وكوبروفسكى فى فلادلفيا ، وقد ثبت أن هذا الطعم قد جرب على نطاق واسع جداً ، فمثلا جرب طعم سابين فى مائة مليون طفل . وطعم كوكس فى سبعة ملايين طفل . وطعم كوبروفسكى فى مليونى طفل ؛ وقد طبقت التجربة على أطفال بعض الولايات المتحدة الأمريكية وأمريكا الجنوبية والمكسيك وروسيا وألمانيا وبولندا . ولا أظن أن دواء جديداً جرب على هذا النطاق الواسع من قبل : وكانت النتائج باهرة بإجماع

الآراء ؛ وتجلى فى هذا الاجتماع العلماء الروس : فتحدث شوما كوف ووقف بقوامه الفارع يلقى كلمته نيابة عن نفسه وعن أستاذه زادانوف ، وكانت الكلمة بالروسية ولكننا سمعناها مترجمة إلى الإنجليزية كاملة كاملة ، وفى دقة تامـــة ، والفضل فى ذلك لهيئة المترجمين الذين يتكلمون ويتقنون اللغات المختلفة كأبنائها تماماً . وكان الكلام ينفجر من فمه كالبركان الهادر . ذاكراً الأرقام والإحصاءات بابهجة المقتنع الذى لايقبل نقاشاً لا عن عناد ، وإنما عن ثقة فيما يعتقده حقًّا وصواباً . وكان طبيعيًّا فى إلقائه بسيطاً فى حركاته حتى إنه لكى يقنع الحاضرين بصحة كلامه عن سلامة الطعم وكفايته أخرج من جيبه كيساً به بعض أقراص الحلوى . وابتلع منها واحداً ، ثم ترك الكيس لرؤساء الجلسة وعددهم عشرة من أساطين العلماء وابتلع كل منهم قرصاً وهم يبتسمون مأخوذون بسحر حديثه وقوة إقناعه ، مما أشاع البهجة بين الحاضرين ، وقد قال رئيس الجلسة مداعباً بعد أن انتهت موجة التصفيق الحاد — وهو العالم الفرنسى ليفوف — يمكننى أن أؤكد للزميل شومان كوف أن طعم الأقراص لذيذ وأنه بحمد الله لم يحدث لنا حتى الآن وفاة مباشرة .

ثم أعقبه الخبير الروسى سمورودنتيف الذى أقام بمصر مدة شهرين ذلك العام ألقى خلالهما بضع محاضرات عن طعم الفم وغيره ، فتحدث عن تجاربه فى ثلاثة ملايين طفل فى لننجراد . والحديث عن طعم الفم دائماً بالملايين لرخص ثمنه وسهولة تعاطيه .

ثم أعقبته العالمة الروسية مارينا فورشيلوفا . وهى زوجة شوما كوف

الذى سبق الحديث عنه . لم أر فى حياتى العلمية إنساناً يتكلم بمثل هذه الثقة وقوة التعبير . كانت الوقائع تخرج من فمها كالمدير ، وإن كانت ذير ا هائجة ، كاملة منمقة وفى سرعة كنت أخشى منها على المترجمة ، المسكينة ، وكان الحاضرون يصفقون لها من قلوبهم المفعة بالإعجاب ، وكانت تتلو الوقائع من مذكرتها. لم تنظر آبداً إلى ما هو أمامها من مذكرات مطبوعة وكأنها البحر المتدفق . . . . وكانت هذه المعجزة خير دعاية لبلادها ، وظهرت للملأ مفخرة لا تقل روعة عن الصواريخ الروسية. وكانت إذا عقبت على المتشككين تكلمت بصوت كله عتاب رقيق كالذى توجهه الأم إلى أطفالها الأشقياء ، وكأنها تقول لا تحاولوا خلق المتاعب والشكوك (كفاية شقاوة) الطعم سليم وكفء مائة فى المائة : ثم تبدأ فى سرد أدلة جديدة حتى ينبهر المعارضون وتنهار مقاومتهم :

ثم تعاقب الخطباء وكلهم يحبذ طعم الفم دون نقاش ، حتى إذا اقتربت الجلسة من نهايتها قام الأستاذ سابين وصاح بلهجة المنتصر : ماذا تنتظرون بعد هذا وقد جرب الطعم فى أكثر من مائة مليون طفل دون حادث يذكر ودون أن يفشل فى حالة واحدة أو يؤدى إلى حالة وفاة واحدة ؟ . نصيحتى ألا نناقش كفايته ، بل نفكر من الآن : كيف نمهد السبيل لإعطائه لكل سكان العالم سواء الأطفال أو البالغون ، وبهذا نقضى على هذا الداء الوبيل إلى غير رجعة ؟ .

وعندما ركبت الترام عائداً إلى الفندق مع زملائى الدكتور على سالم والدكتور إمام زغلول التفت إليهما قائلا ، وهما العالمان الخبيران : ما رأيكما؟

أجابا باقتضاب : اكتساح لا شك فيه .

ثم مال على الأستاذ الروسى سمورود ينسف وقال مبتسما ، انظر إلى كوكس . إنه كسير الفؤاد ، لأن الفيروس رقم ٢ من طعم كوكس ليدرل ضعيف ويجب أن يجد طريقة لإنقاذ نفسه . واتجهت نحو كوكس بعد أن تركنى العالم الروسى : وبينى وبينه معرفة وطيدة منذ قابلته فى نيويورك منذ منذ عام وابتدرنى قائلا : ما رأيك فى كل هذا ! . ألا توافقنى أن مقدار الكلام الذى يقال عن طعم شلل الأطفال أضخم من مرض الشلل نفسه ، وبدأ يتحدث مداعباً وفى بساطة أمريكية ظريفة ... وحدثته عن نقطة الضعف فى طعمه فأكد أن العمل يجرى بلا هوادة فى تدعيمه وتلافى مواضع الضعف فيه . .

وفى فترة الاستراحة فى الصباح تقابلت مع سولك ، وكان يبدو كسير الفؤاد فجلسنا على مقعد مريح فى الصالة الملحقة بقاعة المحاضرات . فنظر إلى وهو ساهم شارد الذهن . وأردت أن أحرك أشجانه ، فقلت له : لقد كنت موجوداً أثناء مؤتمر عام ١٩٥٧ بجنيف ؟ . فقال لى على الفور . لقد كانت الظروف مختلفة تماماً . . . أما اليوم . . .

فقلت له مواسياً : إن الأرقام التى أوردها الباحثون عن طعمك مقنعة مذهلة فليس رقم ٩٥٪ للمناعة بعد الحقنة الرابعة بالرقم الهين فى عالم الإحصاء الطبى . لى ملحوظة واحدة ، وهى أن يجرى البحث مستقبلا عن تبسيط طريقة تعاطى طعم سولك بقصره على حقنة واحدة بدلا من أربع ، وعلى العمل على خفض سعره .

فقال ألا تذكر البنسلين فى أوائل عهده ؟ . وكيف كان غالى الثمن : وهو الآن بلا ثمن . . . إن مرور الأيام والاستمرار فى البحث عن وسائل تعديل الطعم كفيلان بحل هذه المشاكل التى حدثتنى عنها . وإنى واثق بأنى سأصل إلى ما أريد وما تريد .

وقابلت الدكتور الكندى فيرجسون الأستاذ العالمى فى الأقربازين، ورئيس معامل كونوت بكندا وكنت قد قابلته فى تورنتو فى العام الماضى ، فقال بلهجة إنجليزية متئدة رصينة .. نحن قد حضرنا طعم الفم . . . ولكننا لا نريد طرحه فى السوق بسرعة. . . وأعتقد أن هذا الطعم الجديد سوف يمضى قدماً .

فكانت الجملة مقتضبة وحماسية. وكان القول الحق لأنى أثق فى رزانة هذا الرجل وحسن تقديره للأمور .

وتقابل أعضاء الوفد العربى مصادفة مع سابين فى فترة الاستراحة، فأخذ يستعيد ذكرياته عن القاهره عندما زارها سنة ١٩٤٣ . وقام بأبحاث فيها ، أخذ يعددها لنا الواحد بعد الآخر ، وقال ، إنه كان يقطن فى شارع فاروق، وقال الدكتور إمام زغلول إن طعم سابين يجرب الآن فى مصر . فما كاد يسمع كلمة (يجرب) حتى انحنى عليه متسائلا فى عنجهية وثقة لاحد لهما : ماذا تقول ؟ : يجرب ؟. اذهب يا عزيزى إلى بلادك وقل لأولى الأمر أن يطعموا به كل مصرى دون خوف أو تردد؟ألم تقنعك كل هذه الأرقام وخاصة أن البلاد التى عمم فيها تتشابه مع مصر من حيث الجو والمستوى الصحى :

كان اليوم الثالث من الصباح حتى المساء عبارة عن انتصارات متوالية لطعم الفم . كان النقاش يدور – لا حول مفعوله أو سلامته – بل حول طريقة تعميمه حتى لا يبقى فرد واحد فى البلاد الموبوءة دون تحصين ، وحول السن المناسبة لإعطائه للفرد . هل يعطى بعد الولادة بأيام أو بأسابيع أو شهور؟ وهل يفضل نظام الجرعة الوا- لدة أو نظام الثلاث جرعات ، وغير هذا من التفاصيل التى لا محل لها عند القارئ العادى .

وعندما غادرت فندق « التبرى فلاك » الفاخر ، حيث عقد المؤتمر لآخر مرة يصحبنى زملائى على سالم وإمام زغلول من مصر وصبيح الجزار من سوريا التفت خلفى لأودع الدار التى اصطليت بنارها وتمرغت فى نعيمها ، فالعلم جنة ونار طوال أيام ثلاثة مليئة بالإرهاق وبذل الشحم واللحم والعرق . وإن كانت هناك دموع الفرح على ما تصل به ركاب العلم من أسباب التقدم والنهوض ، وقى الله ابن آدم شر الغرور فإنه سبحانه لم يهبه حتى الآن من العلم إلا قليلا . . . وفوق كل ذى علم عليم .

* * *

ولم تعقد مؤتمرات دولية عن شلل الأطفال بعد ذلك فقد أصبح الطعم المضاد حقيقة واقعة وكل ما يحاولونه الآن هو اكتشاف أنواع منه تتحمل الجفاف مدداً طويلة ، وبذا يستغنى عن ضرورة وضعه فى الثلاجات . ويحاولون زرع الفيروس على الأجنة الآدمية بدل كلية القردة ، وبذا تقل نفقات تحضيره إلى درجة كبيرة ، فيرخص ثمنه .

ومضت السنون ونجم سابين آخذ فى الصعود وانزوى سولك بعيداً

عن مجال شلل الأطفال و يقال إنه انحرف إلى مجال آخر فى أبحاث عالم الفيروسات لعل نجمه يبزغ من جديد ذات يوم ، فليس أشد قتلا للنفس التواقة من خسوف بعد إشراق ، ولا بد أن سولك سوف يجد فى البحث عن جديد يعيد لاسمه اللمعان الذى افتقده منذ زمن .

وما زلت أذكر كيف وقف سابين فى الجلسة الختامية لمؤتمر الطفولة الدولى الحادى عشر الذى عقد فى طوكيو فى نوفمبر ١٩٦٥ يتحدث فى ثقة عن معجزات طعمه الذى اكتسح طعم سولك ومما قاله إنه يمكن أن تكون المدة بين الجرعتين ثمانية أسابيع وأنه يكفى أن تعطى جرعتان فى البلاد التى لا تكثر فيها النزلات المعوية ، أما فى البلاد التى تكثر فيها هذه النزلات فيمكن إعطاء ثلاث جرعات ثم جرعة رابعة عند دخوله المدرسة للمرة الأولى وأردف قائلا فى ثقة :

لا للضرورة القصوى ولكن لم لا وهو طعم لا يسبب أى تفاعل ولا يضر بالجسم على الإطلاق .

وعلقت كلماته بذاكرتى ومرت ظروف كدت لا أوافقه فيها على كل ما يبشر به عن الطعم الذى يحمل اسمه .

فلقد صادفت فى حياتى العملية اليومية حالات ينتابها ارتفاع مفاجئ فى الحرارة قد تصل إلى مافوق الأربعين درجة مئوية وقد يصحبها إسهال حاد أو أعراض عصبية فأسائل نفسى هل هى مجرد مصادفة أم أن لها علاقة بالنظرية التى تقول إن هناك حالات نادرة تفيق منها الفيروس المروضة عندما تصل إلى جسم مضيفها الطفل وكأنها الحية التى أهلكها برد

الشتاء والصقيع ترفع رأسها مجأة إذا واجهت نار المدفأة بعد إذ أواها عابر سبيل فى بيته شفقة منه ورحمة فيكون أول ضحاياها ، فتى استيقظت الفيروس صالت وجالت على غير هدى حتى إذا وجدت منفذاً صغيراً ، وما أكثر الفرجات فى أمعاء الطفل المصرى كنتيجة لنزلة معوية حديثة أو دوسنطاريا أميبية مزمنة ، انسابت منه إلى الدورة الدموية تسبح فيها وتزداد دفئاً وحيوية وهى تتجه إلى موضع الأفضلية عندها وهو الجهاز العصبى ، محدثة التهاباً فى المخ وفى حالات نادرة شلل أطفال صريح . . . لذا اتخذتها قاعدة كلما ارتفعت الحرارة بعد تناول الطعم أن أحقن الطفل بمادة الجاماجلوبيولين عساها أن تولد فيه مناعة مؤقتة يجتاز بفضلها المحنة المرتقبة التى قد تهدد حياته :

وكثيراً ما صادفت حالات شلل أطفال تحدث فى أطفال تناولوا الثلاث جرعات من طعم سابين بانتظام ودون أن يكون هناك أحد المانعين الأساسيين وهما ارتفاع الحرارة والإسهال . . . وتساءلت كيف تسلل ملاك الجراثيم إلى جسم دعمت خلاياه بطعم قبل غذائه لا يخطئ إلا فى النادر ، وحاولت أن أفسر بعض حالات الفشل بأسباب منزلية مثل تهاون الأم فى إتمام تناول الجرع الثلاث وقصرها على جرعة أو جرعتين ، أو أن الأم لا تنتظر فى تبليع طفلها الطعم وهو مادة ملحية المذاق فلا يكاد فمه يصل إلى كتفها وهى تحمله على وهن حتى يبصقها ليتخلص منها وبذا يحرم نفسه من أقوى سلاح قدمه العقل البشرى لوقايته من داء وبيل :

ولكن العلماء يجدون دائماً لكل علة سببا :

وخاصة لما وجدوا أن فاعلية الطعم قد هبطت إلى ٤٠٪ (أربعين فى المائة) فى البلاد الحارة حيث تكثر النزلات المعوية بل وتتكاثر الفيروسات المعوية بلا ضمير وفى خفية دون أن تحدث أعراضاً تلفت النظر . والأدهى منها جرثومة الشيجيلا التى وجد أنها عدو لدود لفيروس الشلل المروضة ، وهى الأخرى تكمن فى تحفز بين ثنيات الأمعاء منتظرة غريمها فى صمت الغادر المقتدر فتفتك به فتكاً يؤدى إلى اختفائه كلية .

ثم يتبين أن لبن ثدى الأم له أثر ضار على الطعم ، ولذا تنبهوا إلى ضرورة تحريم رضاعة الثديين لمدة ٦ ساعات من أن يمتص الطفل ثدى أمه ، ولقد أحدث هذا الخبر بلبلة فى أفكار الأمهات لأن معظمهن كن يرضعن أطفالهن بعد تناول الطعم بقصد إسكاتهم وضمان استقرار الطعم فى معدتهم ، والواقع أنه على هذا الفرض يجب عليهن إعادة حقن أولادهن ، ولكن فى اعتقادى يكتفى بجرعة واحدة منشطة ما دامت بقية شروط تناول الطعم كانت مستوفاة فى الثلاث الحقن السابقة ، وهناك فى الوقت الحاضر محاولات للتغلب على هذه الحوائل الجرثومية والفيروسية والبيولوجية بإعطاء ٦ نقط بدلا من ٣ نقط للجرعة الواحدة وأن يزاد تركيز الطعم من مائة ألف إلى مليون وحدة فيروس فى النقطة الواحدة .

ويا ويل طعم سابين من اختبار الزمان . . . وإنى أذكر أنى سألته فى مؤتمر كوبنهاجن عام ١٩٦١ بعد انتصاره الكاسح عن مصير طعم سولك الذى يعطى عن طريق الحقن أجاب فى مهمهة يشوبها العطف والإشفاق على زميله : لايجب أن يموت طعم سولك — يمكن إعطاء الحقنة المنشطة من

طعم سولك أما الجرعات الثلاث الأولى فلا بديل لها من طعم الفم الذى يحمل اسمى :

وفى اعتقادى الآن أن الآية لا بد أن تنعكس فى البلاد الحارة مثل بلادنا حيث تكثر الجراثيم المتداخلة التى حالت دون مفعول الطعم المرجة نزوله إلى ٤٠٪ كما تقول الإحصائيات فى طرق لا تدع مجالا لشك . وأجد نفسى منساقاً وراء عاطفتى الأزلية نحو سلامة الطفل الذى كرست جزءاً كبيراً من حياتى العملية لحمايته من هذا المرض اللعين ، أن أنادى — فى حالة تكرار الفشل مع طعم سابين — أن يعود طعم سولك إلى الظهور فى البلاد الحارة و يقتصر استعمال طعم سابين على الجرعات المنشطة .

وهذا كلام مبنى على المنطق العلمى العميق إذ يبدو مستبعداً أن تعقم الجهاز الهضمى للطفل من الجراثيم المتداخلة التى تعيش معه فى سلام ووئام وكأنها جزء منه ، وليس من المعقول أن نحرمه من ثدى أمه لنمهد الطريق لفيروس سابين المروضة ، وكل أملنا أن تؤدى المحاولات التى تجرى فى الوقت الحاضر من تركيز الطعم وزيادة مقدار الجرعة إلى ست نقط بدلا من ثلاث والعناية أكثر وأكثر بوسائل التبريد ، وهى لا بد منها ، لحفظ الطعم من الفساد إذ أنه لا يتحمل الحرارة أكثر من ساعات . .

والله الموفق . . .

... في آفاق الحياة والموت



محمد رسول الله . . فى أيامه الأخيرة

شرّفنى الله بزيارة قبر الرسول مرات عديدة ؛ وكنت كلما جلست فى مكانى المفضّل — عند ركن الأغوات — أحملق فيما وراء الأسوار المذهبة التى تحيط بالقبر الطاهر . أتخيل الأحداث التى سبقت موته ، صلى الله عليه وسلم . إذ خرج — وقد اشتدت به العلة — يمشى بين رجلين من أهله ، هما : « الفضل بن العباس » و « على بن أبى طالب » ، عاصباً رأسه ، حتى دخل بيت عائشة ، ثم أصابته غمرة المرض ، واشتد به وجعه فقال : « أهرقوا علىّ سبع قرب من آبار شتى ، حتى أخرج إلى الناس ، فأعهد إليهم » .

تقول عائشة ، رضى الله عنها : « فأقعدناه فى مخضب لحفصة بنت عمر ، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول : « حسبكم ، حسبكم » . . . ثم خرج صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه ، حتى جلس على المنبر ، ثم صلى على أصحاب « أحد » ، واستغفر لهم ، وأكثر الصلاة عليهم . ثم قال : « إن عبداً من عباد الله خيره الله بين الدنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » . ففهمها أبو بكر ، وعرف أن نفسه يريد . . . فبكى ، وقال : « بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » .

وتستطرد عائشة قائلة : « ولما ثقل المرض على رسول الله ، صلى الله

عليه وسلم ، عاد أسامة بن زيد ، وكان على رأس الجيش عند الجرف ، على بعد فرسخ من المدينة . . . ودخل على النبي وقد أصمت فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة ، وكأنه يدعو له ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : « مروا أبا بكر فليصل بالناس » ! . . . فقالت عائشة رضى الله عنها : « يا نبى الله ، إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت ، كثير البكاء ، إذا قرأ القرآن » . . . فكرر صلى الله عليه وسلم قوله : « مروه فليصل بالناس ! » . . .

« ولما كان يوم الاثنين ، الذى قبض الله فيه رسوله صلى الله عليه وسلم ، خرج النبي إلى الناس وهم يصلون الصبح . فرفع الستر ، وفتح الباب ، وقام على باب عائشة . فكاد المسلمون يفتتنون فى صلاتهم حين رأوه فرحاً به . فأشار إليهم أن أثبتوا على صلاتكم . وتبسم صلى الله عليه وسلم ، سرورا لما رأى من هيئتهم فى صلاتهم ، وما رأيته أحسن هيئة منه تلك الساعة . . . ثم رجع ، وانصرف الناس وهم يرون أنه قد برئ من وجعه . فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح » .

وتقول عائشة : « رجع إلىّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى ذلك اليوم ، وحين دخل من المسجد ، واضطجع فى حجرى . فدخل علىّ رجل من آل أبى بكر ، وفى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نظرة عرفت منها أنه يريده ، فقلت : يا رسول الله ، أتحب أن أعطيك هذا السواك ؟ . فقال : نعم فأخذته فمضغته له حتى لينته ، ثم أعطيته إياه ، فاستنّ به كأشد ما رأيته يستنّ ، ثم وضعه . فوجدت

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يثقل فى حجرى ، فذهبت أنظر فى وجهه ، فإذا بصره قد شخص ، وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى » . فقلت : « خيرت فاخترت والذى بعثك بالحق » .

قالت : « وقبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين سحرى ونحرى ، فوضعت رأسه على وسادة ، وقمت ألتدم مع النساء ، وأضرب وجهى » .

* * *

ولما توفى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قام عمر بن الخطاب . فقال : « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قد توفى . . . ألا إن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران عن قومه ٤٠ ليلة ، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات . والله ليرجعن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما رجع موسى . فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات » .

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس ، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو فى بيت عائشة مسجى فى ناحية من البيت ، وعليه بردة وحبرة . فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم أقبل عليه يقبله ، ويقول : « بأبى أنت وأمى ! . . . أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً » . ثم رد البردة على وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وخرج وعمر يكلم الناس ، فقال :

« على رسلك يا عمر ، أنصت ! ... » فأبى عمر إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » . ثم تلا الآية الكريمة : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزى الله الشاكرين » ... فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآيات نزلت ، حتّى تلاها أبو بكر يومئذ .

قال عمر : « والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت (أى دُهشت) حتى وقعت إلى الأرض ما تحملنى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات » .

* * *

ولما قُبض رسول الله — صلى الله عليه وسلم — انحاز هذا الحى من الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة، واعتزل على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله فى بيت فاطمة ، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر ، وانحاز معهم أسيد بن حضير فى بنى الأشهل، فأتى آتٍ إلى أبى بكر وعمر ، فقال : « إن هذا الحى من الأنصار مع سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة فأدركوهم قبل أن يتفاقم أمرهم » ... هذا ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى بيته لم يفرغوا من أمره ، قد أغلق دونه البابَ أهله : قال

عمر : « فقلت لأبي بكر : انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه » .

فلما بويع أبو بكر ، رضى الله عنه ، أقبل الناس على جهاز رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم الثلاثاء . ثم إن عليًّا بن أبي طالب ، والعباس ابن عبد المطلب ، والفضل بن العباس ، وقثم بن العباس ، وأسامة بن زيد ، وشقران مولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هم الذين تولوا غسله . وجاء « أوس بن حولى » — أحد أهل بدر — فدخل ، وحضر غسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وقد أسنده على إلى صدره ، بينما « العباس » و « الفضل » و « قثم » يقلبونه معه ، و « أسامة بن زيد » و « شقران » مولاه يصبان الماء على قميصه ، و « على » يدلكه به من ورائه ، ولا يفضى بيده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقول : « بأبي أنت وأمى ، ما أطيبك حيًّا وميتاً » .

وكانوا حينما أرادوا غسل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قد اختلفوا فيه . فقالوا : « والله ما ندرى ، أنجرد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من ثيابه كما نجرّد موتانا ، أو نغسله وعليه ثيابه ؟ . . . » فلما اختلفوا ، ألقى الله عليهم النوم ، حتى ما منهم رجل إلا ذقنه فى صدره . ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت ، لا يدرون من هو : أن أغسلوا النبي وعليه ثيابه . فقاموا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فغسلوه وعليه قميصه ، يصبون الماء فوق القميص ، ويدلكونه والقميص دون أيديهم .

فلما فرغ من غسل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كفن فى ثلاثة أثواب : ثوبين صحاريين (نسبة إلى صحار ، مدينة باليمن) وبرد حبرة

أدرج فيه إدراجاً . ولما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، كان « أبو عبيدة بن الجراح » يضرّح كحفر أهل مكة ، وكان «أبوطلحة زيد بن سهل» هو الذى يحفر لأهل المدينة . فدعا العباس رجلين ، فقال لأحدهما : « اذهب إلى عبيدة بن الجراح ! » ، وللآخر : « اذهب إلى أبى طلحة ! » . . . وأردف قائلا : « اللهم اختر لرسول الله — صلى الله عليه وسلم ! . . . » فوجد ثانى الرجلين « أبا طلحة » فجاء به ، فلحد لرسول الله — صلى الله عليه وسلم .

* * *

ولما فرغ من جهاز رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يوم الثلاثاء ، وضع على سريره فى بيته . وكان المسلمون قد اختلفوا فى دفنه ، فقال قائل : « ندفنه فى مسجده » . . . وقال قائل : « بل ندفنه مع أصحابه » . فقال أبو بكر : « إنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : « ما قبض نبى إلا دُفن حيث يقبض » . فرفع فراش رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذى توفى عليه — فحفر تحته ... ثم دخل الناس على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إرسالا . أدخل الرجال ، حتى إذا فرغوا أدخل النساء حتى إذا فرغن أدخل الصبيان . ولم يؤم الناس فى الصلاة على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أحد . . . ثم دفن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى وسط الليل . . . ليلة الأربعاء . وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — هم : على بن أبى طالب ، والفضل بن عباس ، وقثم بن عباس ، وشقران مولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

وقد قال « قوس بن حولى » لعلى بن أبى طالب : « يا على ، أنشدك الله وحظنا من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم » . . . فقال له : « انزل » ! . فنزل مع القوم. وقد كان مولاه « شقران » — حين وضع رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، فى حفرته وبنى عليه — قد أخذ قطيفة كان رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يلبسها ويفترشها ، فدفنها فى القبر ، وقال : « والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً ! . . . » .

* * *

يحاول الطبيب منا معرفة كنه الجرثومة التى اقتحمت هذا الجسم الطاهر فحرمت منه الإنسانية . . . ولعل الله سبحانه وتعالى قد وضع للموت والحياة حدوداً ، وخلق لها أسلحتها — وهى عالم الجراثيم — لتنهى حياة من قسم له أن يموت على فراشه .

وفى تخمين ، أن محمداً — صلى الله عليه وسلم — أصيب بإحدى الحميات الخبيثة ، التى تستغرق أياماً لإنهاء الحياة . . . وكان خلالها قادراً على الكلام ، والسير مستنداً إلى رجلين من أهله وأتباعه ، عاصباً رأسه من شدة الصداع الذى يصحب حمى « التيفود » عادة . ثم يجلس على المنبر يتكلم إلى المسلمين . وكانوا ينظرون إليه ، يلتهمونه بعيونهم ، فرحين مستبشرين بفضل الله عليهم ، وهم يعتقدون أنه قد برئ من وجعه . ولعلنا نذكر كيف اشتدت به الحمى فى بيت عائشة ، حتى لقد طلب — صلى الله عليه وسلم — أن يريقوا عليه سبع قرب من آبار شتى ، وكيف صبوا عليه الماء صباً حتى ارتعد منه البدن ، وطفق يقول : « حسبكم، حسبكم ! » .

هذه الحمى ، وهذا الصداع الملح ، وهذا المرض الذى يمكن الشخص من التحامل على نفسه أياماً عديدة ، دون حدوث غيبوبة أو تشنجات ، تشير إلى موضع إصابة بالمخ أو غشيته بأحد « الفيروسات » أو الجراثيم التى انتشرت فيما بعد وعرفت أسماؤها واكتشف الترياق المضاد لكل منها ، حتى أصبحت النجاة منها فى متناول الطبيب المعالج .

وقد تعطى الإصابة بالملاريا صورة شبيهة . . . وقد تكون الصحوات التى انتابت الرسول — صلى الله عليه وسلم — خلال محنته المرضية ، والتى مكنته من الإفاقة والسير على قدميه إلى المسجد — ليؤم الناس بين الحين والحين — هى التى تحدث بين مرضى « الملاريا » إذ تهبط الحرارة وترتفع ، وقد تمر الساعات أو الأيام بين هذا الارتفاع والهبوط ينتعش المريض خلالها ، وقد يستعيد نشاطه إلى حد ما وإلى درجة تمكنه من القيام ببعض المجهودات بالرغم من هزاله وتضعضع حالته النفسية والجسمية .

وليس مرض « التيفود » جديداً على البشر ، إذ يرجع بنا تاريخ الطب القهقرى إلى أيام « أبقراط » ، فيقول الرواة إنه وصف فى مذكراته مرضاً تنطبق أعراضه على الحمى التيفودية ، لأنه ذكر بين علاماته الحرارة المرتفعة المستمرة ، والإسهال ، والطفح الجلدى الوردى المحبب ، وألم البطن ، وفقد الوزن والشهية ، ونزيف الأنف ، والهذيان عند اشتداد الحمى . وقد عاصرت جرثومة هذا المرض أبناء آدم على مر الأجيال ، تضايق هذا ، وتعصف بحياة ذاك . ولم يعن أحد رغم ذلك باقتفاء أثرها ، بل اعتبرها الجميع من فصيلة « التيفوس » حتى عام ١٨٣٩ ، إذ أطلق عليها الطبيب الفرنسى

« لويز» اسم « التيفود » لأول مرة . ولكنه لم يحاول أن يفرّق بينها وبين حمى « التيفوس » من الوجهة المرضية . والفضل فى التمييز بين المرضين يرجع إلى « جرهارد » ، فى فيلادلفيا عام ١٨٣٦ ، ثم إلى « ستيوارت » بجلاسجو عام ١٨٤٠ ، وأخيراً إلى سير « وليم جينر» ، الطبيب الإنجليزى الشهير ، الذى كشف لقاح الجدرى . فقد أجرى هذا الأخير بحوثاً فى الفترة ما بين عامى ١٨٤٩ و ١٨٥١ وأثبت أن المرضين — التيفوس والتيفود — لا يمت أحدهما للآخر بأية صلة ، فكانت كلمته هى الفاصلة . وكان « إيبرت » أول من كشف جرثومة المرض ، فى عام ١٨٨٠ .

وفى عام ١٨٩٦ ، وصف « فيدال » طريقته الخاصة لتشخيص المرض ، وهى المعروفة باسمه حتى الآن . . . ولو أن طبيبين من فيينا ، هما « جروبر » و « درهام » ، وصفاها قبله بثلاثة أشهر . . . ولكن شاء التاريخ أن يلمع اسمه دون اسميهما .

وهكذا شغلت هذه الحمى أذهان الباحثين ، حتى توصلوا إلى اكتشاف جرثومتها وطريق العدوى بها .

وسواء كانت « التيفود » أو « التيفوس » أو « الملاريا » هى المسئولة عن انتهاء حياة أطهر خلق الله ، فالنهاية واحدة ومحتومة ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

نهاية ابن الرسول (صلى الله عليه وسلم)

إن الذى يستعرض ذرية محمد (صلى الله عليه وسلم) ، يدرك تماماً أن الله أراد أن يمتحن إيمان رسوله فرزأه فيهم الواحد بعد الآخر ، وماتوا كلهم إبان حياته ، إلا فاطمة رضى الله عنها . ولقد اتفق جميع الرواة على أن جميع أولاد محمد (صلى الله عايه وسلم) كانوا من السيدة خديجة رضى الله عنها ماعدا إبراهيم عليه السلام إذ أنه ولد بالمدينة من السيدة « مارية بنت شمعون » القبطية .

ولقد ولدت له « خديجة » ولدين ، اسم أكبرهما « القاسم » ، وبه يكنى (صلى الله عليه وسلم) أى كانوا يدعونه أبا القاسم ، واسم الثانى « عبد الله » وقد ولد أولهما فى الجاهلية ومات فى الإسلام ، وولد الثانى فى الإسلام . كما أنها ولدت له أربع بنات هن : زينب ، وفاطمة ، ورقية ، وأم كلثوم . ولقد رتبهم الشيخ أحمد الحلوانى الخليجى (جد الأستاذ الدكتور أحمد الحلوانى ، العالم المصرى الكبير فى علم الطفيليات) حسب ترتيب ولادتهم فى نظمه .

بالقاسم ابن المصطفى وبزينب
ورقية هب لى القبول ، وفاطمة
وبأم كلثوم وعبد الله جُدْ
وقِنِى بإبراهيم شر الخاطمة

ولقد بلغ « القاسم » سن المشى ، غير أن رضاعه لم يكن قد كمل عندما مات . . . ومات « عبد الله » أيضاً صغيراً . . . أى أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم تطل فرحته بولديه ، فقد ماتا طفلين ، قبل المبعث أو فى مستهله . وتقول الدكتورة « بنت الشاطئ » فى كتابها : « بنات النبى » ، إننا لو حاولنا أن نلتمس دليلا يؤيد هذا ، لوجدناه فى سورة « الكوثر » ، وهى سورة مكية مبكرة ، فهى الخامسة عشرة فى ترتيب النزول بين السوَر المكية ، التى بلغت عدتها تسعاً وثمانين سورة . . . فبعد وفاة « القاسم » ، ثم « عبد الله » ، قال « العاصى بن وائل السهمى » : « قد انقطع نسله ، فهو أبتر » . فأنزل الله عز وجل : « إنا أعطيناك الكوثر ، فصلِّ لربك وانحر ، إنّ شانئك هو الأبتر » . . .

يقول الزمخشرى فى تفسير السورة ، إن من أبغضك هو الأبتر وليس أنت ، لأن كل من يولد من المؤمنين فهم أولادك وأعقابك ، وذكرك مرفوع على المنابر إلى يوم القيامة ، وعلى لسان كل عالم وذاكر إلى آخر الدهر ؛ يبدأ بذكر الله ويثنى بذكرك . . . وإنما الأبتر هو شانئك المنسىّ فى الدنيا والآخرة ، وإن هو ذُكر ذُكر باللعن .

وفى ذى الحجة سنة ثمان من الهجرة ، وَلدت « مارية » — بالمدينة — « إبراهيم » وقد مات ابن ثمانية عشر شهراً .

* * *

فى إحدى زياراتى للمدينة المنورة – وهى عديدة بحمد الله – زرت « البقيع » بعد صلاة الصبح . . . والبقيع كان مقبرة المدينة منذ الجاهلية إلى الآن ، وبعد دخولى ، انحرفت يميناً لأواجه أول ما صادفت رقعة مقدسة من الأرض ، عليها حجارة مرصوصة ، أشار إليها الدليل قائلا : « هذا قبر رُقية وفاطمة ، ابنتى النبى – صلى الله عليه وسلم – . . وهذا قبر زوجات الرسول ، إلاّ السيدة خديجة التى دُفنت فى مكة وميمونة التى دفنت فى سرف » .

وتأملت القبر بعد أن أزيلت عنه القباب والجدران عقب الغزو الوهابى ، فوجدته قطعة أرض مسطحة ، أحيطت بحجارة مرصوصة ، رُشق فوق كل منها حجر صغير ، علامة على مكان كل منهن .

وعلى بعد خطوات ، رأينا قبر « الحسن بن على » ، شقيق « الحسين » وهو لا يختلف فى منظره عن تلك القاعدة المتبعة منذ عهد الوهابيين ، إلا أنه ميز وكرّم بمربع من الحجارة المرصوصة ، ورشقوا فى جزء من هذا المربع الطاهر قطعة من الحجر ، لتدل على مكانه . ثم تساءلت : « أين قبر إبراهيم بن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وهو الذى سعد به الرسول لفترة وجيزة من حياته ، ثم مات ولم تنتصف السنة الثانية من عمره » . . . فقيل لى : « انظر إلى الأفق البعيد ، تر رجلا ملتحفاً بعباءة سوداء ، وقد وقف متأملا وكأنه يقرأ الفاتحة . . . اذهب إليه تجد قبر إبراهيم » . فأخذت أسير وئيداً ، حذراً من أن أتعثر فى قطع الأحجار المتناثرة ، حتى وصلت إلى ذلك المكان ، فوقفت متأملا ، أناجى التاريخ البعيد . . .

وتخيلت الرسول وقد جاوز الستين من عمره . كان قد فقد أبناءه وبناته ، فلم يبق منهم إلا فاطمة رضى الله عنها ، وقد مضت عشر سنوات بعد وفاة خديجة ، وبعد زواجه من عائشة وسائر أمهات المؤمنين دون أن يعقب . . . فلما ولدت له « مارية » القبطية المصرية « إبراهيم » ، ركز فيه كل حبه وعطفه الأبويين . . . وكان يمر كل يوم بدار أمه ليناغيه ويضمه إلى صدره فى حنان طاهر ، وكلما لاحظ غيرة أمهات المؤمنين أعرض عنهن ، وازداد بابنه تعلقاً . . . ولقد مرت الأيام سراعاً ، ترعرع الطفل خلالها ونما ، وازداد بوالده شبهاً . ثم شاء الله — ولا راد لقضائه — أن يقطع عن نبيه هذا السيل الجارف من السعادة ، وأن يسترد وديعته ، فإذا الذبول ينتاب ابنه الغالى ، وملاك الموت يزحف فى بطء وتصميم نحو الطفل البرىء ، لا يشفع له عند الله جل جلاله شىء ، فمتى حم القضاء فالكل عند الله سواء .

* * *

وشعر الرسول ذات يوم باقتراب النهاية ، فزادت آلامه النفسية ، وأخذ بيد « عبد الرحمن بن عوف » يعتمد عليه ، حتى وصل إلى حيث تقوم « مارية » بتمريض ابنها ، تعينها أختها « سيرين » . وهناك رأى فلذة كبده يجود بنفسه الأخير ، فتندت بالدمع عيناه . وجلس إلى جوار « مارية » وهو وجل مضطرب خائف ، كأى آدمى ينكب فى فلذته . ثم أخذ الطفل فى حجره ، وناجاه بصوت غلب عليه الألم الدفين قائلا : « إنا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً » . . . وتصرخ مارية وأختها

« سيرين » جزعاً ، والطفل فى غيبوبة ، يتشبث ببقية من الحياة ، وكأنه كان يأمل فى أن تشفع له الدموع الحارة المنبعثة من مآقى أبيه ، أو صراخ والدته وخالته وهما تضرعان إلى العلى العظيم ذى العرش الأعلى . . . ولكن متى نقض الديان حكمه العالى ؟ . . . لقد قبض الموت روح الطفل البرىء وهو لا يزال فى حجر أبيه .

وأخذ الحزن من النبي — صلى الله عليه وسلم — كل مأخذ ، وشرع يناجيه بصوت غلبت عليه العبرات قائلا : « يا إبراهيم ، لولا أنه أمر حق ، ووعد صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا ، لحزنّا عليك بأشد من هذا » . . . ثم أردف وقد بلغت به اللاهفة مداها : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول إلا ما يرضى الرب ، وإنا يا إبراهيم عليك لمحزونون » . ثم يلتفت إلى مارية وأختها بعد أن كفكف دموعه رأفة بهما ، وقال لهما : « إن له لمرضعاً فى الجنة » . . .

ثم قام ومعه عمه « العباس » وطائفة من المسلمين ، يشيعون إبراهيم بعد ما غسلوه ، وحملوه على سرير صغير ، إلى أن دفن فى هذا المكان الذى وقفت فيه . ولقد سوّى الرسول — صلى الله عليه وسلم — قبره بيده الطاهرة ، ورش الماء عليه ، ووضع عليه علامة ، وهو يقول : « إنها لا تضرّ ولا تنفع ، ولكنها تقرّ عين الحى . وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه » . وعند خروج الناس من البقيع ، انكسفت الشمس ، فحسبوا هذا معجزة شارك فيها الكون رسول الله فى حزنه : فلما بلغه تهامسهم ، قال لهم : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته ،

فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله بالصلاة » .

وعدت أدراجى نحو باب جنة البقيع ، وكانت خطاى رفيقة ، رقيقة ، حتى لا أزعج الراقدين تحت ترابه . . .

* * *

والذى يستعرض أمراض الطفولة التى تؤدى إلى موت سريع ، فى مثل سن سيدنا إبراهيم عليه السلام ، يجدها محصورة فى بضعة احتمالات . فالمعلوم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان يمر كل يوم بدار « مارية » ليداعب ابنه ويناغيه ، وكان الطفل يستجيب فى محبة وترحاب ، حتى فوجئ الرسول — صلى الله عليه وسلم — ومارية وأختها « سيرين » بالذبول السريع الذى أدى إلى غيبوبة ، أعقبتها وفاة غير مرتقبة ، بينما الرسول فى أوج سعادته بابنه الغالى . . .

وفى اعتقادى — من الناحية الطبية — أن ما أصيب به سيدنا إبراهيم ينحصر فى أحد احتمالين :

أولهما : النزلة المعوية الحادة ، لأن جراثيمها تترعرع فى الجو الحار ، وينقلها الذباب ، وما كان أكثره فى الحجاز حتى سنين قلائل ! . . . والنزلات المعوية الحادة قادرة — حتى يومنا هذا ، وفى أكثر البلدان مدنية وحضارة — على أن تعصف بحياة الطفل فى ساعات ، أو أيام ، إذا كانت من النوع العاصف الكاسح ، ناهيك بالقصور المتناهى إذ ذاك فى وسائل العلاج ، من مضادات للحيوية ، إلى حقن السوائل بالوريد لتمنع الجفاف

القاتل فى الجسم البض . . . وهى وسائل يتمتع بها الطفل فى وقتنا الحاضر ، وكم أنقذت من أرواح غالية ! .

أما الاحتمال الثانى ، فهو الالتهاب السحائى والحمى بأنواعه ، سواء الجرثومية منها أو الفيروسية . وكلها منتشرة فى بلادنا ومنطقة الشرق الأوسط عامة . . . وعالم الجراثيم لا يعرف سناً ولا جاهاً ، يقتحم عتبات القصور والأكواخ سواء بسواء . ومع تعاقب أجيال الباحثين والعلماء ، أمكن ابن آدم اكتشاف بعض مغاليق هذه الجراثيم والترياق المضاد للكثير منها ، ولكنا ما زلنا — حتى عصرنا هذا — فى حيرة من أمر آلاف منها ، وما زال ملاك الموت يسيطر عليها ، لتسقط الرؤوس التى قسم لها أن ينتهى أجلها بإذنه سبحانه وتعالى .

هذه حكمة الله ! . . .

نهاية نابليون بونابرت

لم أشأ فى الحلقة الأخيرة من الجزء الخاص بالموت — فى هذا الكتاب — أن أقتصر على اللحظات الأخيرة فى حياة نابليون . . . لذلك أسوق مقتطفات من فصول كتاب سبق أن كتبته فى صدر محاولاتى الأدبية ، وألحق به فصلا عن التعليلات العلمية والطبية لوفاة هذا البطل العظيم .

وحديث هذا الكتاب يثير ذكريات طريفة لا أرى بأساً من أن أوردها هنا . . .

كان « نابليون بونابرت » حلم صباى ! . . . كنت أقرأ كل ما يكتب عنه ، وأفرح لانتصاراته ، وأحزن لهزيمته فى « واترلو » ثم نفيه إلى جزيرة « سانت هيلانة » ، حيث سامه حاكمها « هدسون لو » كل أنواع العذاب ، حتى قضى نحبه ذليلا مهيض الجناح .

وخطر ببالى يومئذ أن أكتب رواية عاش أبطالها خلال عهد حملته على مصر ، وسميتها « السر المكنون » . ونشرتها فى مجلة اسمها « النديم الروائى » ، كانت تتبع مؤسسة « المقطم والمقتطف » ، ويدير تحريرها المرحوم الأستاذ « إسحق صروف . . .

والحق أن هذه المجلة كانت منبراً ، ظهر على درجاته الأولى كثير من الأدباء الشبان فى ذلك الحين ، أذكر منهم الأساتذة : سليمان حزين ،



نابليون يضع خطط المعركة مع ضباطه
قبل بدء المعركة (عن لوحة زيتية)

وعادل الغضبان ، و(العميد) عبد الرحمن زكى ، وعبد الرحيم طه ، والشافعى البنا ، وكامل البنا .

وكان المرحوم إسحق صروف ذكيًّا ، لماحاً . . . وقد بدأت أسهم فى تحرير مجلته وأنا طالب فى الصف الثانى من المرحلة الثانوية ، وذلك عن طريق المراسلة ، إذ ما كنت أجرؤ على أن تطأ قدماى عتبة دار المجلة المتواضعة . . . فقد كنت أتخيل صاحب المجلة عملاقاً ، ترتعد الفرائص مهابة له . . . ولم لا ، وهو الذى بيده أن يقبل أو يرفض منتجات أفكارى؟ ثم ما أدرانى كيف تكون مقابلته لى ، عندما يرانى شابًّا يافعاً ، يلبس سروالا يكاد يكون قصيراً ؟ . . . وبقيت صلتى عن طريق المكاتبة حتى وصلت إلى الصف الثالث ، واقتربت كتاباتى من مستوى النضج . . . وقد كتبت القصة التى أشرت إليها ، لتنشر مسلسلة ، وأرسلتها كاملة فى ظرف بدا لى ضخماً ، وكلفنى من طوابع البريد المسجل ما أرهق ميزانيتى المتواضعة . . . ويظهر أن صاحب المجلة المرهف الحس أراد أن يكافئنى أدبيًّا ، فنشر فى صحيفة « المقطم » المسائية إعلاناً ، بشر فيه قراء المجلة بأنها ستبدأ نشر « سلسلة من روائع تأليف الكاتب الألمعى الشهير مصطفى أفندى الديوانى » . . . أى أنه أضفى علىّ صفة الشهرة وكنت عنها بعيداً جدًّا ، ومنحنى لقب « الأفندى » ، وكان العرف إذ ذاك أن هذا اللقب لا يكون حقًّا مكتسباً إلا لمن يحصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة الآن) .

وظهرت المسلسلة فى ستة أعداد متوالية من المجلة ، تحت عنوان « السر المكنون » . . . ويجب أن أعترف بأننى كدت أندفع فى هذا المجال البديع إلى

أقصى مداه ، وقد أصبح لى قراء ومعجبون يطلبون منى المزيد كلما تراخيت ، ولكنى ما كدت أطأ عتبة باب كلية الطب – فى عام ١٩٢٣ ، بعد حصولى على (البكالوريا) – حتى توقفت عن الكتابة للمجلة تماماً . ولما بعث إلى مديرها المرحوم إسحق صروف بخطاب رقيق يلح على فيه بأن أستأنف الكتابة ، رددت عليه فى تصميم عجيب : « لقد قررت أن أكون طبيباً ! : : : » .

* * *

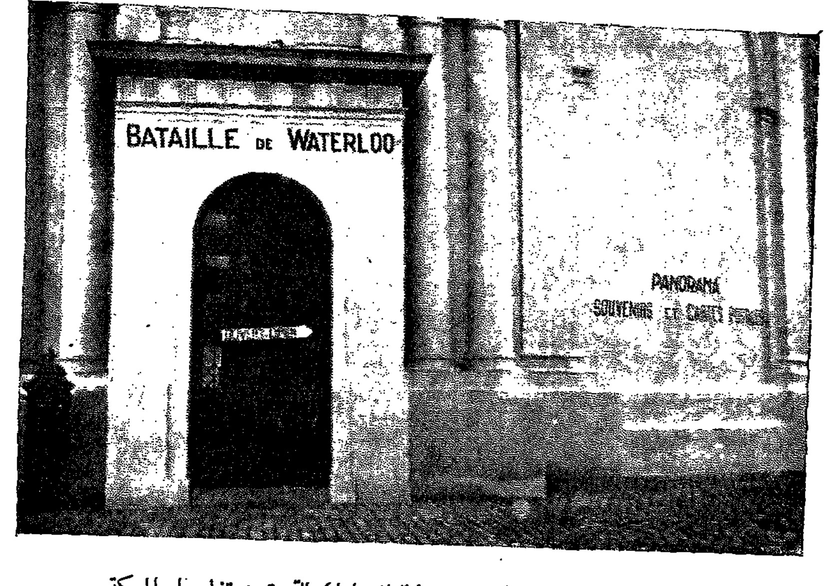
وبقيت عند كلمتى للمرحوم إسحق صروف ، فامتنعت عن الكتابة حتى تخرجت فى كلية الطب ، ثم سافرت فى بعثة للتخصص فى أمراض الأطفال ، بعد أن قضيت بقصر العينى حوالى أربع سنوات . وعدت من البعثة لأعمل مدرساً فى عام ١٩٣٦ ، ثم اجتذبتنى هواية الكتابة من جديد ، فاتجهت إلى هوامش الطب ، وأخرجت كتاباً عن « حياة الطفل » ، أعيد طبعه ثمانى مرات حتى الآن :

والواقع أننى عندما حاولت تأليف ذلك الكتاب ، كنت أجهل التفاصيل الصغيرة اليومية لحياة الطفل – مثل : الأكل والحمام والنزهة وغيرها – بالرغم من أننى كنت حاصلا على أعلى الشهادات فى أمراض الأطفال وطرق علاجها . ولكنى اضطررت إلى النظر فى المراجع العديدة فى هذا الشأن ، وأخذت أنهل منها ما يفيدنى كوالد ينتظر طفله الأول ، الذى كان فى عالم الغيب حينذاك ، وهو الآن الدكتور خليل ، المدرس بقسم الأطفال بكلية الطب ، فى جامعة الأزهر : : : ومن هنا وجد

الكتاب طريقه إلى قلوب الأمهات فى سهولة ويسر ، واشتد إقبالهن عليه على مدى الأعوام ، مما يغتبط له قلب كل مؤلف .

وهكذا ، كان هذا الكتاب بداية الرجوع لهوايتى القديمة . . . هواية القلم . وكانت مجلة « الثقافة » قد ثبتت أقدامها فى عالم الصحافة ، فدلفت من بابها فى هدوء ، وأخذت أكتب لقرائها الذين كانوا ينتمون إلى طبقة خاصة ، أى أنها لم تكن مجلة كل قارئ . . . وهذا ما كنت أبغيه ، لأنى كنت أفضل الانزواء وأنا أستأنف هوايتى ، حتى لا يعرفنى الجمهور ككاتب ، وأظل فى نظره — أولا وأخيراً — طبيب الأطفال الذى يأخذ بأيدى فلذات الأكباد إلى بر الأمان .

وكان المرحوم الدكتور أحمد أمين — رئيس « الثقافة » — يشجعنى ويوافق على نشر مقالاتى دون تردد . وحدث فى سنة ١٩٤٣ ، والحرب العالمية الثانية مستندة الوطيس ، أننى كنت أصطاف برأس البر ، فى « عشة » مجاورة لعشته رحمه الله . وكان معى كتاب أقرؤه عن حياة « نابليون بونابرت » من تأليف « جوزيف آبوت » ، اجتذبنى من بين صفحاته — التى جاوزت الألف صفحة — ذلك الجزء الذى يصف نهاية نابليون ، منذ فشله فى حملة روسيا إلى وفاته منفياً فى جزيرة « سانت هيلانة » . فأخذت أترجمها على حلقات ، وكنت كلما انتهيت من حلقة ذهبت بها إلى الدكتور أحمد أمين فى عشته ، فأجده جالساً فى كرسى مريح ، ينظر نحو البحر مستنشقاً هواءه العليل ، فيدعونى إلى أن أبقى معه بعض الوقت ، أرتشف مرطباً أو قدحاً من القهوة ، ثم أناوله وريقات الحلقة فيتقبلها فى هدوئه وأدبه



مدخل المبنى الكبير الذى تقع فيه (البانوراما) التى تبين تفاصيل المعركة

المعروفين ، شاكراً إسهامى فى ملء صفحات المجلة ، ثم يرسلها للنشر فيها مع بريده اليومى الخاص .

وظلت الأيام تجرى وأنا ألهث معها ، وإعجابى بنابليون لا يطفئه مر السنين . . . وفى نوفمبر ١٩٦٨ ، انتهزت فرصة وجودى ببروكسل عاصمة بلجيكا ، حيث ذهبت لزيارة ابنتى « ماتسة » وزوجها الدبلوماسى « محمد شلقامى » . . . ففكرت فى زيارة الضاحية التى كانت مسرحاً لمعركة « واترلو » ، وهى تبعد عن بروكسل حوالى الاثنين والعشرين كيلومتراً ، واصطحبنى صديقى « لطفى جاد الحق » — مستشار السفارة — فى سيارته ، وكان اليوم مشمساً جميلا .

وكنت كلما اقتربت من مكان المعركة ، تخيلت صوت نابليون يرن فى أذنى ، وهو يصيح فى جنوده : « إلى الأمام ! » . . . فيطيعونه طاعة عمياء ، غير مبالين بأنهم قد يلاقون حتفهم من عدو ينتظرهم فى الجانب الآخر . ولما وصلت إلى مكان المعركة ، خفق قلبى بعض الشىء ، وانتابنى وجوم أخذ يتلاشى تدريجيًّا كلما توغلت السيارة فى شوارع الضاحية الجميلة ، التى بدت فى حياد غريب ، بالرغم من تاريخها الحافل . . فالمراعى لا يدرك مداها البصر فيها العجول والخراف ، غير عابئة بأن المروج الخضراء كانت مشهداً لمعركة فاصلة ، من أروع وأعظم معارك التاريخ ، وهى معركة « واترلو » . ورأيت بعض المنازل والمبانى على جانبى الشارع الرئيسى ، قيل لى إن تاريخها يرجع إلى أيام المعركة ، وقد تحول بعضها إلى متحف ودار للسينما لا تعرض إلا أفلاماً عن نواح مختلفة من



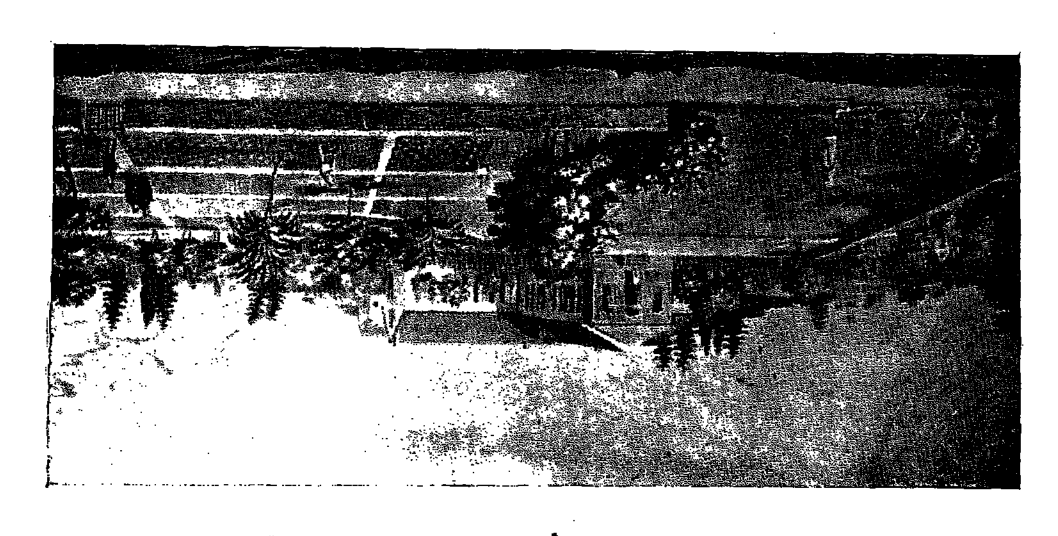
لوحة بواجهة دار السينما بواترلو . ويرى فيها نابليون رافعاً قبعته التقليدية بيده محيياً ضباطه قبل بدء المعركة الفاصلة

حياة « بونابرت » . . . وتجد — كالعادة فى مثل هذه البقع السياحية — مقاهى على درجة عالية من النظافة ، يمكنك أن تتناول فيها المرطبات والمشروبات البريئة .

* * *

ومتى خرجت من المقهى الكبير ، واتجهت يساراً ، يلفت نظرك مبنى كبير بواجهته استدارة ، وقد كتب عليها بخط كبير « بانوراما معركة واترلو » ويدفعك حب الاستطلاع إلى الدخول — مقابل قليل من الفرنكات — لترى معجزة فنية كبرى . . . فإن تفصيلات المعركة التاريخية الكبرى رسمت بالألوان الطبيعية ، على شكل لوحات بلغت من الضخامة درجة كبيرة ، إذ كان كل ما فيها من آدميين وخيول بالحجم الطبيعى . . . كانت الصور مثل الحياة تماماً ، فالخيول النافقة والقتلى من الجنود والضباط يبدو على تقاطيعهم — دون استثناء — كل ما فى الموت من جلال ، وقد تبرز عيون بعضهم من المحاجر ، منبئة بأن الفزع الهائل كان آخر انفعالات حياتهم . . .

وفى ناحية بعيدة من « البانوراما » ، ترى نابليون يتقدم راكباً جواده ، وحوله قواده ، ليحاول المحاولة الأخيرة ، قبل أن يأفل نجمه إلى الأبد . . . وتراه من بعيد مطأطئ الرأس ، وقد طغى الأسى على كل تقاطيع وجهه الصارمة . وكنا نستعين بالنظارات المكبرة لرؤية هذه المناظر ، التى بلغت من روعة الإخراج ودقته درجة يخيل إليك معها أنها تبعد عنك أميالا ، وهى فى الواقع أقرب إليك من هذا بكثير . . . وتظل فترة طويلة من الوقت مدهوشاً مبهوراً ، وأنت تقلب ناظريك مدققاً فاحصاً ، حتى تخرج من



منزل نابليون وحاشيته بلونجوود . وقد أقام فيه ابتداء من ١٠ ديسمبر سنة ١٨١٥

هذا المبنى الضخم ، لترى النور من جديد يؤنسك بعد انقباض .

ولا تكاد تفيق من فيض الذكريات ، حتى تلمح خلف هذا المبنى نصباً تذكارياً فريداً فى نوعه . . . وهو شبه هرمى ، كسيت جميع أضلاعه بالخضرة الدائمة ، ويبلغ ارتفاعه مائة متر على الأقل ، يعلو قمته تمثال أسد كبير رفع ذيله إلى أعلى ، ووضع قدمه اليمنى على كرة كبيرة من البرونز ، وكأنها العالم الخاضع للقوة . . . ويمكن الصعود إلى هذه القمة بوساطة سلم تبلغ درجاته المئات . . .

وفى طريق العودة إلى « بروكسل » ، سألت نفسى قائلا : « هل ارتوى غليلك أيتها النفس المتعطشة دائماً إلى تاريخ رجل أحلامك ؟ ! . . . لقد تسمرت قدماى أكثر من مرة ، وأنا أقف تحت إلحاحك عند تابوته الأحمر القانى ، فى تلك الهوة العميقة الكائنة تحت قبة « الانفاليد» بباريس ، ورجعت تلك القهقرى متتبعاً تفاصيل نهايته المحزنة فى منفاه ، حتى نقل جثمانه إلى فرنسا التى أحبها من كل قلبه . . . وذلك فى الكتاب الذى أسميته : « نابليون على فراش الموت » . . .

والآن ، اقرأ معى بعض ما اقتبسته من كتاب « جوزيف آبوت » عن حياة بونابرت فى أيامه الأخيرة فى سانت هيلانه ، نستعرضها سوياً بمناسبة مرور مائة وخمسين عاماً على وفاته بجزيرة سانت هيلانه !.



عندما فتح التابوت قبل نقل الرفات إلى فرنسا التى أحبها من كل قلبه



مدخل متحف الشمع بواترلو

حملة روسيا بدء . . النهاية

لما آن للنجم أن يأفل ، وللشعلة الدائمة أن تخبو ، أضله الوحى بأن يذهب إلى روسيا ، حيث الخير العميم والنعيم المقيم ، فلم يجد إلا البرد والموت والدمار . . . !

غادر الإمبراطور ميناء « دانتزج » فى ١١ يونيو ١٨١٢ ، ووصل إلى « كونجسبرج » فى اليوم التالى . وهنالك أشرف على تجهيز المؤن والأغذية اللازمة لجيشه خلال زحفه فى روسيا الواسعة الأرجاء ، وكان يهتم بأدق التفاصيل و يملى إرشاداته طول الليل والنهار . . .

وكان قوام الجيش أربعمائة وعشرين ألف رجل ، نظموا فى ثلاثة عشر فيلقا ، عدا الحرس الإمبراطورى . وكان يصحبها بضعة آلاف من عربات الذخيرة ، وقطعان لا حصر لها من الثيران ، وألف وثلثمائة واثنان وستون مدفعاً ، وعشرون ألف عربة من مختلف الأحجام ، ومائة وسبعة وثمانون ألف حصان .

وتحركت هذه الجحافل كتلة واحدة حتى وصلت إلى ضفة نهر « النيمن » وكان الجو بديعاً ، والسماء صافية ، والحقول خضراء مزدهرة . وكانت الثانية صباحاً عندما وصل نابليون إلى بلدة « كاونو » ، فأخذ ينظر إلى الفضاء الواسع أمامه على الضفة الأخرى من النهر . وشعر بدهشة غريبة ، إذ أنه لم يواجه إلا ظلاماً دامساً . . . كان كل شيء يدل على أن أهل هذه المدائن

قد هجروها . والواقع أن « القيصر إسكندر » – عاهل روسيا – كان قد أصدر تعليماته بأن يتقهقر الجيش بانتظام أمام العدو ، وأن يدمر – فى أثناء انسحابه المنتظم – جميع الجسور والقرى والمدائن ، فلا يترك للعدو سوى الجوع والعراء والحر اللافح أو البرد القارس ! .

ونصبت الجسور فى ثلاثة مواقع من النهر ، فأقبل الجيش يعبره فى نظام ودقة ، والإمبراطور يراقبه عن كثب . . . ثم واصل زحفه حتى وصل إلى ضواحى « فيلنا » ، فى اليوم السابع والعشرين . وكان القيصر ألكسندر فى حفلة راقصة ، فى قصر أحد النبلاء ، فلما سمع بأن نابليون يجتاز نهر « النيمن » ، أسرع إلى مغادرتها بعد أن أصدر أوامره بحرق جميع ممتلكاته ومخازنه بكل ما فيها ، حتى لا تقع فى أيدى العدو .

ودخل نابليون مدينة « فيلنا » فى ٢٨ يونيو ، فاستقبل استقبال الغزاة الفاتحين . فقد كانت المدينة عاصمة ذلك الجزء من بولندا الذى اغتصبه الروس . فعدّ أهلها الإمبراطور محرّرهم من ربقة الاستعباد ، ومعيد مجد مملكتهم التى اقتسمتها الدول المحيطة بها .

ومكث نابليون فى هذه المدينة ثمانية عشر يوماً ، نظم فيها شؤون جيشه ، واعتنى بأمر سكان الأرض المحتلة ، فأقام فيهم حكماً صالحاً وهو ينتظر وصول مؤن لجيشه الكبير ، وعلى الرغم من أنه لم يخض معركة ما ، فإنه فقد عشرة آلاف حصان نفقت جوعاً وتعباً وامتلأت المستشفيات بالمرضى من رجال جيشه ، حتى لقد بلغ عدد من لجأ إليها خمسة وعشرين ألفا من الجنود .



نابليون وهو جالس على صخرة فى الجزيرة يملى مذكراته

وفى أثناء مقامه بهذه المدينة ، أرسل إليه القيصر رسولا ليعرض عليه استعداده للدخول فى مفاوضات للصلح ، على شريطة أن يتقهقر نابليون بجنوده إلى ما وراء نهر « النيمن » فرفض الإمبراطور على الفور ، وأظهر استعداده للمفاوضة على شروط معقولة . ولكن القيصر لم يسعه إلا الرفض ، نظراً لارتباطه بمعاهدات مع إنجلترا حدّت — فى ذلك الوقت — من حريته فى العمل .

* * *

ومضى نابليون فى تقدمه والروس ينسحبون أمامه ، تاركين وراءهم الخراب والدمار والنار فى كل مكان — فكانت جياده تنفق لعدم وجود العلف اللازم ، وجنوده يفنون جماعات من الجوع . وكان الجيش قد توغل خمسمائة ميل فى داخل الأراضى الروسية دون أن يلقى مقاومة أو قتالا . فجمع نابليون مجلس الجيش . وأشار عليه معظم أركان حربه بأن يوقف الزحف حتى حلول الربيع . ولكنه رفض هذا الاقتراح رفضاً حاسماً ، وعزم على مواصلة الزحف حتى يحتفظ بسمعته بين رجال جيشه وأفراد الشعب الفرنسى ، الذين كانوا ينتظرون فى لهفة وجزع نتيجة الحملة الروسية . وكان نابليون يعلم أن القيصر قد جمع قواته وعتاده عند مدينة « سمولنسك » ، استعداداً لموقعة فاصلة . فاستأنف زحفه فى يوم ١٣ أغسطس وكان الحر شديداً لافحاً ، فمات كثير من جنوده ، ونفق كثير من خيله ؛ وبعد رحلة شاقة مضنية ، وصل إلى أبواب « سمولنسك » ، مساء يوم ١٦ أغسطس ، فاعتلى نابليون ربوة عالية ، وأخذ يرقب بمنظاره جموع العدو

المحتشدة فى نظام واستعداد . وصاح وهو مغتبط : « ها قد وجدتهم أخيراً ! . . . » .

وحدث قتال بين طلائع الجيشين ، نجح الروس فى أثنائه فى إخلاء المدينة وتدمير مستودعاتها . وبعد منتصف الليل ، فوجئ الفرنسيون باندلاع حرائق هائلة أتت على ما بالمدينة من قصور ومنازل ومخازن وكنائس ، وعندما نفذت فرقة فرنسية إلى المدينة فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، لم تجد فيها جندياً روسياً واحداً . . . بل بلغت قسوة الروس فى تقهقرهم أن تركوا جرحاهم وموتاهم طعمة للنيران . وكان أول أمر أصدره نابليون هو العناية بهؤلاء التاعسين والرفق بهم ما أمكن . وعندما لاح الفجر صعد الإمبراطور إلى قمة إحدى القلاع ، وسدد منظاره إلى الجيش المنسحب فوجده قد انقسم قسمين ، أحدهما اتجه شمالا فى طريق بطرسبرج ، والآخر نحو موسكو . فأصدر أوامره بملاحقة العدو ، ونصب المارشال « ناى » قائداً على الجيش المتجه نحو موسكو .

وتابع نابليون مطاردة الجيش المتقهقر . ومع انتصاراته المتوالية ، استمر الروس فى سياسة التخريب والتدمير ، فأخذت الجيوش الفرنسية تعانى الأمرّين لقلة المؤونة والطعام والمأوى . وازدحمت المبانى — التى نجت من فعل النيران — بآلاف الجرحى والمرضى . وكان الإمبراطور فى حالة يأس شديد . . . فالنكوص يعرّضه لسخرية أوربا ، والتقدّم مغامرة لا يمليها إلا القنوط . . . ومع ذلك ، صمم على مطاردة الجيش الروسى حتى موسكو بجيشه الجائع العارى تقريباً . . ولم يكن يخطر له أن القيصر

إسكندر يجرؤ على حرق موسكو بآثارها الخالدة ، ومجدها التليد ، وسكانها البالغ عددهم ثلثمائة ألف نسمة .

وكان التقدم بطيئاً ومضنياً . وشنت العصابات الروسية حربها على الجنود المنهكين ، وأقامت كل عقبة ممكنة فى سبيل الجيش التعس . . . حتى إذا كان يوم ٤ سبتمبر ، وصلوا إلى مدينة « بورودينو » ، حيث صادفوا أول مقاومة جدية ، إذ تربص بهم جيش قوامه مائة وسبعون ألف جندى ، مجهزين أتم تجهيز ، ومستعدين لبذل آخر قطرة من دمائهم فى سبيل حماية الطريق إلى موسكو . وفحص نابليون جموع العدو المحتشدة عن بعد ، وأدرك بنظرته الفاحصة مواطن الضعف التى يسدد هجومه إليها ليوقع الارتباك فى صفوف العدو . ونصبت الخيام وأخذ الجيش يتأهب للهجوم .

وجلس نابليون فى خيمته يفكر فيما قد يأتى به الغد ، وإذا برسول يحمل إليه خطاباً وصل فى تلك الساعة من زوجته « مارى لويز » ، ومعه صورة لولده العزيز . وكان الفجر يوشك أن ينبلج ، ونابليون يتوقع معركة دامية فاصلة عند انبلاجه . ولكن ذلك لم يشغله عن استقبال الرسول فى الحال . فأخذ منه الرسالة بلهفة عظيمة . . . وحالما وقع نظره على صورة ولده المحبوب انهمرت الدموع من عينيه .

وحاول أن ينام قليلا ، ولكن تعبه وجزعه حالا دون ذلك . وأصابه عطش شديد ، وعبثاً حاول أن يروى غليله . وما إن بزغ الفجر وانقشعت السحب ، حتى امتطى صهوة جواده ، ونظر إلى الشمس المشرقة

فى انشراح وأمل ، وقال لمن حوله : « إننى أرى شمس أوسترليتز » ! ». ودارت معركة حامية ، كلف النصر فيها نابليون غالياً ، فقد فقد ثمانية من أعظم قادة جيشه ، بينهم كونت « كولينكور » .

وما جاء يوم ٨ سبتمبر ، حتى ملك نابليون ناصية الموقف ، فاحتل المدينة . بينما بدأ الجيش الروسى فى التقهقر نحو موسكو . ولم يفرح نابليون بتلك النتيجة ، لأنه فقد فى تلك المعركة — بين جريح وقتيل — ثلاثين ألف جندى وثلاثة وأربعين من القادة الذين لازموه فى انتصاراته السابقة . . . وتصوّر حزن اليتامى والأرامل والآباء والأمهات الذين فقدوا أعزاءهم فى تلك المعركة الدامية ، وثوب الحداد الذى سوف تلبسه فرنسا لضخامة الخسارة وكثرة الضحايا .

ولكنه واصل زحفه ، حتى وصل إلى أبواب موسكو ظهر يوم ١٤ سبتمبر ، وبينما هو معتل صهوة جواده ، أمسك بمنظاره وأخذ يتطلع من بعيد إلى موسكو الخالدة ، بقبابها ومآذنها . وصاح من قلبه قائلا : « يا إلهى ! . . . ها هى ذى عاصمة القياصرة المشهورة ! » . . . وظن الجنود البؤساء أن متاعبهم قد قاربت الانتهاء ، فأخذوا يصيحون بدورهم : « موسكو ! . . . موسكو ! » . . .

وأسرعوا فى التقدم نحو المدينة ، ولكن عجبهم كان شديداً ، إذ لم يلاحظوا فيها أثراً ما للحياة أو الحركة . وجاءتهم الأخبار من فرق الكشافة بأن الروس قد هجروا المدينة . ولم يخطر لنابليون أن النية مبيتة على إشعال النار فيها ، بالرغم من أن معظم سكانها قد أرغموا على اللجوء إلى

الغابات المجاورة ، حيث هلك كثيرون جوعاً وبرداً ، بينما لحق الباقون بالجيش المتقهقر . وكان الانسحاب سريعاً حتى إن السيدات تركن حليهن وأدوات زينتهن فى أماكنها ، وخلف رجال الأعمال أوراقهم ومجلداتهم ومستنداتهم على المكاتب وفى الأدراج :

وعين نابليون « موريتيه » حاكماً على المدينة . وفى الصباح ، انتقل إلى قصر « الكرملين » واتخذه مقرًّا ، وكتب إلى القيصر ألكسندر يعرض عليه صلحاً شريفاً ، مذكراً إياه بصداقتهما القديمة . وأخذ الجنود يجولون فى أنحاء المدينة المهجورة . واحتلوا قصورها الفخمة واتخذوا منها مساكن لهم .

وبقى بالمدينة حوالى عشرين ألفاً من الروس ، وعشرة آلاف مسجون أطلق سراحهم قبل انسحاب الجيش الروسى . فأخذ هؤلاء يعدون العدة فى الخفاء لتدمير المدينة وإحراقها . وتسللوا إلى أقبية « الكرملين » حيث أقام نابليون وأركان حربه ، وإلى جميع القصور والأبنية التى نزل فيها الفرنسيون فدسوا فيها سرًّا مقادير من البارود تكفل لهم الانتقام من محتليها فى الوقت المناسب . . ثم دمروا خزانات المياه وأنابيبها ، وعطلوا وسائل إطفاء الحريق وقد انتهز هؤلاء الروس فرصة الهرج الذى صاحب دخول الفرنسيين المدينة ، ودبروا خططهم دون أن يفطن أحد إليهم .

* * *

أوى نابليون إلى فراشه فى منتصف ليل ١٦ سبتمبر ١٨١٢ ، وهو فى فى أشد حالات التعب وشرود الفكر وانشغال البال . وكانت العواصف

تهب بشدة . وفجأة ، امتلأت الشوارع بتلك الصيحة الرهيبة التي طالما خشيها نابليون : « النار ! . النار ! . » واندلعت ألسنة اللهب فى شرق المدينة ، وسمع دوى الانفجار فى كل مكان ، فنسفت المنازل والقصور بمن فيها . واهتزت أرجاء المدينة فى شبه زلزال مخيف . أو بركان يقذف حممه . وساعدت العواصف على امتداد ألسنة النار فى جميع أنحاء المدينة ، فتحوّلت فى مدة قصيرة إلى جحيم .

واستمرت النيران طيلة يوم ١٧ سبتمبر ، وساعدتها الروابع على الانتشار . . . وأخيراً وصلت إلى قصر الكرملين ، فأحاطت به من كل جانب ، حتى بدا الهرب منه — لأول وهلة — فى حكم المستحيل . وأخذ الإمبراطور وحاشيته يبحثون عبثاً عن مخرج لهم من هذا الجحيم ، وقد كادوا يختنقون بفعل الدخان والنار . . . لولا أن ظهر المارشال « دافوست » وكان برفقة بعض الجنود يبحث عن مولاه . . . فما كاد يلمحه نابليون حتى احتضنه بشوق ولهفة ، ثم تابع معه السير إلى خارج أسوار المدينة ، حيث لجأ إلى قصر « بتروفسكى » ، على بعد ثلاثة أميال من المدينة .

وانسحب الجيش الفرنسى من المدينة ، وعسكر فى الفضاء الواقع حولها . وكان الجزع والجوع قد أخذا منه كل مأخذ ، والشتاء يقترب ببرده القارس ، وقد حرمهم حريق موسكو مأوى يلجأون إليه من قسوته . وكان يفصلهم عن فرنسا أكثر من ألفين من الأميال ، فكان الموقف داعياً إلى اليأس والقنوط بوجه عام .

وأخذت النيران تجنح إلى الخمود أخيراً ، ونجا جانب كبير من

« الكرملين » من عدوانها ، فعاد نابليون إليه مع حاشيته ، فى يوم ١٨ سبتمبر ، فى انتظار وصول رد من القيصر إسكندر عن خطابه . ولما لم يصله الرد ، أرسل مندوباً من قبله لمقابلة القائد العام الروسى « كوتوسوف » فقابله هذا بفتور ، ووعده بمقابلة مولاه القيصر ليعرض عليه خطاب نابليون .

وتحت تأثير هذه العوامل المختلفة ، دعا نابليون مجلس أركان حربه للتشاور . وبعد مناقشات تاريخية ، استقر الرأى على الانسحاب من روسيا .

* * *

مكث نابليون وجيشه فى موسكو أربعة أسابيع . . . ولم يأل جهداً — خلال هذه المدة — فى إعادة تنظيم جيشه ، وإقرار النظام بعد الفوضى التى سادت نتيجة حريق موسكو المدمر . وما أطول الليالى التى قضاها وهو يعمل على راحة جنده — وخاصة الجرحى منهم — ويراقب فى قلق تطوّر الجو المنتظر ! . . . لقد رجع إلى التقارير الجوية الخاصة بالأربعين سنة التى سبقت الحملة ، ليستوثق بنفسه من ميعاد بدء الشتاء الحقيقى فى روسيا ، والأمل يحدوه فى الصلح مع القيصر . . . ولكنه تبين أن الخطر داهم ، لا مفرّ منه . فاستفحل همه ، وشحب لونه ، ونقص وزنه .

وبحلول شهر أكتوبر ، بدأت أوراق الأشجار تتساقط ، تاركة الأغصان عارية تتلقفها رياح الشمال العاتية . وبدأ الثلج والصقيع قبل

ميعادهما الطبيعي بثلاثة أسابيع ، مما زاد في همّ الإمبراطور وتصميمه على الإسراع في الارتماء في أحضان بولندا ، حيث يجد الجنود ناراً وطعاماً ومأوى . وبالرغم من أن المسافة إلى بولندا حوالى ألف ميل ، فإنه صمم على القيام بهذه المغامرة ، معتزماً أن يسلك طريقاً آخر غير الذى سلكه عند زحفه ، آملا أن يصادف مدائن عامرة بدل الخرائب والأطلال والحرائق التي تركها الروس وراءهم .

وبدأ التقهقر في يوم ١٨ أكتوبر ١٨١٢ . وعهد نابليون إلى « مورتييه » – وكان قد عينه حاكماً على موسكو – بحماية مؤخرة الجيش ، وترك معه ثمانية آلاف جندى . وخرج الإمبراطور من قصر « الكرملين » في فجر ١٩ أكتوبر ، والسماء صافية ، والهواء بارد منعش . . . حتى إذا جاوز حدود موسكو ، كانت الشمس قد أشرقت في الأفق البعيد ، فأشار إليها نابليون بإصبعه ، قائلا لمن حوله : « انظروا يا رفاق ! . . . ها كوكبي الحارس ! . . . هيا بنا إلى فالوجا . والويل لمن يقف في طريقى ! . . . »

ثم تقدم إلى مورتييه ، فاحتضنه وقال له بصراحة وحزن : « إن مهمتك شاقة وخطيرة ، ولكن علينا جميعاً واجبات وتضحيات لا بد لنا من أن نتقاسمها » .

ولقد احتمى « مورتييه » بأسوار « الكرملين » ، ووضع في أقبيته وسراديبه مائة وثلاثة وثمانين ألف رطل من البارود ، ووزع براميل كثيرة منه في غرف القصر وممراته ، حتى إذا ما استوثق من أن آخر جندى فرنسى قد رحل عن المدينة ، أشعل النار في البارود فأخذ اللهب يسرى ببطء ،

بينما انطلق هو وجنوده يسحبون بسرعة . ولما رأى القوزاق القصر خالياً ، هجموا عليه طامعين فى الاستيلاء على ما به من نفائس . ولكن . . . ما لبث أن دوى انفجار هائل أتى على القصر وما به ، وقضى على عدد كبير من الجنود المهاجمين . وكان الانفجار شديداً ، حتى إنه أيقظ نابليون من نومه ، مع أنه كان على مسيرة ثلاثين ميلا من موسكو . . . وإذ ذاك تنهد فى ارتياح ، إذ علم أن جنود المؤخرة من الفرنسيين قد غادروا المدينة .

وبدأ الروس يناوشون الجيش المنسحب ، فى مساء ٢٣ أكتوبر . واستمرت كرّات العدو فى فترات متقطعة على الجيش التعس ، ولكن نابليون صمم على متابعة السير ليصل إلى « سمولنسك » و « منسك » ، مهما كلفه ذلك . فمضى الجيش المنهك فى رحلته المحفوفة بالأخطار ، حتى وصل إلى « بورودينو » فى يوم ٢٨ أكتوبر ، وإلى « فيازما » فى يوم ٣١ منه . وهناك عهد نابليون إلى المارشال « ناى » بمهمة حماية مؤخرة الجيش . وعندما استأنف الجنود مسيرهم ، هبت عاصفة ثلجية على الجنود ، فدُفن الكثيرون منهم أحياء تحت الثلج . ويا ليت الأمر قد وقف عند هذا الحد ، بل أحاطت بالجيش — وهو فى مُحنته — جماعات من جنود العدو ، أخذت تصليه ناراً حامية . وكان القوزاق يمثلون بجثث الموتى أشنع تمثيل ! . . .

هكذا استمرت الحال طيلة الطريق إلى « سمولنسك » . . . وما إن يأتى الليل الطويل ببرده وثلجه وعواصفه حتى تهلك معه الألوف من البشر

والخيل . وكان الجنود ينزعون الجلود الجياد النافقة ويلتحفون بها ، ويضطرون أحياناً إلى قتل الجياد حتى يرتووا بدمائها الساخنة ، لعلها تساعدهم على مقاومة البرد . وكان المارشال « ناى » يتولى حماية المؤخرة على أوفى وجه ، طيلة الرحلة . . . وجنوده يسقطون الواحد تلو الآخر ، فيستبدل بهم غيرهم . وأبدى المارشال من ضروب الشجاعة والبطولة ما جعل نابليون يطلق عليه لقب « أشجع الشجعان » :

* * *

وقبيل الوصول إلى « سمولنسك » ، وصل مبعوث يحمل بعض الرسائل إلى الإمبراطور ، فأخذ يفضها باهتمام وتلهف ، وإذا به يعلم بتدبير مؤامرة فى باريس لقلب الحكومة الإمبراطورية . فقد زوّر أحد الضباط — واسمه « ماليه » — مستنداً يثبت موت نابليون فى أثناء الحملة الروسية ، فساد الذعر فى البلاد ، وانتهز « ماليه » الفرصة فجمع حوله بضع مئات من الحرس الأهلى ، وحاول أن يقبض على زمام الحكم . . . ولكن المؤامرة سرعان ما أحبطت ، وقبض على الضابط وأعدم رمياً بالرصاص .

وعلى أثر قراءة هذا التقرير ، صمم الإمبراطور على أن يسافر وحده ، فى أقرب فرصة يطمئن فيها على مصير جيشه .

واستغرق لم شعث الجيش خمسة أيام . ولكنه لم يكد يستأنف رحلته ، منطلقاً من « سمولنسك » ، حتى صادفته متاعب أخرى بسبب إغارات العدو المتوالية . وكان أهمها الهجوم الكبير الذى قام به القائد الروسى « كوتوسوف » ، بجيش من تسعين ألف رجل ، وافى العدة ووافر الغذاء

والملبس . وكانت المعركة شديدة ، خسر فيها نابليون الآلاف من جنوده ، واضطر لامتشاق الحسام بنفسه ، قائلا : إننى أنزل من مقامى كإمبراطور ، لأعود إلى منصب الجنرال الذى طالما تقت إليه » . وقاد جنوده واخترق صفوف العدو ، وأوقع الاضطراب فيها ، مما اضطر الروس إلى الانسحاب — بالرغم من تفوقهم عدداً وعدة — بعد أن تكبد الفريقان خسائر فادحة .

وواصل الجيش الفرنسي سيره ، وقد أخذت منه الضربات المتوالية كل مأخذ . ولعل كارثة عبور نهر « البيريسينا » كانت أشد كارثة لحقت به ، إذ كان الروس قد دمروا الجسر الوحيد القائم على النهر ، فاضطر الفرنسيون إلى أن يقيموا جسراً آخر . وفعلا نجحوا فى تحويل أنظار العدو المتربص بهم ، ريثما أتموا بناء الجسر . . . وكانوا يشتغلون فى أثناء الليل ، ويختبئون فى الغابات فى أثناء النهار . . . والإمبراطور يشرف بنفسه على العمل .

ولما حان وقت عبور النهر ، تقدم نابليون الجموع فانتقل إلى الضفة الأخرى . وصاح عند وصوله : « إن نجمى لا يزال عالياً ! » . . . ولكنه لم يكد يتم عبارته ، حتى انطلقت مدافع الروس مصوّبة قنابلها الفتاكة نحو الجسر ، فغرق وقتل ألوف من جنوده . ولكن نابليون قاد قواته لرد هجوم العدو ، بينما أخذ المهندسون فى إصلاح الجسر ، منتهزين فرصة انصراف العدو عنهم . واضطر العدو أخيراً إلى التقهقر ، مؤجلا انتقامه إلى فرصة أخرى .

ووصل الجيش المنكوب إلى الأراضى البولندية ، فاطمأن نابليون نوعاً ما ، ودعا قواده إلى العشاء ، ثم أبدى لهم رغبته فى الرحيل إلى فرنسا ،

تاركاً لهم مهمة إتمام الرحلة ، مؤكداً لهم أنه سيعود إليهم قريباً على رأس ثلثمائة ألف جندى مجهزين مدربين . لاستئناف الزحف على روسيا . ثم ضمهم إلى صدره الواحد بعد الآخر مودعاً .

وبعد رحلة قصيرة — تعرض نابليون فى أثنائها للأسر بضع مرات — وصل ومرافقوه بسلام إلى « فيلنا » ، ودخلوا « وارسو » فى ١٠ ديسمبر . وبعد راحة قصيرة ، استأنفوا رحلتهم ، فوصلوا « درسدن » فى الساعة الواحدة بعد منتصف ليل ١٤ ديسمبر . . . وفى منتصف ليل ١٨ ديسمبر ، كانوا على أبواب باريس .

فى الأسر

وكأنما بدأ نحسه بحملة روسيا . . فتوالت النكبات والهزائم ورضى بأن يذهب إلى جزيرة « البا » ليقضى بقية حياته . ولكن طموحه إلى الغزو والسيادة دفعه إلى محاولة الهروب من الجزيرة ، والعودة إلى أرض الوطن ليجرب حظه مرة أخيرة . . فكانت موقعة « واترلو » ، التى عاد منها محطماً مهزوماً . . وانتهى به الأمر إلى الوقوع فى أسر أعدائه . .

« دعونى وحدى ! »

فاه نابليون بهاتين الكلمتين إذ عاد إلى قصر « الأليزيه » ، عقب انسحابه من ساحة « واترلو » ، التى أفل فيها نجمه إلى الأبد . . . وكان وصوله بعد منتصف الليل بقليل ، فوجد فى انتظاره — عند باب القصر — بعض خدمه المخلصين ، وصديقه الحميم « كولينكور » . وكان الإعياء بادياً بوضوح على وجهه ، إذ أضناه التعب والسهر والسفر الطويل . وفيما هو يصعد درجات السلم ، خانته ساقاه وكاد يسقط ، لولا أن أمسك صديقه بذراعه . وكان هذا الرجل الذى دوّخ العالم مطاطئ الرأس ، غائر العينين ، مهدل الثياب ، يتمتم بعبارات الأسى والحزن على ما صار إليه أمره وأمر جنوده وقواده البواسل . . . حتى إذا ما وصل إلى أول مقعد صادفه ، ارتمى عليه ، وتنهد بحرقة ، وقال فى تضرع لمن حوله : « دعونى وحدى ! » .



(مكان المعركة) مراع شاسعة تمرح فيها العجول والخراف

وبعد أن استراح قليلا ، قام إلى الحمام . فأزال عن جسمه آثار المعركة ثم ارتمى على فراشه محاولا النوم دون جدوى . وأخيراً استدعى صديقه « كولينكور » ، وأخذ يتحدث إليه فى هدوء ممزوج بالحزن قائلا : « إن الضربة التى أصابتنى فى واترلو قاتلة بلا ريب ، ولا أمل لى فى النهوض بعدها . . . لقد كانت خطتى ترمى إلى منع اتصال الجيشين المعاديين ، وكدت أنجح لولا أن خاننى الوغد « بورمونت » وانضم إلى الأعداء فى آخر لحظة . . يا للخائن الوغد ! . إن دم فرنسا كلها يقع على رأسه ، وسوف تحل عليه اللعنة إلى الأبد ! . . أما « جروشى » فقد تأخر فى الوصول إلى نجدتى ، ولا أدرى أكان ذلك بدافع الخيانة أيضاً ؟ ! » .

وبعد أن سكت قليلا ، استطرد قائلا : « سأدعو المجلسين الى اجتماع أصف لأعضائهما فيه — بكل أمانة ودقة — تفاصيل النكبة وأسبابها ، وأناشدهم القيام بمحاولة أخرى لإنقاذ الوطن . فإذا استجابوا دعوتى ، حملت على الأعداء حملة أرجو الله أن يوفقنى فيها » .

وساد الفزع والهلع باريس ، إذ تتابعت الأخبار بتقدم قوات « بلوخر » و « ولنجتون » نحو العاصمة الفرنسية ، وانتهز أعداء نابليون السياسيون فى داخل البلاد — فرصة انحطاط الروح المعنوية عند الشعب ، فأخذوا يذيعون أن نابليون هو أس البلاء ، وأن الحرب القائمة حرب أعلنها الحلفاء ضد نابليون وليست ضد فرنسا ، فإذا نبذت فرنسا نابليون وأقصته ، نجت من الأهوال . . . وراح هؤلاء الدساسون يناشدون بنى وطنهم أن يخلعوه ويختاروا إمبراطوراً جديداً ، أو يؤسسوا جمهورية



لوحة تمثل نابليون بونابرت على واجهة المتحف بقرية واترلو

تنقذهم من الوحدة التى أرداهم فيها نابليون .

واجتمع المجلسان ، فكانت أغلبية الآراء فى غير صف نابليون ، الذى استنتج من التفاصيل التى ترامت إليه عن سير المناقشات أن تنازله عن العرش أصبح محتماً . . . فلما وصل إليه قرار المجلسين النهائى بمطالبته بالتنازل عن العرش ، قال لمن حوله فى حزن : « لقد ضاع كل شىء ، سوف يملى الحلفاء علينا شروطهم ، وتقع البلاد تحت رحمتهم . . . كل ذلك بسبب هذه الغلطة الشائنة التى ارتكبها النواب والشيوخ بقرارهم عزلى . ماذا يظن هؤلاء السذج البلهاء ؟ . ! . . . إن فى إمكانى حل المجلسين ، والتخلص من مضايقة أعضائهما . ولكن لا ! . . . لن أضحى الآن بفرنسى واحد فى سبيل تحقيق مطامعى » .

وهكذا انقضى يوم ٢١ يونيو فى مناقشات حادة بمجلسى البرلمان والوزراء . وأوى نابليون إلى فراشه — فى آخر الليل — سقيما ، مضعضع القوى . وسهرت باريس طول الليل ، فلم تنم حتى الصباح ، بل قامت فيها المظاهرات الحماسية . وطالب الشعب بالسلاح ليحمى إمبراطوره المحبوب . . : ولكن ، ماذا تجدى حماسة الشعب وقد قرر ممثلوه عزل الإمبراطور ؟ .

وأخذت الحوادث تتتابع بسرعة خلال نهار ٢٢ يونيو ، فتسلم الإمبراطور صيغة قرار أعضاء المجلسين ، يناشدونه فيه أن يتنازل عن العرش خدمة لفرنسا التى أحبها وأحبته . وقابل نابليون المندوب الذى سلمه القرار بكل رقة ولطف ، ووعده بجواب سريع عاجل . ثم أخذ يذرع الغرفة

ممليا على سكرتيره نداء للأمة الفرنسية ، يعلن فيه تنازله عن العرش . ومما جاء فيه : « إن حياتى السياسية قد انتهت إلى الأبد ، وإنى أنادى بابنى نابليون الثانى إمبراطوراً على فرنسا ، وآمل أن يوفق المجلسان بسرعة فى تعيين الأوصياء على العرش ، حتى تتحد الأمة تحت لواء ملكها الجديد ، وتحافظ على كيانها واستقلالها . وأرجو من كل قلبى أن يثبت الحلفاء ما رددوه كثيراً من أن كرههم ونقمتهم منصبان على شخصى ، وأنهم لا يضمرون لفرنسا إلا كل خير .

* * *

وبزغ فجر ٢٣ يونيو فبدأت معه فترة من أحرج الفترات فى تاريخ فرنسا . . . فقد كانت جيوش الحلفاء تتقدم بسرعة نحو العاصمة ، بينما كانت البلاد بلا حاكم ولا حكومة . وقضى الإمبراطور يومه بقصر « الأليزيه » كأى مواطن عادى ، مجرداً من السلطان ، وأخذ يجاذب من كانوا حوله أطراف الحديث . ولما سأله أحد أفراد حاشيته عما ينوى عمله ، أجاب بدون مبالاة : « لم أقرر بعد ما أنوى عمله ، وإنى أتساءل : ما الذى يمنعنى من البقاء هنا ؟ . . . لماذا لا أعيش فى معزل عن الناس ، يحيط بى بعض الأصدقاء الذين أخلصوا لعرشى لا لسطوتى ؟ . . . وإذا رفضوا السماح لى بالبقاء فى أرض الوطن فإلى أين أذهب ؟ . . . لا أظن أن وجودى فى إنجلترا أمر مرغوب فيه . إذن ، فلتكن أمريكا مقصدى ، حيث يمكننى أن أعيش فى هدوء محتفظاً بكرامتى ! » .

وازدادت رغبة الإمبراطور فى الإسراع بالرحيل ، فأرسل إلى الحكومة

يطلب منها أن تعد له بارجتين حربيتين ليرحل ومرافقوه عليهما عن البلاد . وطلب من « فوشيه » أن يتوسط لدى الحلفاء ليمنحوه أمان المرور إلى الشاطىء حيث يغادر البلاد . ولكن الدوق « ولنجتون » رفض هذا الطلب ، وأمر بتشديد الرقابة على الشاطىء حتى يحول دون هروبه .

وفى ليل ٢٧ يونيو ، أوعز « فوشيه » وأعوانه إلى بونابرت بأن الباخرتين اللتين طلبهما موجودتان فى ميناء « روشفور » فى انتظار أوامره ، وأن عليه أن يذهب إلى هذا الميناء لينتظر الفرصة السانحة للإبحار بسلام . ولم يكن ذلك إمعاناً فى الإخلاص من « فوشيه » ، ولكن خوفاً من أن يضع الإمبراطور نفسه مرة أخرى — فى ساعة يأس — على رأس الأمة الفرنسية ، فتبدأ المتاعب من جديد .

وفى هذه الأثناء ، استولى الحلفاء على « كامبين » ، وهى على مسيرة يومين من باريس . فحاول نابليون أن يلهب الشعور فى قلوب القائمين بالحكم إذ ذاك ، مظهراً استعداده لقيادة الجيش من جديد . وكاد ينجح فى مسعاه ، لولا معارضة « فوشيه » ، بحجة أن وجود نابليون على رأس الجيش يوغر صدور الحلفاء من جديد ، فيتشددون فى حملتهم ، وفى شروط الهدنة والصلح . وكان « بلوخر » و « ولنجتون » واثقين من النصر النهائى ، فأخذت جيوشهما تتوغل فى الأراضى الفرنسية دون انتظام ، بحيث كان من السهل على نابليون أن يردهم على أعقابهم لو أنه جمع جيشاً قويًّا ، وألهبت صدور جنوده برغبة ملحة فى محو عار موقعة « واترلو » . وفعلا ارتدى ثياب المعركة ، وأعد جواده على باب القصر وجمع أركان حربه...

وإذ برسول يحمل إليه جواب الحكومة برفض اقتراحه هذا ، فعلق على هذا القرار بقوله : « حسناً . سوف يندمون على ما فعلوا ! . . . » وأمر بإعداد معدات الرحيل إلى الشاطئ .

وكان ينتظره عند باب القصر بعض أصدقائه الأوفياء . الذين صمموا على مشاركته فى محنته حتى النهاية ، مثل الكونت « برتران » وزوجته وأولاده . والكونت « مونتولون » وزوجته وولده ، و « لاس كاساس » وولده .

* * *

وصل الركب فى الساعة العاشرة مساء إلى « رامبوبيه » ، بحيث قضى الجميع ليلتهم . ثم استؤنفت الرحلة فى صباح ٣٠ يونيو . . . وبعد ثلاث ساعات وصلوا إلى « شاتودان » ، حيث استقبلتهم صاحبة الفندق سائلة فى لهفة — دون أن تعلم شخصية ضيوفها — عما أشيع عن اغتيال الإمبراطور ولكنها لم تكد تلمحه حتى عرفته فى الحال ، فرفعت عينيها إلى السماء ضامة يديها إلى صدرها ، ثم انفجرت باكية كأنها تشكر العناية الإلهية . وتأثر نابليون حتى اغرورقت عيناه بالدموع ، وربت على كتفيها شاكراً ومواسياً .

أخيراً وصل الركب إلى ميناء « روشفور » . حيث كانت الباخرتان الحربيتان اللتان أوصى بهما الإمبراطور راسيتين فى الميناء . وكان « فوشيه » قد أوعز إلى الأسطول الإنجليزى بأن يشدد الحصار على الشاطئ الفرنسى ، حتى يحول دون فرار نابليون .

وفى الساعة الرابعة من مساء يوم ٨ يوليو ، ركب الإمبراطور المعتزل قارباً صغيراً حمله إلى البارجة الفرنسية « سال » ، حيث قضى يومى ٩ و ١٠

يوليو ، ينتظر عبثاً صدور الأمر إلى البوارج الإنجليزية للسماح له بالمرور . ولما طال انتظاره ، أوفد شخصين من حاشيته وهما الدوق « روفيجو » و « لاس كاساس » إلى قائد الأسطول الإنجليزى ، فأخبرهما الكابتن «ميتلند» ــ قائد البارجة « بلليروفون » ــ بأن لديه أوامر صريحة بأسر أية باخرة تحاول اختراق نطاق الأسطول المحاصر ، وإنه سيتصل بالقائد العام للأسطول ليرى إذا كانت لديه أية تعليمات أخرى .

وعندما بلغ نابليون هذا الجواب فكر قليلا ، ثم أعلن عزمه على بدء رحلته فى الحال ، وبالرغم من كل عائق . وأمر الدوق « روفيجو » بأن يصدر أمراً باسم الإمبراطور إلى قائد السفينة ليبحر فوراً . وما كان أشد دهشته عندما أجابه الكابتن « فيليبرت » بأن لديه أوامر من الحكومة الفرنسية بألا يحاول الإبحار إذا وجد فى ذلك أى تعريض للسفينة للخطر . وعندها صاح الدوق غاضباً : « إن فى الأمر خدعة . إن الحكومة تتآمر على تسليم الإمبراطور للأعداء ! » .

وفى أثناء هذه المحنة القاسية ، تقدم قائد الباخرة الدينمركية « بايادير» ــ وكانت راسية فى الميناء ــ فعرض على نابليون حمايته، مؤكداً له أن فى إمكانه الهرب به من نطاق الحصار ، فقد أعد له مخبأ سرياً فى سفينته، لن يتوصل العدو إلى اكتشافه. ولكن الإمبراطور رفض هذا العرض فى أدب وظرف ، وفضل البقاء أسيراً على أن يترك رفاقه تحت رحمة أعدائه فى داخل البلاد وخارجها .

وعرض عليه شقيقه « جوزيف بونابرت » ــ وكان يشبهه شبهاً كبيراً ــ

أن يحل محله ، ليتسلل نابليون إلى « بورد » ، حيث أعدت كل المعدات للرحيل إلى الولايات المتحدة . ولكن الإمبراطور رفض بشدة أن يضحى بأخيه ، وشكره على جميل عواطفه .

واقترح البعض عليه أن يعود إلى فرنسا ويبدأ الحرب من جديد ، فرفض ذلك مفضلا الموت والأسر على الزج بأمته فى أتون حرب أهلية . وآثر الانتظار ريثما يصل إليه جواب القائد الإنجليزى .

* * *

أرسل الإمبراطور مندوبيه مرة ثانية إلى الكابتن « ميتليند » يوم ١٤ يوليو ، فأبلغهما بأن الأوامر صدرت إليه بأن يستقبل الإمبراطور على ظهر البارجة « بلليروفون » ، إذا رغب فى السفر إلى إنجلترا . ولما بلغ نابليون هذا القرار ، أخذ يتشاور مع أصدقائه فيما يجب عمله ، فانحازت الأغلبية إلى الرأى القائل بأن يضع الإمبراطور ثقته فى الشرف البريطانى ، ويسلم نفسه للإنجليز . ولم يشذ عن هذا القرار إلا اثنان هما الكونت « مونتولون » والجنرال « جورجود » ، اللذان حذراه من الوثوق بوعود الحكومة الإنجليزية ، مهما كان واثقاً من عطف وكرم ضيافة الشعب الإنجليزى .

وأخيراً تناول الإمبراطور قلما وقرطاساً ، وكتب إلى جورج الرابع ملك إنجلترا ، الخطاب التالى :

« رغبة منى فى تجنب سفك الدماء ، وإزاء تألب جميع القوى لهدمى ، وجدت أن أقومَ سبيلٍ هو إنهاء حياتى السياسية ، واللجوء إلى إنجلترا لأتمتع بدفء نار الموقد الإنجليزى العتيد ، ولأضع نفسى تحت حماية القانون الإنجليزى العادل » .

وكانت الساعة إذ ذاك الرابعة بعد الظهر ، فأوفد « لاس كاساس » و « جورجود » إلى البارجة « بلليروفون » ليعلنا قائدها بأن الإمبراطور يصل إلى ظهرها فى اليوم التالى .

وعهد إلى « جورجود » كذلك بحمل الخطاب المرسل إلى جورج الرابع وبأن يحاول تسليمه بنفسه إلى يدى الملك. ثم قال له : «إذا سئلت عن البلاد التى أفضّل النزوح إليها ، فليكن الاختيار الأول : الولايات المتحدة الأمريكية . وإذا رفضوا ذلك ، فإنى أفضل البقاء فى إنجلترا نفسها . حيث يمكننى قضاء بقية حياتى فى ريفها الجميل على بعد عشرة أو اثنى عشر ميلا من لندن ، متنكراً تحت اسم الكولونيل مويرون أو دوروك ، وسأختار لسكناى بيتاً كبيراً يكون فيه متسع لجميع أفراد حاشيتى وزوجاتهم وأولادهم » .

وسمح للجنرال جورجود بالسفر إلى إنجلترا ، ولكن حيل بينه وبين النزول إلى البر ، فأرسل الخطاب الذى يحمله إلى بلاط « سان ، جيمس » على يد رسول خاص .

وفى أثناء ذلك دخل الجنرال الفرنسى « بيكر » إلى غرفة الإمبراطور فى البارجة ، وأخبره بأنه وصل إلى علمه أن حكومة آل « بوربون » — التى خلفته فى فرنسا — أوفدت بعض الضباط للقبض عليه ، فلما سمع نابليون بذلك ارتدى ملابسه بسرعة ، واستعد للرحيل عند بزوغ الفجر ، فاستقل قارباً صغيراً حمله إلى البارجة الإنجليزية « بلليروفون » تصحبه حاشية من ضباط وسيدات وأطفال وخدم بلغ مجموعهم ٥٩ شخصاً . : . وعلى

سطحها استقبله الكابتن « ميتلند » وبقية الضباط استقبالا يليق بمقامه . وحالما وضع قدمه على ظهر السفينة ، خاطب قائدها قائلا : « إننى أتيت سفينتك ، لأضع نفسى تحت حماية القانون الإنجليزى » .

فانحنى القائد باحترام وتأثر ، وصحب الإمبراطور إلى غرفة أعدت له ، ثم قدم له جميع ضباط الباخرة .

واستغرقت الرحلة إلى الشاطئ البريطانى حوالى تسعة أيام ، لأن الرياح كانت شديدة ، والأمواج متلاطمة . وقد سُرّ الإمبراطور كثيراً من الرحلة ، وكان يقضى معظم الوقت بين ضباط البارجة وبحارتها ، مظهراً إعجابه بنظامهم وهندامهم . وأزالت المعاملة الحسنة — التى لقيها على ظهر السفينة — شكوكه فى نيات إنجلترا نحوه. وكان كلما اقترب من الشاطىء الإنجليزى ، ازداد طمأنينة ، وتضاعف حب الضباط والبحارة له ، حتى إنهم كانوا ينادونه بمولاى أو صاحب الجلالة . فإذا سار على ظهر السفينة خلعوا قبعاتهم بكل احترام وإجلال .

وفى الساعة التاسعة من صباح ٢٥ يوليو ، ألقت الباخرة مرساها فى ميناء « توربای » . وما كاد يذاع خبر وصولها ، حتى احتشدت فى الميناء مئات القوارب حاملة رجالا ونساء من جميع الطبقات ، وقد أتوا ليفوزوا بنظرة إلى الرجل الذى ملأ العالم إعجاباً . وقد خرج الإمبراطور إلى ظهر الباخرة مراراً ، وكانت النساء تلوحن بمناديلهن فى كل مرة ظهر فيها . وفى مساء اليوم ذاته استؤنفت الرحلة . ورست السفينة بميناء « بليموث » فى ظهر اليوم التالى . وفى الحال أدرك الإمبراطور أن فى الجو شيئاً غير عادى .

إذ لاحظ تغييراً ظاهراً فى نفسية الكابتن « ميتلند » ، فقد بدا حزيناً شارد الذهن على غير عادته . وأحيطت السفينة بسياج من القوارب ، لمنع أى شخص من الاقتراب منها أو مغادرتها بدون إذن خاص من أميرال الأسطول .

* * *

وفى مساء ٣٠ يوليو ، صعد إلى ظهر السفينة السير « هنرى بانبورى » والأميرال « كيث » وقرأ أحدهما على الإمبراطور القرار الآتى :

« إن واجب الحكومة الإنجليزية إزاء نفسها وحلفائها يقضى بأن تقوم بمنع الجنرال بونابرت من القيام فى المستقبل بأى عمل يؤثر على السلم العالمى . ولذلك تقرر إرساله إلى جزيرة « سانت هيلانه » ، حيث يمضى بقية حياته . وقد يحب الجنرال أن يعلم أن جو الجزيرة صحى ، وأن موقعها البعيد سيساعده على التمتع بحرية التجول فى أنحائها دون أن يكون هناك خطر على حياته » .

وترك له أن يختار من رجاله طبيباً وثلاثة ضباط واثنى عشر خادماً يصطحبهم ، ويعاملون كأسرى حرب طول مدة إقامتهم معه . وقد انتدب السير « جورج كوكبورن » باصطحاب الإمبراطور ، ونبه عليه بأن يناديه بلقب « جنرال » ، وليس صاحب جلالة أو إمبراطور .

أصغى نابليون إلى هذا القرار بهدوء ووقار ، دون أن تظهر عليه علامات التأثر ، حتى إذا ما انتهى من سماعه ، قال بكبرياء : « إننى ضيف إنجلترا ولست أسيرها ، لقد أتيت من تلقاء نفسى لأحتمى بالقانون الإنجليزى

العادل ، الذى داست عليه حكومتكم بفعلتها هذه . إننى أحتج بشدة ، وأناشد مرة ثانية الشرف الإنجليزى ! » .

ولما انصرف المندوبان التفت نابليون إلى من حوله وقال : « سانت هيلانه ! . لا أصدق أن هذه الجزيرة النائية ، الشديدة الحرارة ، تصبح مأواى الأخير ! . . . ليتهم سلمونى إلى آل بوربون ، أو سجنونى فى برج لندن ، أو فى إحدى قلاع إنجلترا الحصينة . إنهم يريدون التخلص منى بسرعة ، فجسمى لا يتحمل طقساً فظيعاً كطقس جزيرة سانت هيلانه ! ».

وازداد عطف الشعب الإنجليزى على الأسير العظيم ، فتطوعت اثنتان من كبريات الصحف للدفاع عنه . وأخذ أفراد الشعب يتجمعون كل يوم على الشاطئ ، وفى القوارب ، يهتفون له كلما لمحوه على ظهر السفينة . وهو يجيب عليهم بتلويح قبعته المشهورة . وتشجع نابليون إذ رأى وشعر بهذا العطف الشديد من أفراد الشعب ، فكتب — بناء على اقتراح محاميه الإنجليزى — الاحتجاج التالى إلى الحكومة الإنجليزية فى ٤ أغسطس ١٨١٥ :

« إننى أحتج بشدة على هذا الاعتداء الصارخ على حريتى وشخصى : لقد أتيت إليكم بمحض إرادتى لأكون ضيفكم لا أسيركم . لقد كانت ثقتى كبيرة فى عدالة القانون الإنجليزى ، فحذار من حكم التاريخ الذى سوف يتكلم عن غدركم بعدو حاربكم عشرين عاماً ، ثم سلم مختاراً فى ساعة محنة وانكسار ، فإذا بكم تغدرون به وتستغلون ضعفه وتجرده من سلاحه » .

وفى اليوم التالى ، أعلن نابليون إلى قائد السفينة أسماء الذين وقع عليهم

اختياره لمرافقته فى الرحلة »، وهم : « المرشال « برتران » ، والكونت « مونتولون » ، والكونت « لاس كاساس » . وإزاء تصميم الجنرال « جورجود » على مرافقة مولاه ، سمحت له الحكومة بالسفر أيضاً .

وفى مساء ٧ أغسطس صعد إلى ظهر السفينة « بلليروفون » كل من الأميرال « كيث » والأميرال « كوكبورن » ، وعليهما أمارات الارتباك والخجل. وأخيراً تشجع الأميرال كيث ، وقال للإمبراطور فى صوت خافت إن لديه أوامر من حكومته بتفتيش حقائبه وحقائب زملائه ، ومصادرة كل أموال يعثر عليها ، حتى لا يستخدمها «الجنرال» فى محاولة الهرب من منفاه . على أن تحتفظ الحكومة بهذه الأموال حتى وفاته ، وبعدها تنتقل بكل أمانة إلى الأشخاص الذين يختارهم فى وصيته .

وقام الأميرال « كوكبورن » بمهمة تفتيش الحقائب بكل دقة ، ولم تسلم حتى الملابس الداخلية وثياب النوم . وقد عثر على حوالى مائة ألف فرنك ذهباً ، مصادرها إلا مبلغ اثنى عشر ألف فرنك تركها فى عهدة خادم نابليون الخاص « مارشان » ، ليستعين بها مولاه فى نفقاته الخاصة . ولم يجرؤ الأميرال على تفتيش جيوب الإمبراطور والملابس التى كانت عليه ، وبذلك سلمت من المصادرة مجوهرات وحوالات مالية قيمتها أربعه ملايين فرنك .

وكان نابليون — فى أثناء ذلك — واقفاً فى غرفته ، يرسل البصر خلال النافذة مفكراً حزيناً ، — وبجانبه رفاقه خاشعين ساكنين احتراماً لحزنه . وإذ هم فى هذا الموقف الرهيب ، دخل عليهم اللورد « كيث » وقال

بصوت يرتجف لفرط الخجل والاضطراب : « إن إنجلترا تطالب سيفك أيها الجنرال بونابرت » .

فأفاق الإمبراطور من ذهوله ، ورمق اللورد بنظرة جعلته يطأطئ رأسه الأشيب خجلا . . . ولما وضع نابليون يده على مقبض سيفه لتسليمه ، تغلب التأثر على اللورد ، فانسحب نحو الباب قبل أن ينهى مهمته . وعندها ذكره سكرتيره — الذى كان يرافقه — بأن أوامر الحكومة صريحة فى وجوب الحصول على سيف الجنرال ، فنظر إليه اللورد غاضباً وقال بحدة : « ليس هذا من شأنك ! » .

وكان وداع نابليون لقائد السفينة « بلليروفون » ورجالها مؤثراً . قبل أن ينتقل إلى السفينة الحربية « نورثمبرلاند » ، وهى التى اختيرت لتنقله إلى منفاه ، والتى أقلعت — فى ٩ أغسطس سنة ١٨١٥ — به وبحاشيته المكونة من الكونت والكونتس « مونتولون » وابنهما ، والكونت والكونتس « برتران » وأطفالهما الثلاثة ، والبارون « جورجود » ، والكونت « لاس كاساس » ، والدكتور « أوميرا » . وكانت تحرسها عشر سفن حربية . . . وقف الإمبراطور على ظهرها يتطلع إلى الأفق ، حتى إذا ظهرت سواحل فرنسا عن بعد ، حدق الإمبراطور فى صمت وخشوع ، ثم رفع قبعته وانحنى للأرض النائية . وهتف من قلبه قائلا : « وداعاً يا فرنسا . . . وداعاً يا أرض الشجعان ! . » .

وإزاء هذا المشهد خلع الضباط الإنجليز قبعاتهم ، وأحنوا رءوسهم فى تأثر جياش .

على فراش الموت

وصل الأسير أخيراً إلى الصخرة النائية ، بعد رحلة طويلة شاقة . وقاسى ما قاسى من الهول والمذلة والهوان ، حتى رحمه ملاك الموت فاختطفه .

سرعان ما تمالك نابليون شعوره ، وسار فى هدوء وثبات إلى قمرته بالباخرة ، فبقى فيها حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر ، يقرأ تارة ، ويتحدث تارة أخرى إلى من يستدعيه من أفراد حاشيته . ثم ارتدى ملابس العشاء ، وخرج إلى غرفة التدخين ، حيث قضى نصف ساعة يلعب الشطرنج . وفى الساعة الخامسة تماماً ، دخل قائد السفينة ، ودعا الإمبراطور لتناول العشاء . وقضى الجميع أكثر من ساعة بين أكل وشراب وسمر وحديث .

واستمر هذا النظام طول الرحلة . ولم يكن من عادة نابليون أن يستغرق فى تناول الطعام أكثر من عشر دقائق ، ولكنه اضطر — مراعاة لمن معه — إلى أن يبقى معهم طول مدة تناول الطعام ، وكانت تتجاوز الساعتين أحياناً . وكان خادماه الخاصان يقفان خلفه ليقوما بخدمته . . . واعتاد أن يتمشى على ظهر السفينة بعد العشاء لساعة أو أكثر ، فى صحبة أصدقائه ، وفى أثناء هذه الساعات كان نابليون ينسى حاضره ، ويتحدث عن ماضيه سارداً على رفاقه — فى صراحة وبساطة — ما صادفه فى تاريخه الحافل من محن وانتصارات ، ودسائس وانكسارات . واعتاد بعد جولته أن يجلس على

مدفع على ظهر الباخرة ، فيجتمع حوله كل من أنس إليه من البحارة والضباط ، وقد يبقى معهم ساعات محدثاً إياهم فى بساطة وديموقراطية :
وقد سمّى هذا المدفع فيما بعد :
« مدفع الإمبراطور ! » :

وخطر لنابليون أن يتسلى بإملاء مذكراته على صديقه « لاس كاساس » ، فكان إذا حان وقت الإملاء ، جلس هنيهة يفكر ، ثم ينتصب واقفاً ، ويذرع الغرفة وهو يذكر الحوادث مفصلة بتواريخها ومكانها . وكأنه يقرأ فى كتاب مفتوح .

وعند غروب شمس يوم ١٥ أكتوبر ، صاح أحد البحارة قائلا : « ها هى ذى الأرض أخيراً ! » . . . وكان ذلك إيذاناً بقرب الوصول إلى الجزيرة . وفى ظهر اليوم التالى ، ألقت الباخرة مرساها فى ميناء « سانت هيلانه » . وأخذ نابليون يتطلع خلال منظاره ، متأملا هذه الجزيرة القاحلة البشعة المؤلفة من صخور وتلال . ولمح مجرى كبيراً من الماء يترقرق خلال الجزيرة ، كما لفتت نظره كثرة المدافع التى نصبت على كل صخرة وركن من الجزيرة .

ولقد استغرقت الرحلة مائة يوم ، منذ رحيل الإمبراطور من فرنسا ، وسبعين يوماً منذ إبحاره من إنجلترا . أما الجزيرة فصغيرة ، تبلغ عشرة أميال طولا ، وستة عرضاً ، ويحيط بها سور عال من الصخر ، به ثلاثة منافذ هى الطرق الوحيدة للوصول إلى داخل الجزيرة ، وقد أحكم تحصينها حتى لا يتسنى لأى مخلوق الهرب منها بغير علم الحرس المنبثين فى أنحائها .

وفى عصر يوم ١٦ أكتوبر ، تأهب الإمبراطور للنزول إلى سجنه . فأرسل فى طلب قائد السفينة ليشكره على ما لقيه أثناء الرحلة من حسن المعاملة ، وسأله أن يبلغ تحياته إلى جميع الضباط والبحارة ؛ الذين تجمعوا على ظهر الباخرة ليودعوه الوداع الأخير ، وعيون أغلبهم مغرورقة بالدموع .

وعندما وصل إلى الجزيرة ، كانت الشمس قد غابت وراء الأفق . ومشى الإمبراطور فى شارع حقير بقرية « جيمس تاون » ، قاده إلى غرفة متواضعة رثة ، اختيرت ليقضى فيها فترة ، ريثما يتم إعداد منزل له ... وكان بها سرير حديدى بسيط فى مظهره ، عليه حشية ووسادة ... وفى أركانها بعض قطع الأثاث التى لا تليق بمقام الضيف العظيم ، ووقف عند بابها وعند نوافذها حرس مدجج بالسلاح .

رأى نابليون كل ذلك فارتمى على كرسى قريب منه ، وأخذ يفكر فى هدوء وحزن ، ثم رفع رأسه فى تثاقل ، وأمر جميع من بالغرفة بالخروج . ثم أطفأ الأنوار ، وارتمى على فراشه يلتمس الراحة فى الوحدة القاتلة ... وراح يفكر ويفكر . ولا يعلم إلا الله ما جال بخاطره فى ليلته الأولى بالمنفى ! . . .

* * *

فى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى ، امتطى نابليون صهوة جواد ، وخرج يتريض فى صحبة بعض رفقائه . وسار الجميع نحو قرية

« لونجوود » . التى تبعد بمسافة ثلاثة أميال عن « جيمس تاون » ، لمعاينة المنزل الذى احتارته الحكومة الإنجليزية سقراً للإمبراطور بالجزيرة. ولشدما دهش نابليون عندما رأى بقعة جرداء قاحلة ، يتخللها مجرى مائى صغير . ويقوم فى وسطها كوخ حقير كان فيما مضى حظيرة للبقر ، ثم أجريت فيه بعض الإصلاحات ليصبح صالحاً للسكنى . . . وكانت ميزته الوحيدة أنه يقع فى مكان من الجزيرة أقل حرارة وألطف جواً .

عاد نابليون من رحلته محطم النفس ، كسير الفؤاد. وإذ هو فى الطريق ، شاهد منزلا ريفيًّا صغيراً ، فى بقعة اسمها « البرير » : فسأل عما إذا كان فى الإمكان الإقامة فيه حتى يتم إعداد منزله فى « لونجوود » وكان هذا المنزل ملكاً لرجل طيب القلب يدعى مستر « بالكومب » ، قبل عن طيب خاطر أن يفرد إحدى غرف منزله — الخمس للإمبراطور. ولكن هذا رفض أن يضايقه ، وفضّل أن يشغل مبنى صغيراً ملحقاً بحديقة المنزل ، مكوّناً من غرفتين تعلو إحداهما الأخرى ، وهناك قضى نابليون شهرين ، يصحبه « مارشان » خادمه الخاص « ولاس كاساس » وولده .

وكانت هذه أسعد فترة قضاها نابليون فى منفاه ، إذ اندمج اندماجاً كليًّا مع عائلة المستر « بالكومب » ، المؤلفة من زوجته وبنتين وولدين ، وراح يقضى معظم النهار فى صحبتهم ، يضحك ويمزح ، ويطرى جهود مسز « بالكومب » . فإذا جن الليل ، عاد إلى غرفة بسيطة الأثاث . وكان لها بابان ، ونافذتان بدون مصاريع خشبية ولا ستائر تحجز ضوء الشمس أثناء النهار. وكان « لاس كاساس » يحكم إغلاق النافذتين كل

ليلة بعد أن يأوى الإمبراطور المنفى .

أما « مارشان » والخادم الآخر، فكانا يلتفان بعباءتيهما ، ويناما على عتبة الغرفة التى قدر أن يشغلها السيد الذى خدماه إبان سطوته وسلطانه . وكان يحيط بالمنزل حرس مسلح ليحول دون هروب الأسير ا .

وفى ١٠ ديسمبر ، انتقل الإمبراطور وحاشيته إلى « لونجوود » ، حيث تم إعداد بيته المكوّن من بضع غرف صغيرة . ورأى نابليون بعد فحصها أنها لا تكفى لإيواء جميع أفراد حاشيته ، فأقيمت خيمتان فى فناء المنزل ، إحداهما للجنرال « جورجود » ، والأخرى للدكتور «أوميرا» طبيبه الخاص . أما الجنرال « برتران » وزوجته وولده ، فقد سكنوا منزلا صغيراً على مسيرة ميل من بيت مولاهم .

وكانت الرقابة شديدة على الأسرى ، فكان يحرسهم أنى ساروا جنود يحملون بنادقهم . وحرّم عليهم الاتصال بالأهالى أو محادثتهم ، ومنعوا من الدنوّ من شاطئ الجزيرة . وكانوا يرسلون الاحتجاج تلو الآخر إلى الحاكم دون جدوى . وفى ذات يوم ، زار الإمبراطور قائد إحدى السفن التى صحبته إلى منفاه ، وكان على وشك الرحيل إلى أوربا ، وسأله عما إذا كان فى إمكانه أن يؤدى له أية خدمة ، فشكا إليه المعاملة السيئة التى كان يلقاها هو وحاشيته من أولى الأمر بالجزيرة ، ورجاه أن يبلغ الوزراء الإنجليز شديد احتجاجه وعتابه . وأملى على « لاس كاساس » مذكرة جاء فيها ما يأتى :

« إن الإمبراطور يرجو أن يسمع برجوع البريد أخباراً عن زوجته

وابنه ، ويريد أن يتأكد مما إذا كان هذا الأخير لا يزال على قيد الحياة : وهو ينتهز هذه الفرصة ليسجل شديد احتجاجه على المعاملة الشاذة التى يلقاها . : .

« لقد وضع الإمبراطور نفسه — بمحض إرادته — تحت حماية القانون الإنجليزى ، وكان فى إمكانه أن يلوذ بملك آخر ، كالإمبراطور فرانسو والد زوجته مارى لويز ، ولكنه وضع كل ثقته بدون تبصر ، فى عدالة الأمة الإنجليزية ، فكان ما كان .

« إن الإمبراطور ليس أسير حرب كما تزعمون . وإذا سلمنا بهذا الأمر ، فإن لأسير الحرب حقوقاً ثابتة عند جميع دول العالم المتمدينة ، ويطلق سراحه بمجرد انتهاء الحرب .

« إذا كان وزراء إنجلترا مصممين على استمرار هذه المعاملة الشاذة ، فإن الإمبراطور يكون سعيداً لو أصدروا حكماً بإعدامه فى الحال ، فالموت أحب إليه من حياة هى الجحيم بعينه ! » .

وحاول نابليون — فى مناسبة أخرى — أن يكتب خطاباً خاصاً إلى الملك جورج الرابع ، وأرسل إلى حاكم الجزيرة يستأذنه على لسان الجنرال « برتران » . فأصر الحاكم على أن يقرأ الخطاب قبل إرساله . فرأى نابليون أن فى ذلك نيلا من كرامته ، وعدل عن الفكرة .

وفى ١٧ أبريل سنة ١٨١٦ ، وصل حاكم الجزيرة الجديد السير « هدسن لتوه » ولما قدّم إلى الإمبراطور ، اشمأز هذا من منظره ، وقال بعد انصرافه : « إن شكله ووجهه يبعثان القشعريرة فى نفسى ، ولكن

علينا ألاّ نتسرع فى الحكم ، فقد تكون أخلاقه بعكس ما ينبئ عنه وجهه البشع ! » .

ولم يصدق حدس نابليون هذه المرة ، فقد لقى على يدى هذا الحاكم أهوالا نفسية جعلت حياته جحيما لا يطاق . . .

* * *

ومرت الأعوام وحالة الإمبراطور النفسية والمرضية تزداد سوءاً ، يوماً بعد يوم ، لا سيما بعد وصول الحاكم الجديد .

وكانت تقارير شهرى نوفبر وديسمبر من عام ١٨١٨ ، مليئة بأحداث تحوى صنوف العذاب والآلام والمذلة. وبلغ اليأس بالإمبراطور مبلغاً حط ، حتى إنه رضخ أخيراً — فى اليوم العاشر من يناير عام ١٨١٩ — لمشورة أصدقائه ، فسمح بأن يزوره الدكتور « ستوكا » ، جراح البارجة الإنجليزية «كونكرر » . . . أى القاهر : وكان نابليون قد صمم على ألا يرى طبيباً إنجليزياً ، إذ كان الحاكم قد أمر بترحيل طبيبه الخاص « أوميرا» فلما عاده الدكتور « ستوكا » ، وجده فى أشد حالات الألم وانحطاط القوى الجسمية . وقد زاره مرتين فقط ، وجد نفسه بعدهما مضطرًّا لطلب إعفائه من عمله ، لأن الحاكم وحاشيته كانوا يتدخلون فى عمله تدخلا أزعجه .

ومضت التسعة الأشهر التالية فى عذاب مستمر . ولم يأل حاكم الجزيرة جهداً فى أن ينغص على المريض حياته ، لدرجة أن نابليون أمر بإغلاق أبواب بيته ، وعدم السماح لأى شخص من طرف الحاكم أن يزوره

وقد كتب الإمبراطور عن هذا فى مذكراته :

« فى أيام ١١ و ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٦ من شهر أغسطس عام ١٨١٩ حاول بعضهم أن يقتحم دارى للمرة الأولى منذ مجيئ إلى الجزيرة . ولقد أصدرت أوامرى بإغلاق جميع الأبواب وإحكام قفلها . ولقد سبق أن أنذرت أولى الأمر بأن انتهاك هذا الحرم الضيق . المؤلف من ست غرف صغيرة ، لن يتمّ إلا إذا ساروا على جثتى . لقد مضى علىّ عامان وأنا أقاسى من مرض الكبد المتفشّى فى هذه الجزيرة . وقد أبعد الدكتور « أوميرا» فى يوليو عام ١٨١٨ ، والدكتور « ستوكا » فى شهر يناير ١٨١٩ ، ومنذ ذاك الوقت وأنا أقاسى أبشع الآلام دون أن يكون على مقربة منى طبيب يداوينى ويخفف من آلامى . وبينما أتقلب على فراشى من شدة آلام الأزمة الكبدية الأخيرة، التى مضت عليها ستة أيام وليال دون تراخ أو هوادة ، إذا بى أفاجأ بهذا التدخل الذى لا معنى له ، والذى يتنافى مع أبسط قواعد الإنسانية » .

وأخيراً وافقت الحكومة البريطانية على أن يرسل أصدقاء بونابرت فى أوربا طبيباً من لدنهم . ووقع اختيارهم على الدكتور « انتوماركى » ، الذى وصل إلى الجزيرة فى ١٩ سبتمبر من العام نفسه . وقد جاء معه اثنان من رجال الكنيسة ، لأن نابليون ألح فى أن تقام الصلوات والمراسم الدينية فى مملكته الصغيرة بالجزيرة . وكان أحدهما — وهو الأب « نونافيتا » — متقدماً فى السن ، بينما كان الآخر ، وهو الأب « فيجنالى » ، شاباً فى مقتبل العمر. وكانت للإمبراطور معهم — فيما بعد — صولات وجولات فى السياسة والدين ،

مما روّح عن نفسه المكروبة ، وواساه فى محنته :

وفى ٢١ سبتمبر ، استقبل نابليون طبيبه الجديد للمرة الأولى ، وكان ذلك فى الساعة الثانية والربع . وعندما دخل الطبيب الغرفة وجدها مظلمة . وكان المريض راقداً على سرير فى أحد أركان غرفة حقيرة الأثاث ، فلم يره فى مبدأ الأمر ، لولا أنه سمع صوتاً خافتاً رقيقاً يناديه و يدعوه للجلوس : ثم أخذ نابليون يسأله بدقة عن مولده ، وعائلته ، ومؤهلاته الطبية ، والدوافع التى جعلته يقبل المجىء إلى هذه الصخرة النائية . ثم أخذ يسأله عن أخبار أصدقائه القدامى فى أوربا :

وفى اليوم التالى ، عاد الطبيب مريضه حوالى العاشرة صباحاً . وكان الإمبراطور لا يزال ملازما فراشه ، بعد أن قضى ليلة حافلة بالآلام والأوجاع وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث ، وقفت عربة بباب المنزل ، وكانت محملة بالصناديق والكتب الواردة للإمبراطور من الخارج . ولما أمر بفتحها وجدها مليئة بالكتب والمجلدات ، فنظر إليها بونابرت نظرة فاحصة ، وقال لمن حوله : « ليست الكتب هى الشىء الوحيد ، الذى يبحث عنه والد فى رسالة واردة من الخارج . انظروا داخل الصندوق وافحصوه جيداً ، فلا بد أن هناك شيئاً آخر أحبّ إلى قلبى من كل هذا ! » . . . وقد صدق حدس الإمبراطور ، لأنهم وجدوا صورة لابنه بين الكتب ، فما رآها حتى انهمرت الدموع من عينيه ؛ ونظر إليها طويلا ، ثم قبلها بحرقة وشوق ، وقال وهو يبكى : « ولدى العزيز ! . ستكون خير خلف لوالدك ، إذا قدّر لك أن تعيش بالرغم من دسائس أعدائى ! » . . .

وقضى الإمبراطور ليلته ساهراً يقرأ الصحف والمجلدات التى وردت من الخارج . فلما دخل عليه الطبيب فى الصباح ، وجده منهكاً متعباً ، لا يزال ممسكاً بصورة ولده . فناولها إلى طبيبه قائلا : «أرجو أن تضعها على رف المدفأة بجانب صورة والدته مارى لويز ! . . . ألا ترى الصورتين الأخريين ؟ . . . إنهما للحبيبة جوزفين ! . . . كم هى عزيزة إلى قلبى . . . لكم أحببتها ، ولا أزال أحبها ! . . . إن صورتها وذكراها يؤنسانى فى وحدتى المؤلمة . . . ألا ترى مظاهر العظمة والأبهة التى تحيط بى فى هذا الركن الحقير ؟ . . . شمعدانان بسيطان ، وقدحان مذهبان ، ومقص صغير ، وكوب ماء ، وزجاجتان من ماء الكولونيا ، وسرير حديدى ! . . . هذا كل ما خرجت به من عظمة الماضى ! . . . أين هذا من قصرى التويلرى والاليزيه ؟ ! . . . ولكن كل هذا يهون عندما أتذكر أن ما أضحى به ليس إلا حبًّا فى فرنسا وأهلها ! » .

* * *

ومرت الأيام حتى اكتملت أربع سنوات وآلام بونابرت فى ازدياد . وبدأ سنته الخامسة وهو يشعر بضعف جسمى وانحطاط معنوى شديدين . وفى يوم ١٨ نوفمبر ، شعر بانتعاش على غير عادة ، بالرغم من ضعفه . وبينما هو يمشى مع طبيبه فى حديقته الصغيرة ، التفت إليه فجأة ، وقال : « بماذا تشير علىّ يا طبيبى العزيز؟ . أما من وسيلة ألجأ إليها لأبعث النشاط إلى أطراف جسمى ؟ » . . . فأجابه الطبيب : « يا حبذا لو حاولت ممارسة أى نوع من الرياضة ! . . . ما رأى جلالتكم فى فلاحة الأرض ،

وتعهد هذا البستان الصغير بنفسك ؟ » .

فظهرت علامات السرور على وجه نابليون وصاح قائلا : « يا لها من فكرة صائبة ! . . . سوف أبدأ من باكر ! » . . .

وفى صباح اليوم التالى ، أرسل فى طلب طبيبه ، وقابله عند باب المنزل والفأس فى يده ، وقال له وهو يضحك : « ها هو مريضك يطيع أوامرك وينفذها حرفيًّا ودون تردد . . إننى أعتقد أن الفأس والمعول خير من أقراصك وأدويتك المقيئة ، التى لن أعود إليها ثانية ! » . . . وسرعان ما اعتاد جسم الإمبراطور ويداه الناعمتان الرياضة الجديدة ؛ وأشرك معه فى العمل جميع رجال حاشيته : فتحولت الحديقة الجرداء إلى بستان منسق . . .

وسمع الحاكم بمجهودات أسيره فى سبيل رفاهية « لونجوود » ، فحام حول المنزل ، وشاهد الطبيب واقفاً وحده فى الحديقة فناداه فى حذر ، وقال له : « هل أنت الذى أشار على الجنرال بونابرت بالقيام بهذا المجهود الشاق ؟ » وإذ رد الطبيب بالإيجاب ، هز الحاكم كتفيه وقال : « إنه مجهود ضائع . . . ألا تعلم أن كل هذه الشجيرات سوف تموت ، ولن تنمو واحدة منها ، مهما بذلتم من جهود ؟ ! » . . . ولما قص الطبيب تفاصيل الحديث على نابليون ، صاح هذا قائلا : « يا للوغد ! . . . ألا يريد أن يتركنى وشأنى دقيقة واحدة ؟ . . . إننى أعرف أنه يتمنى موتى وينتظره بفارغ الصبر . ولقد طالت حياتى لدرجة أزعجته وأقلقته . . . ولكن ليقر عينا ، فهذا الجو الخانق سوف يقضى علىّ عاجلا . . . وعندها يستريح بال سجانى العزيز ! » . . .

وأراد الإمبراطور ذات يوم ، عقب هذا الحادث ، أن يسخر من سجانه ، فأوعز إلى الأب «فيجنالى» أن يرتدى إحدى حلله ، ويمتطى صهوة جواده ، ويمسك بمنظاره ، ثم يتجوّل بحصانه متظاهراً بأنه يستكشف ما حول المنطقة الحرام . : . وسرعان ما قامت الدنيا وقعدت . وجاء الحاكم مسرعاً إلى «لونجوود» فلما وجد أنه لا معنى للضجة القائمة ، انسحب فى هدوء ، وقال للطبيب وهو ينصرف : «قل للجنرال إننى فهمت النكتة ، وإننى لن أقبلها مرة ثانية !» : . . فلما سمع الإمبراطور بذلك ، ضحك وقال : «الواقع أننا ضايقناه كثيراً بهذه المداعبة . إننى أرثى له !» :

* * *

٢٢ أكتوبر سنة ١٨٢٠ : ها قد مضت على الإمبراطور خمس سنوات وهو يعانى الآلام القاسية ، فى منفاه النائى بسانت هيلانه ، حيث تمر الأيام والأسابيع ببطء قاس ، ليس أقسى منه إلا الزوابع والضباب والأعاصير التى لا تنقطع معظم أيام السنة .

شعر الإمبراطور بتحسن قليل فى صحته ، فنادى طبيبه الخاص الدكتور «أنتوماركى» وقال له : «إننى أعاهدك يا دكتور أن أرسلك إلى أوربا — متى من الله علىّ بالشفاء — لتتم أبحاثك ودراساتك ، فحرام على أن أربط مستقبلك بمستقبلى ، وأدعك تقضى حياتك على هذه الصخرة المشئومة . : . » .

. . . .

٢٦ أكتوبر : قام الإمبراطور من مقعده بالرغم من ضعفه ،

وأخذ يسير فى بطء نحو حوض صغير بناه بنفسه ، وأخذ يتسلى بمراقبة أسماك صغيرة حمراء اللون ، وهى تلعب فى الماء، وكان يرمى لها قطعاً صغيرة من الخبز، ويبتسم فى تثاقل لرؤيتها وهى تلتهمها فى نشاط عجيب . . .

وفجأة ، لاحظ أن بعضها ميت ، والبعض الآخر كسول على غير عادة، فنظر إليها آسفاً ، وقال : « ألا ترون أن كل شىء أحبه يسبقنى إلى مصير أنا إليه سائر ؟ ! . . . إن ملاك الموت أو شيطانه قد أنس إلى هذا المكان ، وهذا هو يتسلى بقتل الأسماك قبل أن يسطو على الرأس الكبير ! » .

وأخذ الإمبراطور — منذ ذلك الحين — يتردد يومياً ليطمئن على أصدقائه الصغار ، ويلح على طبيبه ليكشف سر موتها الفجائى . وفكر الطبيب فى تحليل الماء ، ولكن الإمبراطور وجد أن هذا إجراء بطىء لا يسعف. وكان يرغمه على الذهاب عدة مرات فى اليوم ، ليرى ما إذا كانت الأسماك بخير . وأخذ الطبيب يقدح زناد فكره ، عله يتوصل إلى اكتشاف يشفى به غليل الإمبراطور . وأخيراً وجد أن المادة التى استعملت فى بناء قاع الحوض كانت تحتوى على نسبة كبيرة من النحاس ، كافية ليتسمم بها السمك . وفى الحال نقلت الأسماك الحية إلى برميل من الخشب ، فكان ذلك سبباً فى إنقاذ البقية الباقية منها ! .

. . . .

١٩ نوفمبر : كان نوم الإمبراطور مضطرباً فى الأيام الأخيرة ، وكان ألم الكبد يعاوده كل ساعة ، وقد انحطت قواه ، وفارقه نشاطه .

فأخذ يناجي طبيبه قائلا : « ما ألذ الراحة يا طبيبي العزيز ! . . . إن رفاهية الفراش دونها أي عرش في الوجود . إيه ! . . . ما أعظم التغيير الذي طرأ على نفسي وعقلي وتفكيري ، أيستطيب الفراش والراحة مَنْ كان مثال النشاط ، ومَنْ كان يقضي الليالي بأكملها لا يغمض له فيها جفن ، بل يفكر ويفكر ، ويعمل ويعمل ! . . . وطالما أمليت أوامري على أربعة أو خمسة أشخاص مختلفين في وقت واحد ، ولكني كنت إذ ذاك نابليون بونابرت ، أما الآن فإنني لا شيء ! . . . لقد غادرتني قواي ومواهبي وأعصابي ، وأصبحت الحياة أياماً تقضى لا عمل فيها ولا أمل . . . بالله يا طبيبي العزيز ، لا تلح علي في أخذ الدواء ، فقد غلب الداء وإن يُغلب ! » .

. . . .

١٦ ديسمبر : اشتد ضعف الإمبراطور . وفي الصباح ، عقب ليل قضاه في ألم مستمر ، حاول مغادرة الفراش ، ولكن قواه خانته ، فارتمى على مقعد قريب ، وأخذ يتمتم : « حتى رجلاي تخونانني ! . . . رباه ، ماذا بقي مني إذن ؟ ! . . . هيكل عظمي بلا حركة ولا تفكير ! . . . حقًّا إن لكل شيء نهاية ، وها هي نهايتي تقترب ، وعلامَ آسف ولم يبق لي في الحياة غاية ، ولم يعد لبقائي في الدنيا فائدة ؟ ! » .

* * *

وازدادت الحالة الصحية سوءاً خلال شهري يناير وفبراير سنة ١٨٢١ ، وأخذت الأيام تمر كالسنين ، بل كالأجيال طولا . فالألم والمرض المستمران

على حالهما ، والضباب والزوابع والأمطار لا تنقطع . . . وقد حل بنابليون يأس شديد ، وخاصة عندما قرأ فى الصحف عن وفاة شقيقته « إليزا » . . .

٢٩ مارس سنة ١٨٢١ : أخذت النهاية تقترب ، والإمبراطور ينتظرها باطمئنان وثبات عجيبين . وفى ذلك اليوم ، خاطب طبيبه قائلا : « إننى أرفع راية العصيان فى وجه كل من يحاول إرغامى على تعاطى أى دواء . فأنا شخص طالما واجه الموت بلا خوف ، وتعرض لأشد الأخطار هولا ، ولكن ليس أبغض إلى نفسى من أن تمس شفتى كأس الدواء ! . . . لعلك تقول عنى فى نفسك إننى طفل مدلل . . . ليكن ! » .

ثم التفت إلى مدام برتران وقال : « خبرينى بربك ، كيف تطاوعك نفسك على ابتلاع الحبوب والأدوية العديدة التى يصفها لك طبيبنا طيب القلب ؟ . . . » . فأجابت : « إننى أتناولها لأن أوامر الطبيب مقدسة ، ويجب إطاعتها . . . وإنى أنصح جلالتك بأن تحذو حذوى » . فهز رأسه فى ضعف ، وقال : « إننى إذن الوحيد بينكم ، الذى يثور فى وجه الطب والطبيب . سوف أطيعك يا مدام برتران ، وأتناول الدواء » .

قال هذا ، ثم تناول قدح الدواء ، وابتلع الجرعة دفعة واحدة * .

* أكثر « أنتوماركى » من وصف المقيئات والمسهلات حتى لقد صبر نابليون منها . وفى ذات يوم ، اقترح وضع حراقة على منطقة الكبد ، مما سبب للإمبراطور ألماً شديداً ، فصاح فى وجهه عند زيارته له ، فى صباح اليوم التالى : أنت جاهل . . وأنا أجهل منك ، لتنازلى بقبول علاجك ! . . ألا ترى فى تعذيب « هدسون لو » ما يكفينى ؟ ! . وكان «أنتوماركى» =

. . . .

٣١ مارس : كان حاكم الجزيرة السير « هدسون لو » قد كلف أحد الضباط بأن يقدم إليه تقريراً يومياً يثبت فيه أنه رأى « الجنرال بونابرت — كما كان يسميه ، إمعاناً في الإذلال ، وتجاهلا لعظمة ماضي هذا الأسير الكبير — فقام الضابط بواجبه منذ وطأت قدما نابليون أرض الجزيرة وقد لازم الإمبراطور فراشه منذ ١٧ مارس ، فلم تشأ عواطف الضابط الرقيقة أن يمضي في إطاعة أمر رئيسه ، واقتحام غرفة المحتضر العظيم ، ليقدم تقريره اليومي ؟ . . بأنه رأى « الجنرال بونابرت » . فهاج السير هدسون وماج وسار تتبعه حاشيته إلى منزل بونابرت ، وأخذ يحوم مزمجراً مهدداً الضابط بأقسى أنواع العقاب ، إذا لم ينفذ الأوامر الصادرة إليه .

وذهب الضابط إلى الجنرال « مونتولون » ، وسأله أن يساعده في محنته ، دون أن يكون في ذلك إيذاء لمشاعر الإمبراطور . فساعده الجنرال ، بأن جعله ينتظر في الخارج بجوار النافذة . وفي اللحظة التي قام فيها نابليون من سريره لقضاء حاجة ، مستنداً إلى ذارع طبيبه ، أزاح مونتولون الستار قليلا ، متظاهراً بأنه ينظر إلى الخارج . وبذلك أتاح للضابط أن يسرق

= يدرك مقدار ثقة بونابرت بكفاءته ، وكثيراً ماطلب مغادرة الجزيرة ، و إعفاءه من عمله ، ثم كان يعود فيرضى بالبقاء ، حتى عين الحاكم الطبيب « أرنوت » ، وكان أكثر كفاءة من أى طبيب اختاره الحاكم ، فحاز ثقة نابليون ، لأنه قام بواجبه في حدود المهنة والضمير والشرف . وتعاون مع « أنتومارکی » في العناية بالمريض العظيم .

نظرة إلى الغرفة المظلمة ، وإلى الإمبراطور ، وأن يقدم تقريره اليومى لرئيسه المتعجرف .

ولكن هذا لم يكفِ لإرضاء الحاكم ، بل هدد بأنه إذا لم يسمح للضابط بالدخول يومياً إلى غرفة (الجنرال بونابرت) ، فإنه سيأتى بنفسه ومعه حاشيته ،ويقتحم الغرفة غير آبه بالعواقب ،وعبثا حاول الجنرال مونتولون أن يثنيه عن عزمه ، مكرراً على مسمعه الواجب الإنسانى نحو مريض يحتضر ، بغض النظر عن شخصيته . فلم يعره الحاكم أى اهتمام ، واقتحم المنزل . ولكن الدكتور « أنتوماركى » كان قد سمع الضجة التى فى الخارج ، فخرج وهو ثائر على هذا الإنسان الذى قدّ قلبه من صخر : ولما التقت عيناه بعينى الحاكم ، صاح الأخير بعجرفة «أين الجنرال بونابرت ! ؟ » .

فأجاب الطبيب : « الجنرال بونابرت غير موجود هنا » .

فقال الحاكم : « ومتى اختفى ، وأين ؟ » .

فأجاب الطبيب بهدوء : «إن آخر مرة سمعت فيها باسم الجنرال بونابرت كانت فى معركة أبو قير ، التى هزم فيها قواتكم ورماها فى البحر ، وكانت معركة فاصلة حاز فيها نصراً حاسماً . . : ومنذ ذلك الوقت ، لم أعد أسمع بالجنرال بونابرت ، إذ أصبح الإمبراطور بونابرت ملء القلوب والأسماع ، ترتعد له كل الفرائص ، وتتألب عليه كل الدول التى تخشى اسمه : فهلا تركت رجلا ، هذا مجده وماضيه ، يموت فى هدوء ؟ » :

واحتدت المناقشة بين الطبيب والحاكم ، وكاد يحدث مالا تحمد

عقباه ، لولا أن تدخل الكونت « برتران » والجنرال « مونتولون » ، وتوسطا لدى الإمبراطور لكى يقبل حلاً وسطاً، وهو : أن يزوره يومياً — من قبل الحاكم — طبيب يثق فيه الطرفان ، وهو الدكتور «أرنوت» ، فيقدم هذا تقريراً يومياً ، بدلا من الضابط :

: : : : : : : : : : : : : : : : :

٢ أبريل : أعدت الحكومة البريطانية منزلا مريحاً للإمبراطور ليستعيض به عن المنزل الذى يقيم فيه : وهو منزل رطب اتخذت منه النيران عشاً، ووجدت العيش فيه سهلا . وألح الدكتور «أرنوت» فى نقل الإمبراطور فى الحال . وكان الأخير ينصت إلى « أرنوت » وهو يتكلم دون أن ينبس ببنت شفة ، حتى إذا انتهى كلامه ، التفت إلى طبيبه « أنتوماركى» ، وقال : « هل ترى مثل رأيه ؟ » :

فأجاب : « كلا يا مولاى : : : إن درجة حرارتكم مرتفعة ، وقد يكون لنقلكم من منزل إلى منزل أوخم العواقب » . فالتفت الإمبراطور إلى الدكتور أرنوت وقال : « هاقد سمعت بأذنيك . فلا تفكر بعد الآن فيما عرضته على ! » . : : وحاول أرنوت أن يؤثر عليه ، ولكن محاولاته لم تؤد إلى نتيجة .

: : : : : . : : . . . . . : : .

٦ أبريل : مضت عشرون يوماً منذ حلق الإمبراطور شعر ذقنه للمرة الأخيرة ، وقد حاول الطبيب أن يقنعه بالسماح لأحد خدمه بأن يحلق شعر ذقنه ، ولكنه رفض رفضاً باتاً فى أول الأمر : غير أن قناته

بدأت تلين لما طالت لحيته بدرجة أزعجته : وأفضى لطبيبه برغبته ، فاقترح هذا أن يرسلوا فى طلب حلاق ليقوم بالمهمة . وفكر الإمبراطور طويلا ، ثم قال : « إننى دائماً كنت أحلق ذقنى بيدى ، ولم أسمح حتى الآن ليد أخرى أن تمس وجهى . ولكننى الآن لا أقوى على عمل شىء ، فلا أملك سوى الإذعان والخضوع .. ولكن ، لا ، لا... لن أدعهم يقولون إن الضعف والوهن بلغا بى حداً سمحت معه لمخلوق بأن يمس وجهى . . . لن ينال هذا الشرف إلا أنت ! » .

فاحتج الطبيب بلطف ، قائلا : إنه لم يؤت خبرة تؤهله لهذا الشرف ، فسلم الإمبراطور بما اقترحه عليه .

. . . .

١٦ — أبريل : أمضى الإمبراطور الصباح كله فى كتابة وصيته ، وقد ضمنها ما يأتى :

١ — أوصى بأن أدفن على ضفاف « السين » ، لأشعر فى آخرتى بأننى بين الشعب الفرنسى ، الذى أحببته بكل قلبى .

٢ — أغادر هذه الدنيا وقلبى مفعم بالحب والإعجاب لزوجتى العزيزة الإمبراطورة « مارى لويز » ، وأوصيها خيراً بابننا الوحيد ، وأتوسل إليها أن تحميه من جو الدسائس والمؤامرات ، التى يشاء القدر أن تحاك حوله منذ طفولته البريئة .

٣ — أوصى ابنى بأن يذكر دائماً أنه ولد فرنسياً ، فيجب أن يعيش لفرنسا ، ويموت فى سبيلها . وليذكر دائماً مبدئى الذى عملت به وهو :

« كل شيء لفرنسا وللشعب الفرنسي » .

ثم أوصى بإعانات ومعاشات لجميع أصدقائه القدماء ، الذين كانوا بعد على قيد الحياة ، وكذلك أرامل وأطفال ضباطه القدامى الذين بذلوا دماءهم فى سبيله .

ثم كتب لابنه وصية طويلة ، حثه فيها ألاّ يجعل نصب عينيه الانتقام لأبيه ، بل عليه أن يتعظ بمصيره ، وألاّ يمضى فى طريق الحرب والفتوحات متشبهاً به . بل يعيش للسلام وللسلام وحده ، فإن القرن الواحد لا يحتمل حربين ، وأرض فرنسا مماوءة بالخيرات ، فعليه أن يستغلها لمصلحة شعبه النبيل . ثم كتب يقول :

« لا بد أن يتولد فى كل مكان شعور بالعطف علىّ ، نظراً للحالة البائسة التى صرت إليها ، وهذا العطف هو خير ميراث أتركه لابنى ، إذ سينعكس عليه ، وسيكون بذلك الأثر الذى تركته فى دول العالم أجمع ، نتيجة المعاملة التى ألاقيها وأقاسى من ويلاتها فى منفاى. وأنصح ابنى – إذا أراد أن يعيش فى سلام ووئام مع إنجلترا – بأن يراعى مصالحها التجارية قبل كل شيء ، والسبيل الوحيد الذى عليه أن يسلكه ، هو أن يتقاسم معها تجارة العالم ، ويدخل معها فى صلح دائم .

« إن البوربون لن يبقوا فى الحكم طويلا بعد موتى ، ولا بد أن تسنح الفرصة لابنى للعودة إلى عرش أبيه ، ولكن إياه أن يعتمد على قوى أجنبية للوصول إلى هذا العرش ! .

« وأوصيه خيراً بعائلته : : . إن أمى العجوز الطيبة القلب شديدة

المحافظة على التقاليد ، وأخوىّ جوزيف وأوجين يستطيعان أن يسديا إليه النصح والإرشاد .

« وإذا قدر له البقاء بالمنفى ، فعليه أن يتزوج بإحدى بنات أعمامه أو عماته . أما إذا رجع إلى العرش ، فعليه أن يتزوج بأميرة روسية ، فإن الارتباط بروسيا مما يزيد من نفوذ فرنسا فى الخارج » :

وختم وصيته بقوله : « أوصى ابنى بأن يكثر من قراءة تاريخ الأمم والحروب والفتوحات ، فالتاريخ وعظاته ودروسه أكبر فلسفة يجب أن يقتدى بها ملك . على أن قراءة كل فلسفات العالم والتاريخ لن تجدى ، ما لم يكن فى قرارة نفسه متمتعاً بنصيب كبير من حب الخير والرغبة عن الشرور والآثام . . . ولكنى أرجو من كل قلبى ، أن يهيئه الله لمستقبله الذى لا يزال فى عالم الغيب » :

: : : : : : : : : : : : : : : : : :

٢١ أبريل : طلب الإمبراطور استدعاء الأب فيجنالى ، وقال له :

« أطلب منك أيها الأب أن تقوم بالمراسيم الدينية عقب موتى ، وأن تصلى على روحى فى الكنيسة ، فى حضور جمهور المصلين : وأتوسل إليك أن تضع الصليب على قلبى ، وألاّ تكف عن صلواتك حتى أوارى التراب » :

: : : : : : : : : : : : : : : : : :

٢٥ أبريل : نام الإمبراطور فى هدوء معظم الليل . وكان الكونت مونثولون جالساً بجوار سريره يراقبه . وفى الساعة الرابعة صباحاً ، استيقظ

فجأة ، وقال وهو فى شبه ذهول : « لقد رأيت الحبيبة جوزفين الآن ، ورفضت أن تضمنى إلى صدرها ، إذ اختفت فى اللحظة التى كنت على وشك تقبيلها فيها . . . إنها لم تتغير كثيراً . . . ولا تزال عيناها مملوءتين بالإخلاص والمحبة . لقد قالت لى إننا سنتقابل فى القريب العاجل . وإننا لن نفترق بعد ذلك ! » .

ثم غلبه النعاس ، فاستأنف نومه . وفى الصباح ، أملى على الكونت نص الخطاب الذى يبلغ به الحاكم خبر موته :

« جناب الحاكم : لفظ الإمبراطور النفس الأخير فى يوم . . . . . الساعة . . . . ، بعد مرض طويل قاس . ولى عظيم الشرف بأن أبلغكم أن الإمبراطور أوصانى بأن أتصل بكم مباشرة ، للتحدث فى أمر نقل جثمانه إلى أرض الوطن ، وإعادة رفاقه كذلك إلى وطنهم الذى ابتعدوا عنه طويلا . وإنى ما زلت خادمكم المطيع .

توقيع : الكونت مونتولون

. . . .

٢٨ أبريل : بلغ الضعف بالإمبراطور مبلغاً عظيما ، وأخذ يتحدث عن موته بهدوء عجيب قائلا : « أوصيكم بأن تشرحوا جثتى بعد موتى ، ولكن عدونى بألا يمسها طبيب إنجليزى . . . فإذا كانت الحاجة ماسة لمساعدة من أحدهم ، فإن الدكتور « أرنوت » هو الوحيد الذى أسمح له بذلك ، وإذا ما فتحتم صدرى ، فانتزعوا قلبى وضعوه فى زجاجة بها كحول وأرسلوها إلى « بارما » ، حيث تقطن « مارى لويز » وأخبروها

بأنى أحببتها و بقيت على عهدها طول حياتى .

« وأرجو منكم أن توجهوا عناية خاصة لمعدتى ، وتكتبوا عما تجدون فيها تقريراً وافياً ، وترسلوه لابنى العزيز . فإن هذا القىء المستعصى يثير فى نفسى الشكوك . إن معدتى هى أصل البلاء . لقد مات والدى بسرطان المعدة ، وإننى أحس بأنى مصاب بنفس المرض ، وقد انقلب الشك عندى يقيناً ، عندما صار القىء مستمراً . فلا تنسوا أن تخبروا ابنى بكل مشاهداتكم عن سبب موتى ، حتى تساعدوه على تجنب هذا الداء الوراثى ، وصفوا له الدواء اللازم لذلك : وإذا ما عدتم إلى روما ، فعليكم بزيارة والدتى العزيزة . فإذا سألتكم عنى ، فخبروها بكل شىء . . . عن معيشتى فى هذه الجزيرة النائية ، وعن مرضى ، وعن موتى . فعسى أن تجد فى هذه التفاصيل عزاء وسلوى ! . . . » .

وارتمى الإمبراطور على سريره وهو منهوك القوى ، ثم راح فى سبات عميق ، وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة .

. . . .

٢ مايو : اشتدت حالة الإمبراطور وارتفعت حرارته ، وأخذ يهذى مستعرضاً تاريخ حياته . . . فتارة ينادى فرنسا ، وأخرى ينادى ابنه . وكان يبدو كأنه يتحدث مع رفاقه وكبار قواده الذين عرفهم فى أوج عظمته ومجده . وسمع مرة وهو يقول : « ستابنجل ، ديزى ، ماسينا . . . النصر قريب فهيا اهجموا وشددوا الضغط على العدو ! » .

وعقب ذلك ، حاول القفز من فراشه ، فخانته قدماه ، وسقط على الأرض فاقد الوعى : . . ويظهر أن تهيج الإمبراطور نفخ فيه قوة فوق العادة ، فهجم على « مونتولون » فى هذيانه ، وألقاه على الأرض ، وشدد عليه الخناق حتى كاد يزهق أنفاسه ، لولا أن « أرشمبولت » كان فى الغرفة المجاورة ، فأسرع عند سماع الجلبة ، وساعد « مونتولون » على إرجاع المريض إلى فراشه . وبعد لحظة أشار إليهم بيده طالباً جرعة ماء ، فقدموا له إسفنجة مبللة ، لأنه لم يعد قادراً على الابتلاع . . . هذا الذى دوّخ الأمصار ! :

وفى الساعة التاسعة صباحاً ، هبطت الحرارة ، وعاد إليه وعيه ، فنادى طبيبه وقال : « تذكر جيداً كل ما أوصيتك به ، فلا تهمل القيام بفحص معدتى بدقة بعد موتى ، لأنى أريد أن ينتفع ابنى بتجاربكم ، وأن نتعاون جميعاً على إنقاذه من الوقوع فى براثن هذا الداء اللعين . . : وأوصيك بأن تحاول الاتصال به ، فترشده إلى ما يجب عليه عمله لكى يقى نفسه هذا المرض : : . وهذا آخر مطلب أسألك القيام به ! » .

وعند الظهر عاود المرض شدته ، ونظر الإمبراطور إلى طبيبه ، قائلا وهو فى رباطة جأشه : « إن حالتى سيئة جداً ، وها هى ذى النهاية تقترب ! » ثم فقد وعيه ثانية ، واستغرق فى غيبوبة طويلة ، كان يفيق منها أحياناً ليوصى رفاقه ببعض أهل الجزيرة ، ممن كان يعطف عليهم بصفة خاصة . والواقع أن نابليون كان معبود سكان الجزيرة جميعاً من أكبرهم إلى أصغرهم مقاما وسنًّا . وكان سيلهم لا ينقطع ، وهم يترددون على المنزل ، متلهفين

على أخبار المريض العظيم : ولم يكن يملك نفسه من البكاء لرؤية مظاهر الإخلاص فى كل حركة من حركاتهم .

. . . .

٣ مايو : انتعش الإمبراطور قليلا فى الساعة الثانية بعد الظهر ، وأخذ يتحدث فى ضعف إلى الذين حوله قائلا : « ها قد بدت الساعة . . ساعة موتى ، وساعة رجوعكم إلى فرنسا ! . . . لقد شاطرتمونى آلام المنفى ، وآمل أن تخلصوا لذكراى كما أخلصتم لى فى حياتى . لقد اضطرتنى الظروف إلى أن أؤجل كثيراً من ضروب الإصلاح التى كنت أنوى أن أغدقها على فرنسا والشعب الفرنسى ، ولكن فرنسا برغم ذلك لا تنقم على ، بل إنها ما زالت تذكرنى بالعطف ، وتقدس اسمى وذكراى ، فكونوا مثلها مخلصين للمبادئ التى كافحنا سويًّا من أجلها ! » .

ثم أرسل فى طلب الأب « فيجنالى » ، وطلب أن يترك وإياه وحدهما . فخرج جميع من بالغرفة . . . وتلقى الإمبراطور — فى سكون ووحدة — طقوسه الدينية الأخيرة . وعقب انتهائها ، دخل الكونت « مونتولون » الغرفة ثانية ، فوجد علامات الاطمئنان والهدوء تبدو على وجه نابليون . وبعد حديث قصير ، نام هذا نوماً هادئاً . حتى إذا استيقظ فى الصباح ، نادى خادمه وقال له : « افتح النافذة يا مارشان ، لكى أستنشق الهواء العليل الذى أرسله لنا الله ! » .

. . . .

٥ مايو : كان ليل ٤ مايو مظلماً ، يقبض النفوس ، كثير الأعاصير

غزير الأمطار ، عصفت رياحه بكل الأشجار التى تعهدها الإمبراطور بعنايته ، فلم تبق على واحدة بل ألقتها على الأرض ، وكأنها تخر سجداً لرهبة الليل وحزن الموقف . وكان المريض العظيم فاقد الوعى ، لا يحس بما يجرى حوله . . . يتقلب فى فراشه ، ويتنهد تنهداً عميقاً ، بين آن وآخر .

وفى أثناء ذلك ، سمح لأطفال القرية بأن يمروا أمام هذا الرجل ، الذى طالما حباهم بعطفه . . . ولم يكونوا قد حظوا برؤيته منذ شهور ، فهالهم ما رأوه من تغير شكله وملامحه . وبعد تردد قصير ، هجموا نحو فراش المريض ، وأخذوا يقبلون يديه ويبللونها بدموعهم البريئة الغزيرة . وكان المنظر مؤثراً ، فلم يتمالك جميع الواقفين من البكاء كالأطفال ، وأغمى على واحد منهم ، هو ابن « برتران » الذى سمى « نابليون » تيمناً بالإمبراطور. وفى أثناء هذه المناحة ، دخل الغرفة أحد الخدم المخلصين ، وكان قد لازم الفراش ثمانية وأربعين يوماً . . . وكان شاحب اللون ، مرتعش اليدين من تأثير الحمى ، وقد أخذ يهذى ويبكى ، وهو يتقدم فى ضعف نحو سرير سيده حتى إذا ما وصل إليه ، جلس بجانبه ، وأخذ يتمتم باستمرار : « أنا فداؤه ! . . . أنا فداؤه ! » .

وازدادت الحال سوءاً أثناء الليل . وكان الإمبراطور يهذى وينادى : « فرنسا ! . . . الجيش ! » . . . وسمع وهو يهتف بهما ثانية فى الساعة السادسة صباحاً . واستمر فى غيبوبته العميقة حتى الساعة السادسة مساء : وكان طول هذه المدة نائماً على ظهره ، يتنفس بصعوبة ؛ وقد تدلت يده اليمنى خارج فراشه . أما قسمات وجهه وعيناه ، فقد تجلى فيهما هدوء

واطمئنان للمصير المحتوم .

وعندما آذنت الشمس بالمغيب ، وأخذت فى الاختفاء وراء الأفق ، صعدت معها روح نابليون إلى خالقها . وكانت آخر كلمات قالها : « جزيرة إلبا . . . نابليون . . . الجيش . . . جوزفين ! » .

* * *

كان نابليون قد أوصى بأن يدفن على ضفاف « السين » . فإذا لم يتسن ذلك ، ففى جزيرة « أجاكسيو » ، حيث دفن أجداده . . . فإذا رفضت الحكومة الإنجليزية هذا أيضاً ، فلتكن رقدته الأخيرة فى « سانت هيلانه » تحت شجرة معينة ، طالما تستظل بها بجوار النهر الصغير . . . فذهب أصدقاؤه — بعد الوفاة مباشرة — إلى حاكم الجزيرة ، وتضرعوا إليه أن يتوسط لدى حكومته للسماح بنقل الرفات إلى أرض الوطن . ولكنه صارحهم بأن لديه أوامر من حكومته بدفن « الجنرال بونابرت » فى جزيرة « سانت هيلانه » ، وإنه لا يمانع فى أن يدفن فى أية بقعة من الجزيرة يفضلونها . كذلك رفض بتاتاً أن يسمح بحجز القلب والمعدة بعد إجراء الصفة التشريحية — كما أوصى نابليون — بل صمم على أن تدفن جميع أجزاء جسم « الجنرال » فى أرض الجزيرة .

وبعد تشريح الجثة* أعدت للدفن ، فألبسها الخادم الخاص

---

* ظهر من تشريح الجثة أن نابليون كان مصاباً بالسل الرئوى ، وبقرحة سرطانية فى المعدة . أما التهاب الكبد — الذى عولج لأجله — فكان نتيجة مناخ الجزيرة الحار . وقد طغت هذه الفكرة على حقيقة مرضه ، =

للمتوفى الحلة التى اعتاد أن يلبسها فى حياته – أى الصديرية والبنطلون الأبيضان ، وربطة الرقبة السوداء ، والحذاءان الطويلان ، والقبعة المشهورة – ونشر على ساقيه العباءة التى لبسها فى موقعة « مارنجون » ، ووضع الصليب الفضى على صدره ، بينما وقف الأب « فيجنالى » عند رأسه يتلو صلواته .

وسرعان ما انتشر خبر وفاته فى أنحاء الجزيرة ، فتدفقت الجماهير طوال يومى ٦ و ٧ مايو على المنزل ، مارين أمام جثمانه ، مودعين إياه الوداع الأخير فى خشوع وحزن . . . حتى حاكم الجزيرة « السير هدسون لو » لم يتمالك أن يقول فى حزن : « لقد كان ألد أعداء بريطانيا ، وعدوى أنا أيضاً . . . ولكنى أسامحه » .

وصحا الجو فى صباح الثامن من شهر مايو ، وسطعت الشمس . واختفت السحب ، وهب نسيم منعش عليل . . . وازدحمت الطرقات بأهالى الجزيرة ، ليودعوا أسيرهم المحبوب الوداع الأخير . وفى الساعة الثانية عشرة والنصف حمل الجنود النعش إلى عربة جرتها أربعة جياد . وأحاط بالنعش اثنا عشر جندياً ، كانت مهمتهم حمل النعش فى الأمكنة التى يحول الوحل والمطر فيها دون متابعة سير العربة . ويتبع النعش مباشرة الأصدقاء الأخصاء وخدم المنزل ، وكانوا مطأطئى الرؤوس فى حزن وخشوع وألم ، وتلاهم حاكم

= فأكثر الأطباء من إعطائه المسهلات والمقيئات والمعرقات والحقن الشرجية والحمامات الملحية ، فضاعفوا من آلامه ، وجعلوا من جسمه حطاماً بالياً ، حتى إنه كان يصيح فى أطبائه مستغيثاً : « دعونى أمت من الداء ، فهذا خير لى من أن أموت من الدواء ! » .

الجزيرة ، وقائد الحامية ، وكبار الضباط على ظهور جيادهم . . . ومشى في المؤخرة جميع أهالى الجزيرة ، سيدات ورجالا وأطفالا ، واصطف على جانبي الطريق أفراد الحامية — التى خصصتها الحكومة البريطانية لحماية الجزيرة ، أثناء سجن الإمبراطور — وكان عددهم يبلغ ألفين وخمسمائة جندى.

. . . وأخيراً وقف الموكب ، وحمل الجنود النعش على أكتافهم ، وساروا به فى طريق ضيق ، إلى البقعة التى أوصى الفقيد بأن يُدفن فيها ، ووضع النعش على حافة المقبرة ، بينما أخذ الأب « فيجنالى » يتلو صلواته . . . وعند إنزال النعش إلى القبر ، أخذت السفن الحربية الراسية فى الميناء تطلق مدافعها تكريماً للفقيد العظيم ، وكانت لم تنقطع عن ذلك طول مدة سير الجنازة من المنزل إلى المقبرة .

ووضع لوح من الحجر بسيط فى مظهره على المقبرة ، نقش عليه :

« نابليون : ولد فى أجاكسيو فى ١٥ أغسطس ١٧٦٩ ، وتوفى فى سانت هيلانه فى ٥ مايو ١٨٢١ » .

* * *

وفى يوم ٢٧ مايو رحلت الحاشية — التى رافقته فى المنفى إلى فرنسا . وقبيل سفرهم ، ذهبوا إلى المقبرة فغطوها بالزهور والرياحين ، وبللوها بدموعهم التى لم يستطيعوا حبسها . . .

ولكن واحداً منهم — وهو السرجنت « هوبار » — رفض بتاتاً أن يترك قبر سيده . فبقى بجانبه ، يزوره يومياً ، مدة تسعة عشر عاماً ، حتى استجاب

العالم لصوت فرنسا ، وسمح بنقل رفات الإمبراطور إلى ضفاف « السين » تحت قبة « الأنفاليد » ... وعندها رافق هذا الخادم المخلص رفات سيده حزين القلب مكسور الفؤاد ولكن راضي الضمير .

خاتمة المطاف :

أوصى الإمبراطور بأن يدفن على ضفاف السين ، بين أبناء الشعب الفرنسي الذي أحبه من كل قلبه : وكان هذا الأمل يبدو مستحيلا عند كتابته ، ولكن سرعان ما مرت الأعوام ، وتغيرت الظروف . فما جاء شهر يوليو من عام ١٨٣٠ ، حتى قامت فرنسا قومة رجل واحد ، وطردت آل « بوربون » عن عرشها ، ووضعت التاج على مفرق « لويس فيليب » ، دوق « أورليان » .

وفى ٢٩ يوليو ١٨٣٢ ، توفى ابن نابليون الوحيد . . وكان عمره إذ ذاك واحداً وعشرين عاماً ، فزال بموته كل أثر مباشر لذرية بونابرت . وأخذت فرنسا تتحرر تدريجيًّا من رقابة الحلفاء وسيطرتهم. فانتهز الفرنسيون فرصة الاحتفال بذكرى وفاة بونابرت ، فى اليوم الخامس من مايو عام ١٨٤٠ ، وقدموا التماساً للحكومة البريطانية مطالبين فيه برفات الإمبراطور . وكان اللورد « بالمرستون » على رأس الحكومة البريطانية ، التى وافقت دون تردد ، فى خطاب ودى تمنت فيه أن يكون ذلك بداية عهد جديد بين الأمتين ، وأن تُدفن أحقاد الماضى فى القبر المعدّ لتلقى رفات الإمبراطور .

وفى اليوم الثانى عشر من شهر مايو ، أعلن رئيس الوزارة الفرنسية —

فى مجلس النواب الفرنسى — أن الملك قد أصدر أمره إلى الأمير « جوانفيل » بالسفر إلى جزيرة سانت هيلانه ، لاستلام رفات الإمبراطور ، وأبحر الأمير ومرافقوه على ظهر سفينتين حربيتين ، وصحبه فى الرحلة : الجنرال « جورجود » ، والجنرال « برتران » ، والكونت « لاس كاساس » ، وهم الذين كانوا فى معية الإمبراطور فى المنفى . وقد أخذوا معهم تابوتاً فاخراً من الآبنوس المتين كبير الحجم ليحوى التابوت الذى دفن به الإمبراطور : حتى لا تُزعج رفاته بنقلها من تابوت إلى آخر . وكتبت على التابوت كلمة واحدة ، بحروف من الذهب : « نابليون » ! .

ووصلت السفينتان إلى الجزيرة فى يوم ٨ أكتوبر ، فقوبلتا بترحيب كبير من مدفعية الساحل ، ومن السفن الإنجليزية الراسية فى الميناء وكان يوم ١٥ أكتوبر يوافق الذكرى الخامسة والعشرين لنزول الإمبراطور إلى سجنه — فى سانت هيلانه — فحدّد ذلك اليوم بالذات لفتح قبره واستخراج رفاته ، وفى منتصف الليل تماماً ، اجتمع حول القبر جماعة من المهندسين الإنجليز ، وشرعوا فى فتح القبر تحت إشراف حاكم الجزيرة ، وبحضور أعضاء البعثة الفرنسية : وبعد تسع ساعات من العمل الشاق المستمر ، أزيلت الأتربة والحجارة الصلبة من فوق اللحد . ولما رفعت البلاطة الصلبة من فوق التابوت ، أقيمت الصلاة .

ورفع التابوت فى سكون وإجلال إلى خيمة قريبة أعدت من قبل . ولما فتحت التوابيت الثلاثة التى احتوت الرفات — وكان أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص ، وثالثها من القصدير — بدت الجثة وقد غطيت بطبقة

من الحرير الأطلسى : ولما رفع هذا الغطاء ، كانت دهشة الموجودين عظيمة لأن تقاطيع وجه الإمبراطور لم تتغير بالرغم من مرور السنوات الطوال ، حتى إن معرفته لم تتعذّر على الذين رأوه فى حياته . وقد دل هذا على أن الاحتياطيات التى اتخذت لحماية الجثة من الهواء والرطوبة والحرارة ، أفلحت إلى حد كبير . أما الملابس فقد أصابها بعض البلى ؛ وبدا الإمبراطور وكأنه نائم نوماً هادئاً . ولم يستغرق التعرّف على الجثة أكثر من دقيقتين ، أقفلت بعدها التوابيت الثلاثة ثانية ، ووضع الجميع فى التابوت الآبنوسى الفاخر الذى أحضرته البعثة معها .

وكانت السماء تمطر وترعد إبان هذه العملية . وقصفت مدافع الساحل تكريماً لذكرى الإمبراطور ، ومشى جميع أهالى الجزيرة وراء النعش أثناء نقله من القبر إلى الميناء . وكان النعش موضوعاً على عربة تجرها أربعة خيول ، ويسير إلى كل من جانبيها ثمانية من ضباط حامية الجزيرة. وسار فى الموكب كل الموظفين الرسميين من مدنيين وعسكريين . وطلب حاكم الجزيرة — الذى خلف سير « هدسون لو » — رسميًّا من جميع رجال الجزيرة أن يرافقوا الجثة فى رحلتها إلى الميناء ، ومعهم كذلك جنود الحامية البريطانية المرابطة بالجزيرة . . . ورفعت الأعلام السوداء على جميع منازل « جيمس تاون » ونكست الأعلام على الدور الرسمية والسفن الحربية .

وعلى رصيف الميناء ، وقف الأمير جوانفيل وحوله الضباط الفرنسيون ، فى ملابسهم السوداء . وعندما اقتربت العربة نكسوا رؤوسهم الحاسرة . ووقفت العربة على بعد خطوات منهم . وتقدم حاكم الجزيرة وسلمهم جثة

الإمبراطور باسم الحكومة البريطانية . ونقل التابوت فى زورق صغير إلى السفينة ، بينما كانت المدافع تقصف ، والعلم الفرنسى يرفرف فوقه . وهناك وضع فى كنيسة صغيرة كانت قد أعدت من قبل لهذا الغرض . وأضيئت الشموع حوله ، ووقف لحراسته ستون جندياً ، ورفرف على النعش علم نفيس اشتركت فى صنعه السيدات الإنجليزيات اللاتى كن يقمن بسانت هيلانه .

وأبحرت السفينة فى اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر ، أى بعد مضى خمسة وعشرين عاماً وثلاثة أيام من تاريخ وصول بونابرت إلى الجزيرة ليقضى فيها بقية عمره .

* * *

وفى اليوم الثانى من شهر ديسمبر ، وصلت السفينة ميناء « شربورج » وعندها أرسلت المدافع من أفواهها إحدى وعشرين طاقة . ثم نقل التابوت إلى ظهر الباخرة « نورماندى » ، حيث وضع على منصة عالية ، وأحيط بالشموع المضيئة من كل جانب ، ووضع التاج الإمبراطورى على وسادة فاخرة عند رأس التابوت . . . ووقف الأمير « جوانفيل » عند الطرف الآخر وكان وضع التابوت بحيث يسمح للواقفين على ضفتى النهر برؤيته بجلاء ووضوح . وهكذا سارت السفينة عبر نهر « السين » بحملها الثمين ، الذى خفق له قلب فرنسا . وحيته الجماهير بحماس لا يوصف ، وقصفت المدافع من الجانبين ، ودقت الكنائس أجراسها الجنائزية . وكانت ضفتا « السين » — من « الهافر » إلى « باريس » — مكتظتين بالجموع التى لا حصر لها . ولم

ينقطع سيل الهتافات طول الطريق ، حتى وصل الموكب النهرى إلى قرية « كوربيفوا » ، وهى تبعد مسافة أربعة أميال من باريس . وكان قد أقيم هناك تمثال كبير للإمبراطورة جوزفين ، يمثلها وهى تستقبل زوجها العائد إلى وطنه ، فاتجهت كل القلوب إليها ، ولم يفكر أحد فى « مارى لويز » التى كانت لا تزال بعد على قيد الحياة ، تعيش فى عزلة تامة فى « بارما » .

وفى صباح اليوم التالى ، سطعت الشمس فى إشراق مبهج ، فصاحت الجماهير المتراصة « هذه شمس أوسترليتزا » . . . وابتدأ الموكب سيره ، تحف به كل مظاهر العظمة والأبهة . وكان شارع « الشانزليزيه » وقوس النصر مزينين بأبدع زينة وسارت العربة بين الأعلام والجماهير الحاشدة ، يجرها ستة عشر حصاناً أسود ، ويحيط بها السمائة جندى الذين رافقوا الجثة أثناء رحلتها من « سانت هيلانه » .

وعندما وصل الموكب إلى « الانفاليد » ، كان فى انتظاره الملك « لويس فيليب » ، يحيط به كبار ضباطه . وهناك حمل النعش اثنان وثلاثون من حرس نابليون القدماء ، وساروا به يتقدمهم الأمير «جوانفيل» ، الذى تقدم إلى الملك قائلا : مولاى ، إننى أقدم إليكم رفات الإمبراطور نابليون ! » . . . فأجاب الملك : « وأنا أتسلمها منك باسم فرنسا » ! .

* * *

هل مات نابليون مسموماً ؟

هذا سؤال طالما داعب خواطر محبى هذا البطل الكبير . . . وعندما استعرضت حياته فى « سانت هيلانه » — فى الكتاب الذى اقتبست منه تلك الصفحات — لم أجد إشارة واحدة تحيى فى نفسى الشك فى مصير بونابرت ، حتى وقع فى يدى عدد من مجلة « كتابى » للأستاذ « حلمى مراد » ، وبه تلخيص بقلمه لكتاب بعنوان « هل مات نابليون مسموماً ! » من تأليف الطبيب السويدى « ستين فور شوفورد » ، وتعليق عليه* .

والمعلوم أنه على إثر وفاة نابليون ، فى ٥ مايو من عام ١٨٢١ ، راجت موجة من الشائعات فى سائر بلاد العالم ، تجزم بأن الإمبراطور لم يمت ميتة طبيعية . ولكن تلك الشائعات سرعان ما خمدت ، على إثر إذاعة مضمون محضر تشريح جثته ، الذى قرر فيه موقعوه — وهم خمسة من كبار الأطباء الإنجليز — أن الإمبراطور مات نتيجة لإصابته بسرطان المعدة .

وظل العالم مستقراً على هذا الرأى بصدد سبب وفاة نابليون ، حتى خرج الطبيب والمحقق السويدى «ستين فورشوفورد» على العالم بنظرية جديدة مؤداها أن نابليون إنما مات نتيجة تسممه بالزرنيخ تسمماً بطيئاً . . . وبرهن على نظريته فى كتاب مطول — يقع فى ٢٦٠ صفحة كبيرة ،

* مقتبسة من مجلة « كتابى » ، العدد ١٠١ — للأستاذ « حلمى مراد » .



منظر آخر بقرية (واترلو) كانت هذه المنازل موجودة أيام المعركة

وهو الذى لخص فى « كتابى » تلخيصاً مركزاً متقناً ـ بمناسبة مرور مائتى سنة على مولد نابليون ، فى ١٥ أغسطس ١٧٦٩ . ولقد بلغ من دقة الدكتور المؤلف أنه حلل خصلة من شعر نابليون ، حصل عليها من أحد ورثة « لويس مارشان » ـ خادم الإمبراطور الخاص فى منفاه ـ وأرسلها إلى قسم الطب الشرعى بجامعة « جلاسجو » ، فأثبت التحليل ـ الذى قام به الأستاذ الدكتور « هاميلتون سميث » ـ العثور على نسبة كبيرة من الزرنيخ ، فى عينة الشعر التى أرسلها المؤلف . . . وبالكتاب وثائق زنكوغرافية تثبت هذا الافتراض .

والكتاب يجيب فى صفحاته على كثير من الأسئلة الهامة ، التى تتعلق بنهاية نابليون والتى من بينها :

١ ـ هل مات نابليون ميتة طبيعية أم مات مقتولا ؟ .

٢ ـ إذا كانت ميتة طبيعية ، فهل كانت نتيجة إصابته بالسرطان أو بقرحة المعدة أو بداء الكبد ؟ .

٣ ـ وإذا كان قد مات مقتولا ، فبأى سلاح قتل ؟ . . . ومن الذى قتله ، أو من المنفذ للجريمة ؟ . . . هل قتله حاكم الجزيرة بتحريض من الحكومة الإنجليزية ، أو قتله أحد أطبائه ، أو أن القاتل شخص ثالث ، والمحرض مصدر ثالث لم يخطر على بال أحد من قبل ؟ . . . وتنتابك الدهشة عندما يوجه أصبع الاتهام ـ فى النهاية ـ إلى ياور الإمبراطور ، الجنرال « مونتولون » الذى وضع فيه نابليون كل ثقته . . . وعندما يستخلص المؤلف أنه كان يعمل وفقاً لخطة مرسومة ، تنفيذاً لتعليمات محكمة كانت

تصدر إليه بانتظام ، فهو مرة يضع الزرنيخ فى طعامه ، فيعدو الإمبراطور فريسة لأزمات حادة متواصلة ، ثم تتحسن حالته وتنتعش نفسيته عند إيقاف الجرعات . . . وهكذا حتى حان موعد بداية النهاية المحتومة .

فى يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٢٠ ، دخل مرض الإمبراطور مرحلة جديدة طويلة : استمرت نحو خمسة أشهر ، حتى أواخر شهر فبراير عام ١٨٢١ . وبعد هذه المرحلة ، طرأ تحسن عابر على صحة نابليون ، حتى إذا حل يوم ١٧ مارس ، عاد إلى ملازمة الفراش ولم يقدّر له أن يبارحه بعد ذلك قط .

* * *

ويقول « مارشان » فى وصف هذه الحقبة من حياة نابليون : إن سيده صار يجد مشقة كبيرة فى القيام بنزهاته اليومية ، سواء بالعربة أو سيراً على الأقدام . . . وإنه كان يعود منها دائماً وقد استبد به التعب والإعياء . . . وكان يشعر ببرودة شديدة فى قدميه ، فلا يستطيع تدفئتهما ، إلا بلسهما فى اللفافات الساخنة ، التى كان يؤثرها على سائر وسائل التدفئة الأخرى . . .

واستطرد « مارشان » يروى فى مذكراته ، كيف أن نابليون حاول ذات يوم ، أن يستنشق الهواء الطلق بالتريض فى الحديقة ، أو بالقيام بنزهة قصيرة بالعربة . لكنه لم يكد يصل إلى العربة حتى انتابه الدوار ، فإذا به يهوى إلى الأرض فجأة . . . فهرع الخدم إليه وعاونوه على النهوض ثم أعادوه إلى فراشه . ولما استرد أنفاسه ، نظر إلى « مارشان » — وكان يقف بجواره — وقال له : « إنك تردنى إلى الحياة . . . وأحسب أن هناك أزمة فى

الطريق ، فإما أن تنقذنى . . . أو تقضى على ! » .

ومنذ ذلك الحين ، بدأ مرض نابليون يتخذ صورة جديدة : فقبل ذلك ، لم تكن آلام المعدة واضطراباتها هى أبرز ما يعانى ، فإذا بها تصير — فجأة — ظاهرة تلح على نابليون ، ولا تكاد تفارقه . . . ويبدو أن الجناة كانوا قد رأوا إذ ذاك ، أن الوقت قد حان كى يدخل الإمبراطور المرحلة الأخيرة من حياته . . . فقد راح يتقيأ بشكل عنيف متلاحق ، على نحو يدل على زيادة ضخمة فى مقدار السم الذى لم يكن ينفك يتجرعه من أمد طويل ، على غير علم منه ! .

وبعد سفر الدكتور « ستوكار » ، كان لا بد من تعيين طبيب الحامية الإنجليزية — الدكتور « أرنوت » للعناية بالإمبراطور فاستشاط « نابليون » غضباً ، ورفض — كعادته — قبول أى طبيب موفد من قبل حاكم الجزيرة . ومضى الجنرال « مونتولون » — ياور الإمبراطور — يحاول إثناءه عن عزمه . لكن جهوده باءت بالفشل ، فطلب إلى كبير الخدم « مارشان » — فى ليلة ٣١ مارس — أن يضم صوته إليه ، فإذا ما سأله الإمبراطور النصح بشأن الطبيب الإنجليزى ، فعليه أن يؤيد هذا الإجراء بكل قواه ، وإلا لما توانى الحاكم عن اقتحام غرفة الإمبراطور ، حتى يستوثق من وجوده .

على أن ثمة أدلة عدة تؤكد أن « هدسون لو » كان على علم تام بأن نابليون طريح الفراش ، وأن حالته الصحية سيئة للغاية ، فلم يفكر مطلقاً فى اقتحام غرفة المريض الكبير . ومن هنا يتضح أن « منتولون » لم يكن صادقاً فيما ساقه من مزاعم أمام كبير الخدم . . . فما السر فى موقفه هذا ؟ .



سينما قصر « امبير » تعرض فيلما عن معركة واترلو

وأى شىء دفعه إلى سلوك ذلك السبيل الملتوى ؟ .

إن لرواية الجنرال « منتولون » أهمية بالغة فى هذا الصدد ، إذ أنها تساعد على إلقاء ضوء كبير على حقيقة المأساة التى اكتنفت ساعات « نابليون » الأخيرة . . .

من ذلك أن « منتولون » يقول فى مذكراته إن تشخيص الدكتور « أرنوت » لمرض الإمبراطور ، تضمن أن المرض كان بالغ الخطورة ، وأن المريض كان يشكو من احتقان حاد حول بطنه ... فى حين أن الحقيقة كانت مغايرة لذلك ، إذ يؤخذ من مذكرات سائر الشهود الآخرين ، أن « أرنوت » لم يعتقد مطلقاً بأن « نابليون » كان فى حالة خطيرة . . .

ويزعم الجنرال كذلك أن نابليون فاتحه يوم ١٠ أبريل عام ١٨٢١ — لأول مرة — فى أمر وصيته وضرورة الانتهاء من كتابتها على وجه السرعة ... فلما حاول الياور إقناع الإمبراطور بأنه ليس ثمة ما يدعو إلى هذا الأمر ، وإنه سابق لأوانه ، أجابه نابليون فى إصرار : « بل سأكتب وصيتى غداً ، إذا استمرت حالتى فى التحسن » . . . والذى حدث فى حقيقة الأمر — طبقاً لما رواه شهود « سانت هيلانه » الآخرون — أن « منتولون » نفسه ، هو الذى فاتح نابليون — فى يوم ٣ أبريل — فى أن أيامه قد أصبحت معدودة ، وأن الوقت قد حان لكى « يرتب أموره » .

حتى إذا حل يوم ١٤ أبريل ، استدعى الإمبراطور ياوره ، وقال له : « سأملى عليك اليوم رغباتى الأخيرة ، فلتعد إلىّ عند الظهر ! » . . . وعندما أقبل فى الموعد المحدد ، طلب إليه الإمبراطور أن يغلق باب الغرفة ،

ثم أملى عليه وصيته فى ساعتين كاملتين دون توقف . . . وأخيراً طلبت إليه أن يقرأ عليه ما كتب ، فلما فرغ الجنرال من القراءة ، سأله نابليون : « هل تريد أن أوصى لك بنصيب أكبر ؟ » . . . فأجاب بالنفى .

ومما سجله « منتولون » فى مذكراته ، يتبين — فى جلاء — أنه قد حرص على تبرير ما حدا بالإمبراطور إلى تمييزه فى وصيته على « برتران » ، كبير الياوران ، فإذا هو يؤكد أن هذا التمييز إنما يرجع إلى أن الإمبراطور لم يكن يرتاح إلى « الآراء الأرستقراطية » التى كان يعتنقها « برتران » .

وقد حاول « منتولون » أن يثبت كذلك أنه لم يكن الذى سعى — كما أشيع — لحمل الإمبراطور على أن يحابيه فى وصيته ، بل إن نابليون هو الذى اتخذ هذا القرار من تلقاء نفسه . . .

وأيًّا كانت الأسباب ، فالمؤكد أن منتولون قد حرص على تدبير الأمر ، بحيث لا يكون هناك أحد سواه بجوار نابليون فى ساعاته الأخيرة. .. وبذلك يصبح هو فى نظر الجميع الشاهد الوحيد ، الذى يعتد بشهادته بصدد الحدث الكبير ! .

لذلك يحق للمرء أن يتساءل : ترى ما الذى جعل « منتولون » يحرص — كل هذا الحرص — على إبعاد جميع أفراد حاشية الإمبراطور عن حجرة المريض المحتضر ، فى أيامه الأخيرة ؟ ! .

* * *

وأخيراً : قدّر لآلام الإمبراطور أن تصل إلى نهايتها : ففى يوم

٤ مايو عام ١٨٢١ ، استيقظ نابليون من نومه وقد أحس بظمأ شديد يلهب حلقه . . . ولم يكد يتناول قليلا من الماء والنبيذ ، حتى لفظ ما شرب ، وانتابته شهقة حادة متواصلة . . ثم لبث ساكناً بلا حراك ، لكنه سرعان ما أخذ يهذى ، ويتفوه بكلام متقطع . وألفاظ غير مفهومة . . . وفى فجر اليوم التالى ، كان مستلقياً فى فراشه وقد راح فى غيبوبة تامة ، لا يأتى فيها بحركة تدل على أنه على قيد الحياة . . . باستثناء بعض تنهدات ، كانت تصدر عنه بين الفينة والأخرى ، فى ضعف ووهن . . .

وفى الساعة الخامسة والدقيقة الخمسين من مساء ذلك اليوم — ٥ مايو عام ١٨٢١ — وفى اللحظة التى كان فيها المدفع يعلن غروب الشمس واحتلال الحراس لمراكزهم اليومية لمنع الإمبراطور من الفرار ، كان « نابليون بونابرت » يلفظ آخر أنفاسه .

وبتشريح الجثة ، برزت فى جلاء حقيقة هامة ، على نحو لا يدع مجالا لأى شك ، هى أن الإمبراطور كان قد أصيب فعلا بنزيف خطير فى المعدة . . . فلقد أثبت التشريح أن المعدة كانت تحوى كمية كبيرة من مادة أشبه بحثالة حبات البن . ولم يكن هذا النزيف المعدى ناجماً عن أية إصابة سرطانية ، ولا عن أية قرحة عادية فى المعدة ، وإنما جاء نتيجة تآكل كامل فى الجدار المعدى . . . وهى ظاهرة لا يُحدثها إلا تسمم زئبقى خطير ! . . . وإذن ، فالسبب المباشر الذى أفضى إلى وفاة نابليون ، كان هو التسمم بمادة الزئبق . . . ومع أن الجثة كانت تحوى آثاراً واضحة

لتسمم مزمن بالزرنيخ ، فإن هذه الآثار لم تكن من الاستفحال بحيث تؤدى إلى موت سريع . . . بل كان واضحاً أن ثمة حالة تسمم حادة جديدة بالزئبق ، إلى جانب ذلك التسمم المزمن ! :

واقد منع الحاكم الإنجليزى تحنيط الجثة ، بالرغم من أن الإمبراطور كان قد أوصى بتحنيط قلبه وإرساله إلى زوجته « مارى لويز » . . . وعندما أراد « أنتوماركى » الاحتفاظ بمعدة نابليون ، كى يحملها معه إلى أوربا — لإجراء أبحاث عليها ، بالاشتراك مع زملائه — رُفض طلبه ، ولم يصدر الرفض هذه المرة من الحاكم ، بل صدر من « برتران » و « منتولون » رفيقى نابليون وتابعيه ! : : : وقد أصدر الحاكم أوامره للأطباء الإنجليز بعدم السماح بانتزاع أى شىء من الجثمان : : : فوُضعت المعدة والقلب فى إناءين فضيين مملوءين بالكحول ، أحكم لحامهما ، ووضعا فى التابوت :

وقد أودع جثمان نابليون تابوتاً من الحديد الأبيض أغلق بابه باللحام : : ثم أدخل فى تابوت ثان من خشب « الموجنى » ، ووضع هذا بدوره فى تابوت ثالث من الرصاص . : : وكان الغلاف الخارجى تابوتاً رابعاً من خشب « الموجنى » ، ثُبت غطاؤه بمسامير فضية . ولم يقرر الإنجليز تخفيف الحراسة على الجثة ، إلا بعد أن تم لحام التابوت الرصاصى :

وبعد تسعة عشر عاماً من وفاة نابليون ، استخرج التابوت من المقبرة ، وأعيد فحص الجثة للوقوف على ما عساه يكون قد طرأ عليهما من تغييرات : وكم كانت دهشة الطبيب — الذى أشرف على العملية — حين تبين أن الجثة

كانت سليمة تماماً ، ولم تتعرض لأى تحلل أو عفن . . : على أن الطبيب ما لبث أن عزا هذه الظاهرة إلى نوع تربة المقبرة ، وإحكام التوابيت التى استطاعت أن تصون الجثمان وتحافظ عليه ردحاً طويلا من الزمن . . .

والواقع أن هناك تفسيراً علمياً هاماً للصورة السليمة التى وجدت عليها رفات نابليون ، بالرغم من عدم تحنيطها . . . : ذلك أنه من المعروف طبياً ، أن جثث الأشخاص الذين يلقون حتفهم نتيجة تسممهم بالزرنيخ ، تظل على حالتها ، وتحتفظ بكيانها طويلا . . . بشكل يدعو إلى الدهشة والاستغراب ! .

وهكذا يبدو جلياً اليوم ، بصورة قاطعة . أن « نابليون بونابرت » قد مات مسموماً ، وأن تهمة السعى لاغتياله — التى كان هو قد جهر بها أمام التاريخ — تستند إلى أسس من الحقيقة والواقع ... بحيث يمكن الجزم بأنه إنما قتل قتلا بطيئاً : محكماً ، مع سبق الإصرار ... ولكن المهم فى الأمر ، هو تبين ما إذا كان الإنجليز هم الذين قتلوه . . . أو سواهم .

* * *

ولو احتكمنا إلى المنطق ، فإنه لا يبدو أن الحكومة الإنجليزية ترى مصلحة ما فى القضاء على نابليون . . . ولعل الحاكم « هدسون لو » قد أصاب كبد الحقيقة ، حين ذكر أن بقاء أسير « سانت هيلانه » فى قبضته ، إنما كان يزوّد الحكومة الإنجليزية بمفتاح يجعلها تتحكم فى توجيه التيارات السياسية الكبرى . . . فقد كان نابليون بمثابة « رهينة

ثمينة » . بات فى مقدور الإنجليز استغلالها ضد الدول الأخرى الأعضاء فى « الحلف المقدس » . وخاصة ضد فرنسا . . . وطالما كان الإمبراطور فى قبضة الإنجليز . فقد كان من الميسور عليهم التفاوض مع « باريس » وإملاء شروطهم عليها ، لا سيما فيما يتعلق بمسألة الرسوم الجمركية . : :

وثمة سبب آخر يهدم من الأساس فكرة تدبير (الحكومة الإنجليزية) اغتيال نابليون : إذ ما إن أعلن نبأ نفى الإمبراطور المعزول إلى جزيرة « سانت هيلانه » : حتى تحوّل الرأى العام الإنجليزى عن موقفه السابق . المعادى للزعيم الفرنسى ، إلى موقف ينطوى على العطف عليه . والتأييد له . بل واعتباره بطلا مغواراً جديراً بالتمجيد والخلود . ولما علمت « لندن » بوفاة الإمبراطور ، انتشرت الملصقات فى كل مكان : تدعو جميع المعجبين بالقائد الفرنسى الراحل إلى ارتداء ملابس الحداد . . . بل لقد حدث ذات مرة ، أثناء سنوات الأسر ، أن عرض أحد الضباط الإنجليز أن يمهد لنابليون سبيل الفرار ! : . . فلما أبدى أحد أتباع الإمبراطور دهشته لهذا التصرف — الذى عرضه الضابط بغير مقابل — أجابه هذا بقوله : « كيف تقول إن هذا بغير مقابل يا سيدى ؟ ! . . . أتراك لم تحسب حساباً للشرف الذى سيعود علىّ ، من جراء اقتران اسمى بإنقاذ بونابرت ؟ » .

ومن ثم لم تكن الحكومة الإنجليزية لتجسر ، حتى لو رغبت على أن تمس الإمبراطور بسوء ... بدافع الخشية من (رد الفعل) لدى الرأى العام الإنجليزى ، على الأقل ... إذ كان نابليون يتمتع لديه بشعبية حقيقية لا يسهل محوها ! .

على أن هذا الموقف من جانب الحكومة البريطانية كان يختلف – على خط مستقيم – عن موقف حكومة آل «بوربون» المالكة فى فرنسا، فطالما كان نابليون على قيد الحياة، كانت الملكية الفرنسية فى خطر دائم، ومعرضة للانهيار فى أية لحظة . . . حتى لقد كانت الحكومة الفرنسية تشعر بانزعاج بالغ، خشية أن يتهاون الإنجليز فى حراستهم للإمبراطور الأسير! . . . ولعل هذا ما دفع وزير خارجية فرنسا – فى ذلك الحين – إلى أن يقول للسفير الفرنسى فى لندن : «لو قدّر لنابليون أن يهرب من جزيرة «سانت هيلانه» لكان هذا سبباً فى اضطرابات لا حدّ لها فى وطننا التعس ... وإنه لمن المحزن حقاً أن يبقى هذا الرجل بين أيدى شعب قد ينجم عن تغيير حكامه تدبير مؤامرة تفضى إلى إعادة نابليون إلى مسرح الأحداث العالمية مرة أخرى» ! .

وكان لفرنسا مبعوث خاص فى «سانت هيلانة» يدعى «الماركيز دى مونشينو»، عرف بعدائه الشديد لنابليون . . . على أنه كان على درجة من الحماقة، وضيق الأفق، وضآلة التفكير، يستبعد معها أن يكون قد قام بأى دور رئيسى فى مأساة «سانت هيلانه» . . . ولعل شخصاً آخر فى فرنسا كان يقف وراءه ليمسك بجميع الخيوط، هو «تاليران» وزير خارجية نابليون السابق، الذى انقلب عليه فى عام ١٨٠٩، وأعد قرار مؤتمر «فيينا» القاضى بعزل نابليون عن الإنسانية . . . بل (قتله) إذا دعا الأمر! .

وهناك واقعتان تبرئان ساحة «دى مونشينو»، وتبعدان عنه تهمة



ضاحية فى مدينة (ليون)

الاشتراك فى وضع السم للإمبراطور : أولاهما أنه لم يكن فى وسع المبعوث الفرنسى الاقتراب من « نابليون » أو مقابلته ، على حين أن دس السم كان يتطلب أن يتولاه رجل يعيش على مقربة من الإمبراطور بصفة دائمة . . . والواقعة الأخرى هى أن عملية التسمم كانت بدأت بالفعل قبل وصول « دى مونتينو » إلى الجزيرة ، إذ أنه وفد إلى « سانت هيلانه » بعد أربعة أشهر من ظهور أولى أعراض التسمم على نابليون . . »

وليس من شك فى أن قاتل نابليون كان يقيم فى « سانت هيلانه » ، منذ أواخر شهر نوفمبر عام ١٨١٥ . ولا بد أنه كان على اتصال بالإمبراطور أثناء مراحل المرض المختلفة ، وكان فى مقدوره أن يكون موجوداً فى غرفة نابليون ، فى الوقت الذى كان فيه الجميع بعيدين عنها .

ولم يكن فى « سانت هيلانه » سوى أربعة أشخاص تنطبق عليهم هذه الظروف ، وهم : الجنرال (منتولون) ياور الإمبراطور ، و « مارشان » كبير الخدم ، و « نوفيراز » و « سان دينيس » الخادمان . . . ومن هؤلاء الأربعة ، يجب استبعاد الثلاثة الأخيرين ، الذين كان حبهم وولاؤهم للإمبراطور فوق الشبهات ، كما دلت القرائن والملابسات على استحالة ارتكابهم للجريمة . . . فلم يبق سوى الجنرال الكونت « منتولون » ياور نابليون ، الذى تدينه الملابسات ، وتنحصر فيه الشبهات . ويبدو أنه اضطر إلى التوقف عن دس السم للإمبراطور ، حين تولت حكم فرنسا وزارة « ديكاز » ، الذى كان رجلا معتدلا ، سبق له العمل فى خدمة والدة نابليون ، وكان يكن لها تقديراً وإعجاباً بالغين . .

وهكذا تحسنت صحة بونابرت حتى بدا كأنه شفى تماماً . خلال الفترة من أكتوبر ١٨١٩ إلى أكتوبر ١٨٢٠ ، وهى المدة التى بقيت فيها وزارة « ديكاز » فى الحكم ! . . . وكلها ملابسات توحى بمسئولية آل « بوربون » وحكومة فرنسا عن استخدام عميلها « منتولون » للقضاء على حياة غريمها نابليون . »

* * *

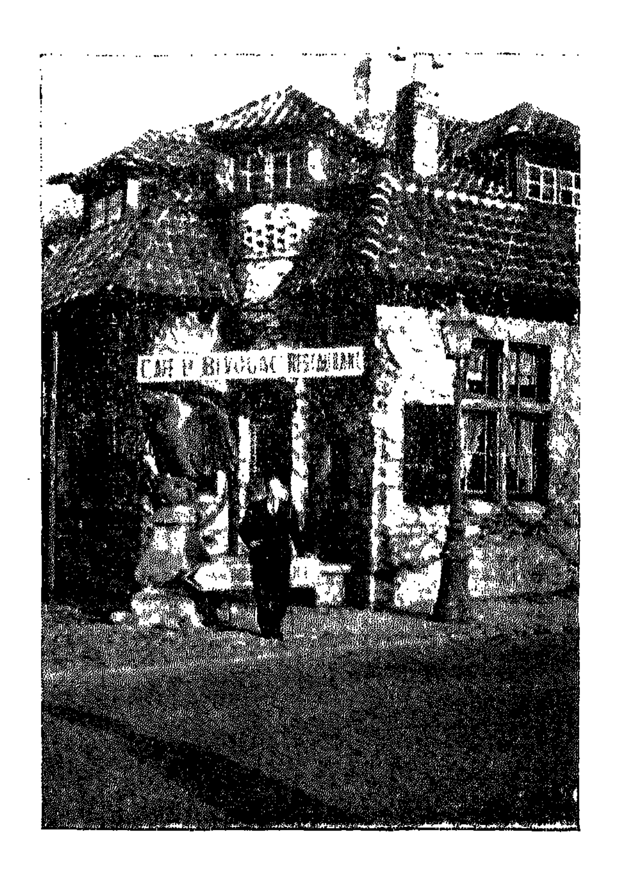
ومن الملابسات الأخرى ، التى تزيد التهمة التصاقاً بمنتولون ، أن صحة نابليون تحسنت أيضاً فى مناسبة أخرى . . . إذ لم يكد يعلن اعتزامه تعديل وصيته الأولى ، التى كان قد ترك فيها أنصبة متساوية لأتباعه ، حتى طرأ تحسن واضح على صحته ، استمر طوال الفترة التى قضاها نابليون و « منتولون » ، فى إعداد الوصية الجديدة ، التى خرج منها منتولون بأكبر نصيب من ميراث الإمبراطور .

وعندما فرغ نابليون من إملاء وصيته وتوقيعها ، التفت إلى منتولون قائلا : « والآن يا بنى ، أليس من المؤسف حقاً ألا يموت المرء ، بعد أن دبر شؤونه على هذه الصورة الرائعة ؟ ! » . . . فلم يكد يحل مساء ذلك اليوم ، حتى أصيب الإمبراطور بنوبة حادة خطيرة ، صارت تتفاقم يوماً بعد يوم ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بعد أسابيع . . .

ومما يزيد فى إلصاق التهمة بالجنرال « منتولون » أنه أوحى فى مذكراته بأن نابليون مات بالسرطان . فقد زعم أن الإمبراطور بدأ يفقد بدانته بشكل ظاهر ، منذ أوائل فبراير ١٨٢١ ، وأن معدته بدأت تنزف دماً

منذ ١٧ مارس من نفس العام . . . فى حين أن هذه الأعراض لم تظهر عليه حقيقة ، إلا فى أيامه الأخيرة . . . كذلك زعم أن نابايرن كان يقوم بنزهات طويلة على صهوة جواده ، فى فترة كانت ساقا الإمبراطور خلالها — بشهادة الجميع — من الضعف والهزال بحيث لا تكادان تقويان على حمله بسبب البرودة القاسية التى كانت تسرى فيهما ، والتى هى من أعراض التسمم البطىء . . . وقد أغفل الياور الإشارة إلى هذه البرودة فى مذكراته بالرغم من أنه تحدث عنها إلى حاكم الجزيرة « هدسون لو » ، معللا إياها بمرض فى القلب . . . وعندما نشر منتولون مذكراته فى عام ١٨٤٦ ، كان جميع شهود « سانت هيلانه » قد لاقوا ربهم باستثناء واحد فقط ، هو « مارشان » ، كبير الخدم . فكتب الأخير — فى مذكراته — يقول إن ذاكرة منتولون قد « خانته » فى عدد كبير من النقاط الهامة ، وإنه وعده بإصدار طبعة جديدة منقحة من مذكراته . . . بالتعاون معه ! . . لكن المنية عاجلت منتولون قبل أن يحقق وعده . . .

على أن هذه القرائن كلها ليست أكثر من شبهات لا تمكننا من الجزم بأن منتولون بالتحديد هو القاتل . . . كما يتعذر تحديد « المحرّض » الذى سخر القاتل للقضاء على حياة نابليون . . . وإن أمكن القول بأن ساسة أوروبا ، من أعضاء مؤتمر « فيينا » ، هم جميعاً « محرّضون أصليون » ، لأنهم أصدروا قراراً بحرمان عدوهم اللدود من « حماية القانون » ! . . . أما الشخص الذى استخدم فى تنفيذ الجريمة ، فلعل الأيام تساعد



منزل بالقرية كان موجوداً منذ أيام المعركة . ويرى المؤلف واقفاً أمامه

على كشف النقاب عنه بصورة مؤكدة . . . بفضل جهود المحققين وسعيهم الدائب للتأكد منه .

* * *

أما حاكم « سانت هيلانه » الإنجليزى « هدسون لو »، الذى اتهمه نابليون فى كل مناسبة بالسعى إلى قتله ، فتكاد جريمته تنحصر فى « الخشونة » و « سوء المعاملة » ، والطريقة الخرقاء التى نفذ بها تعليمات حكومته بشأن حراسة الأسير الخطير ! . . . وقد عاقبه الشعب الإنجليزى نفسه على سوء تصرفه ، فحفلت مذكراته بالأنين المتواصل والشكوى المرة من المعاملة السيئة التى لقيها فى إنجلترا بعد عودته من « سانت هيلانه » . . . فلقد أراد المثول بين يدى الملك « جورج الرابع » ، لكن أمين القصر استقبله فى خشونة بالغة ، وأبلغه بأن الملك يرفض مقابلته . . . وحدث بعد ذلك ، أن طلب الانضمام إلى نادى الضباط ، إلا أن طلبه رُفض بإجماع الأصوات . وكان فى كل مكان يمضى إليه ، يقابل بعاصفة من السباب والشتائم ، حتى لقد أطلق عليه الإنجليز وصف « القاتل » ، مما حدا به — فى النهاية — إلى مغادرة إنجلترا ، والرحيل إلى « سيلان » ! .

ولكنه لم يجد فى « سيلان » الاستقبال الذى كان يحلم به ، فسافر إلى « بومباى » ثم غادرها إلى جزيرة « موريس » ، فوصل إلى هناك فى مايو ١٨٢٨ . . . وذات يوم ، خطر له أن يذهب إلى أحد المسارح ، فتلقى تحذيراً بأنه — إذا نفذ ما اعتزم — فسيغادر جميع النظارة القاعة ،

عائدين من حيث أتوا ! . . . . ولما أبحر أخيراً ، راجعاً إلى بلاده ، ودّعته جموع حاشدة، راحت تصيح مزمجرة . وهى تشير إليه : « انظروا إلى جلاد سانت هيلانه ! . . . اشنقوا المجرم ! . . . إلى قاع البحر أيها الوغد ! » . . . حتى لقد عمد ياوره الخاص ، إلى تحطيم سيفه على رؤوس الأشهاد، لاعناً الظروف التى وضعته تحت إمرة شخصية أصبحت موضع ازدراء الناس جميعاً ! .

وحين وصل « هدسون لو » إلى إنجلترا، حاول الحصول على منصب حكومى ، ولكن دون جدوى . . . فلما أعياه السعى ، أسقط فى يده ، فقرر فى النهاية الانزواء فى إحدى المدن الصغيرة، حيث عاش بقية أيامه متخفياً تحت اسم مستعار . . .

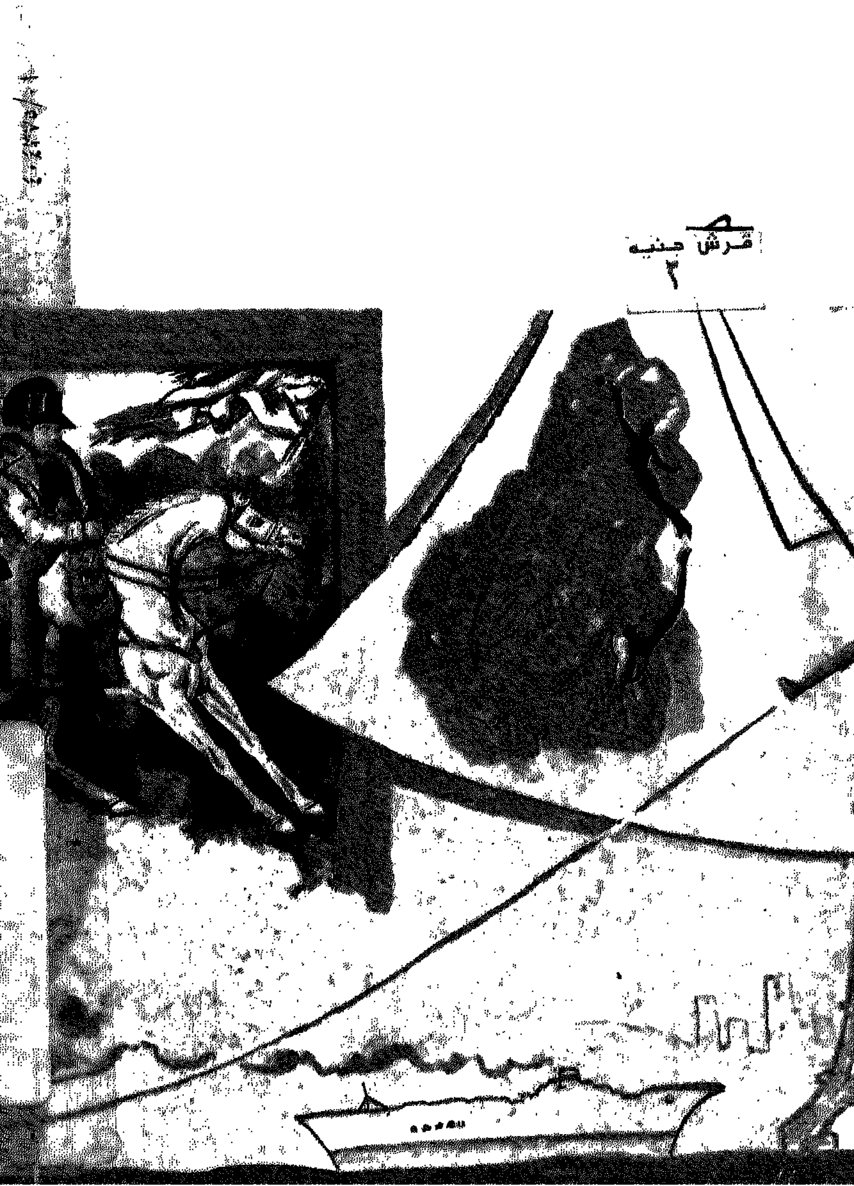
محتويات الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٩٧٥/٣٩٥٧

مطابع دار المعارف بمصر — ١٩٧٥

١ / ٧٥ / ١٦٠



ص
قرش جنيه
٢